

الحقيقة الضائعة

رحلاتي نحو مذهب آل البيت

وتطهروا كما تطهروا إنما يريد الله ليذهب عنكم
النجاسة أي النجاسة التي هي في قلوبكم

تأليف الكاتب السوداني
الشيخ معتصم سيد أحمد

توزيع

دار المنجى البيضاء



الحقيقة الضائعة
«رطاح نحره مضمب آل البيت (ع)»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ
عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ
مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾
الزمر/ ٢٢

(إذا أراد الله بعبده خيراً نكت في قلبه
نكتة بيضاء فجال القلب يطلب الحق ثم
هو إلى أمركم أسرع من الطير إلى وكره)

الإمام جعفر الصادق عليه السلام

بحار الأنوار ٢٠٤/٥

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م



دار الحجارة البيضاء، للطباعة والنشر والتوزيع = بيروت - لبنان مس. ب : ١٤/٥٤٧٩

الحقيقة الضائعة

«رحلتي نحو مذهب آل البيت»

الكاتب السوداني
الشيخ معتصم سيد أحمد

توزيع
دارُ الحجَّةِ البيضاء

إهداء

إلى المولودة في معقل العصمة والقي، ومهبط الوحي والهدى، والمورثة
عظيم الفضل والندى ..

إلى المرأة الصالحة، ومجاهدة الناصحة، والحررة الأبية، والبوة الطاليفة،
والمعجزة المحمدية، والذخيرة الحيدرية، والوديعة الفاطمية..

إلى من أطاعت الله تعالى في السر والعلن، وتحدث بمواقفها أهل النفاق
والفتن..

إلى من أرهبت الطغاة في صلابتها، وأدهشت العقول برباطة جأشها، ومثلت
أباها علياً بشجاعته، وأشبهت أمها الزهراء في عظمتها وبلاغتها..

إلى المسبوبة لأسرة النبوة والإمامة، الموهوبة وسام الشرف والمجد والكرامة..
إلى .. بطلة كربلاء عقيلة بني هاشم ..

سيدتي ومولاتي زينب (ع)

الفصل الأول

مقتطفات من حياتي

- أيام صباي
- كيف كانت البداية
- في الجامعة
- في قريننا
- مناظرة مع شيخ الوهابية
- ملاحظات للباحث لا بد منها

مقتطفات من حياتي

□ أيام صباي :

كانت تتابني الرغبة منذ صغري.. وتشدني الفطرة نحو الالتزام بالدين، وكانت الصورة التي تراود ذهني وأستشف منها مستقبلي، لا تخرج عن اطار التدين، فكنت أرى نفسي عبر أحلام اليقظة بطلاً، وفارساً إسلامياً مجاهداً، أردُّ للدين حرمة وللإسلام عزته، لم أكن قد تجاوزت المراحل الأولى في المدارس الأكاديمية، ولذلك كانت أفكاري قاصرة، وإمامي بتاريخ المسلمين وحضارتهم محدوداً، ولم أكن أعرف إلا بعض القصص عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحروبه مع الكفار، وبطولات الإمام علي عليه السلام وشجاعته.. وبعد دراستنا لتاريخ الدولة المهديّة في السودان، أعجبت بشخصية (عثمان دقنة) وهو أحد قواد جيش المهدي الثائر في شرق السودان، وكان يشدني جهاده عندما كان أستاذاً في التاريخ يصور لنا استبساله وعظمة شخصيته، وهو مجاهد بين الجبال والوديان.. وهكذا تعلق قلبي به، وبنيتُ آمالي على أن أكون مثله، وبدأت أفكر بعقلي الصغير، للوصول لهذا الهدف فكان طريقي الوحيد الذي كنت أتصوره أن أكون خريجاً في المستقبل من الكلية الحربية العسكرية، حتى أتدرب على فنون القتال واستعمال السلاح، وعشتُ على هذا الهوس سنين من عمري.. حتى انتقلت إلى المرحلة الثانوية، وفيها تفتحت مداركي وازدادت معرفتي،

فتعرفت على قادات التحرر في العالم الإسلامي، أمثال عبد الرحمن الكواكبي، والسنوسي، وعمر المختار.. وجمال الدين الأفغاني، ذلك الثائر والعبقري المفكر الذي انطلق من أفغانستان وتنقل في عواصم الدول الإسلامية والغير إسلامية ناشراً الفكر الحيوي الذي يتناول أبعاد التخلف في العالم الإسلامي وكيفية علاجها.

وما شدَّ انتباهي! هو أسلوبه الذي كان يمارسه في عمله الجهادي من الحكمة والحنكة ونشر الثقافة وإعطاء الرشد الفكري للأمة الإسلامية، من غير أن يحمل سلاحاً!..

فقد كنتُ أعتقد، أن كل من يريد أن يجاهد ويدافع عن المسلمين، لا بد أن يرفع السيف ويخوض الحروب والمعارك، فكان أسلوبه مغايراً تماماً لما كنتُ أتصوره، فأسلوب الكلمة والثقافة الواعية شيء جديد في تفكيري الديني، ولكنني لم أستطع التخلي بسهولة عما بنيتُ عليه أفكاري وطموحاتي، رغم اكتشافي أن أزمة الأمة أزمة ثقافة رسالية ناضجة، لأن الثقافة هي التي يمكن أن تُحمّل كل فرد مسؤوليته، فهذا هو جمال الدين طاف العالم وهو ييثر نوره وبركته وينشر الفكر والثقافة التي تلقاها المسلمون بترحيب وتفاعل، لأنها كانت تحلُّ لهم مشاكلهم وتتعامل مع واقعهم، فأرهب بذلك القوى الاستعمارية الحاقدة، فكانت العروة الوثقى^(١) وحدها تجدُّ شامخاً لهم جعلهم يعملون على محاصرتها ومنع إصدارها.

فكان التساؤل الذي يراودني :

كيف تمكنَّ هذا الفرد الوحيد أن يغير تلك الموازنات، وكيف أرهب كل هذه القوى المستكبرة!؟

(١) وهي جريدة اصدرها جمال الدين وتلميذه محمد عبده في لندن .

وللإجابة على هذا السؤال، انفتحت أمامي بوابة من الأسئلة بعضها بسيط، وبعضها لا إجابة له في الواقع السوداني.. مما جعلني أحاول أن أتحرر من هذا الواقع، وأفك كل القيود والأغلال التي كانت تدعوني للاستسلام والخضوع لهذا الواقع الديني، لكي أسير في هذه الحياة كما كان آباي وأجدادي، ولكن شعوري بالمسؤولية وحيي لجمال الدين كان ناقوساً يذق على أوتار فطرتي.. فكنت أتساءل :

كيف يمكن لي أن أصير مثل جمال الدين؟!.

وهل الدين الذي ورثته يمكن أن يحملني لذلك المستوى؟!.

ثم أقول: ولم لا؟!، هل كان لجمال الدين دين غير ديننا؟!، وإسلام

غير إسلامنا؟!.

وللإجابة، تحيرت سنين عديدة وكل ما توصلت إليه هو تغير مفهومي للدين بصورة إجمالية، فأصبحت أرى في جمال الدين القدوة والمثال بعدما كان عثمان دقنة، وتغيرت تبعاً لذلك الوسيلة، فبعدها كانت الكلية الحربية، أصبح المنهج السليم الذي يُعرفني على الفكر والثقافة الإسلامية الأصيلة، التي من خلالها تكون النهضة الإسلامية.

□ كيف كانت البداية :

كان البحث عن المنهج والفكر الناضج والثقافة المسؤولة صعباً، وكانت المرحلة مريرة، رغم أن بحثي كان بصورة عفوية وفطرية، ففي أثناء حياتي الطبيعية كنتُ أسأل وأناقش وغير ذلك، ولم يكن هناك تفرغ للبحث والمثابرة..

وبعد الغزو الوهابي العنيف على السودان، واشتداد المناظرات والمناقشات، وازدياد الحركة الدينية، انكشفت كثير من الحقائق، وظهرت

كثير من الاختلافات والمفارقات التاريخية والعقائدية والفقهية، وبدأت عملية تكفير بعض الفرق وإخراجها من ربة الإسلام، مما أدى إلى التمدد وتباين الخطوط.

ورغم مرارة ما حدث، فقد وجدت بغيتي وازدادت بحثي، وأصبحت أشعر بواقعية تلك الأسئلة العفوية التي كانت تراود ذهني.

فكثرت اهتمامي بالوهابية، متابعاً لمناظراتهم وندواتهم التي كانت تشدني، وأهم ما تعلمته منهم في تلك المرحلة، هي الجرأة وتحدي الواقع ومخالفته، فلقد كنت أعتقد أن الواقع مقدس لا يمكن التهجم عليه أو التعرض له، رغم ملاحظاتي الكثيرة عليه التي غالباً ما كنت أستشفها من وجداني وفطرتي، فكنت أتحفظ على كثير من أفعال وممارسات المجتمع الديني.

فواصلت معهم المسير، ودار بيني وبينهم كثير من المناقشات، التي كانت في الواقع عبارة عن تلك الأسئلة التي كانت حائرة في ذهني، فوجدت لبعضها أجوبة أرضتني في تلك المرحلة، وأسئلة لم أجد لها أجوبة عندهم، فكان هذا كفيلاً بالنسبة لي أن أتعاطف معهم، وأشد أزهرهم، مع بقاء بعض الملاحظات التي كانت حائلاً بيني وبين أن ألتزم تماماً بالمنهج الوهابي، أولها وأهمها أنني لم أجد عندهم ما يكفيني ويلبي طموحاتي الرسالية.. وكان الوسواس يأخذني أحياناً بقوله: إن الذي تفكر فيه وتبحث عنه شيء مثالي لا واقع له، وأن الوهابية أقرب نموذج للإسلام ولا بديل غيرها ...

فكنت أنساق لهذا الوسواس وأصدقته، لعدم معرفتي بالأفكار والمدارس الأخرى، ولكن سرعان ما أنتبه إلى أن الذي صنع جمال الدين لا يمكن أن يكون هذا الفكر الوهابي، فكنتُ أصرحُ: إن الوهابية هي أقرب الطرق إلى

الإسلام - لما يقيمونه من أدلة ونصوص على صدق مذهبهم لم أشهدوا في الطوائف الأخرى في السودان - ولكن مشكلتهم أن هذا المذهب الذي يتبنونه أشبه بقوانين الرياضيات، فهو عبارة عن قواعد وقوانين جامدة، تطبق من غير أن تكون لها انعكاسات حضارية واضحة في حياة الإنسان، وفي فن تعامله مع هذه الدنيا في شتى الأصعدة الفردية منها أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية..، وحتى في كيفية العلاقة مع الله تعالى. بل العكس تماماً فكثيراً ما تجعل الإنسان متوحشاً في عزلة عن المجتمع بما يحمله من صكوك التكفير لكل قطاعاته، فلا يستطيع الواحد منهم أن يتعايش مع المجتمع فيتميز عنهم بلباسه وتصرفاته وفي كل جزئية من حياته، لا يتألف إلا مع أقرانه، فكنت أحس منهم الغرور والكبر والأنفة لأنهم ينظرون إلى الناس من شاطئ عال، لا يتفاعلون معهم ولا يشاركونهم في حياتهم.

وكيف يشاركونهم؟!، وكل ما يفعله المجتمع بدعة وضلال..

وأنا أذكر جيداً عندما دخل المد الوهابي إلى قرينتنا، ففي مدة قليلة ومن غير دراسة ووعي، انضمت مجموعة كبيرة من الشباب إلى الخط الوهابي، ثم لم يستمر الزمن كثيراً حتى تخلّوا عنه جميعاً، وكان هذا توقعي، لأن المذهب الجديد منعهم من مخالطة المجتمع وحرّم عليهم كثيراً من العادات التي تربوا عليها، وهي في الواقع لا تخالف الدين.

ومن الطريف أن أذكر، أن من الأشياء التي كان يعاني منها الشباب المنضمون إلى المذهب الوهابي، أنه كان من العادة في قرينتنا أن الشباب في ليالي القمر يجلسون على الرمال الصافية ويتسامرون ويقضون أوقاتهم، وهي ساعة اللقاء الوحيدة لشباب القرية الذين يعملون طوال النهار في مزارعهم وأشغالهم المتعددة، فكان شيخهم يمنعهم من ذلك ويحرّم عليهم بحجة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرّم الجلوس في الطرقات، رغم أن هذه

الأماكن لا تعتبر طرقات. وثانياً وهي مشكلة كل الوهاية، أن الواحد منهم بزمن قليل من تدينه وبقليل من العلم، يصبح مجتهداً يحق له أن يفتي في أي مسألة، وأذكر يوماً أن أحدهم كان جالساً معي أناقشه في كثير من الأمور، وفي أثناء النقاش انتفض قائماً بعدما سمع صوت أذان المغرب في مسجدهم، قلتُ له مهلاً نكمل حديثنا. قال: لا حديث، قد حان وقت الصلاة، هيا لنصلي في المسجد، قلتُ له: أنا أصلي في بيتي - رغم التزامي بالصلاة معهم - قال صارخاً: باطله صلاتك. انذهلتُ من هذا القول.. وقبل أن أستفسر أدار ظهره ليذهب. قلتُ له: مكانك، ما هو سبب بطلان صلاتي في البيت؟

قال (بكل افتخار وعجب): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد. قلتُ له: لا خلاف في أفضلية صلاة الجماعة في المسجد، ولكن هذا لا يعني سلب صحة الصلاة في غير هذا الموضع، والحديث ناظر لتأكيد هذه الأفضلية لا لتبيين حكم الصلاة في البيت، والدليل على ذلك أننا لم نَرَ في الفقه أن من مبطلات الصلاة الصلاة في البيت، ولم يفتِ أحدٌ من الفقهاء في هذه المسألة، ثم ثانياً بأي حق تُصدِر هذه الأحكام؟! هل أنت فقيه؟!.. ومن الصعب جداً أن يفتي الإنسان ويبين حكماً لموضوع معين، فالفقيه يقوم بدراسة كل النصوص في مثل هذا المورد، ويتعرف على دلالة الأمر والنهي في النص.. هل يدل الأمر على الوجوب أم على الاستحباب، والنهي هل يدل على الحرمة أم الكراهة.. فهذا الدين عميق فأوغل فيه برفق.

بدا الانكسار في وجهه، وعبس وبسر ثم قال: أنت تؤول الحديث، والتأويل حرام.. وذهب..

فاحتسبتُ أمرِي لله من هذا الأحمق الذي لا يفهم شيئاً.

هذه العقلية المتحجرة، كانت هي السبب الثاني الذي حال بيني وبين أن أكون وهابياً، رغم أنني تأثرت بكثير من أفكارهم، فكنت أتبنها وأدافع عنها .

وبقيت على هذه الحال مدة من الزمن تائهاً لا قرار لي ولا اتجاه، أقترب من الوهابية حيناً وابتعد عنها حيناً آخر، ورأيت أن الحل الوحيد أمامي - بدلاً من الكلية العسكرية - أن أدرس في كلية أو جامعة إسلامية حتى أوصل بحثي بطريقة أكثر دقة وإمعاناً. وبعد امتحاني للجامعة، كانت هناك ستة رغبات من الجامعات والمعاهد التي يرغب الطالب في دراستها، فلم اختر غير الجامعات والكليات الإسلامية، وبالفعل تمّ قبولي في أحد الكليات الإسلامية (وهي كلية الدراسات الإسلامية والعربية في جامعة وادي النيل في السودان) . فطرت بها فرحاً، وأعددتُ العدة لهذه المرحلة الجديدة في حياتي، وبعد أداء التدريب العسكري (الدفاع الشعبي) الذي لا يمكن دخول الجامعة إلا بعد الفراغ منه، بدأت الوفود من مختلف أنحاء السودان بالجيء إلى الجامعة وكنتُ أنا من أولهم، وأثناء المقابلة سألني مدير الكلية عن شخصية أعجبت بها في حياتي؟ قلت له: جمال الدين الأفغاني، وأوضحْتُ له سر إعجابي به.. فأبدى ارتياحه من كلامي، وبعد كثير من الأسئلة تمّ قبولي رسمياً في الكلية. وبعدها انطلقت إلى المكتبة التي حوت كثيراً من الكتب والموسوعات الضخمة فأصبحت ملازماً لها، ولكن المشكلة التي واجهتني هي من أين أبدأ؟ وأي شيء أقرأ؟

وبقيت على هذه الحال، أنتقل من كتاب إلى آخر.. وقبل أن أضع لنفسي برنامجاً، فتح لي أحد أقاربنا باباً واسعاً ومهماً في البحث والتنقيب، وهو دراسة التاريخ وتتبع المذاهب الإسلامية لمعرفة الحق من بينها، وكان هذا الفتح توفيقاً إلهياً لم يكن في حساباتي، عندما التقيت بقريبي عبد المنعم - وهو

خرّيج كلية القانون - في منزل ابن عمي في مدينة عطبرة ، وقبل غروب الشمس رأيته في ساحة المنزل يتحاور مع أحد (من الأخوان المسلمين) الذي كان ضيفاً في البيت، فأرهفت السمع لأرى فيم يتحادثان.. وأسرعت إليهم عندما علمت بطبيعة النقاش وهو في الأمور الدينية، فجلست بالقرب منهم أراقب تطورات المحاورة التي امتاز فيها عبد المنعم بالهدوء التام رغم استفزازات الطرف الآخر وتهجمه، ولم أعرف طبيعة النقاش بتمامه إلى أن قال الأخ المسلم: الشيعة كفّار زنادقة...!!

هنا انتهتُ، وأمعتُ النظر، ودار في ذهني استفهام حائر ...

من هم الشيعة ؟ ولماذا هم كفّار ؟

وهل عبد المنعم شيعي ؟

وما يقوله من غريب الحديث، هل هو كلام الشيعة ؟!

وللإنصاف إن عبد المنعم أفحم خصمه في كل مسألة طُرحت في

النقاش، بالإضافة إلى لباقة منطقته وقوة حجته .

وبعد الانتهاء من الحوار، وأداء صلاة المغرب انفردت بقريبي عبد

المنعم ، وسألته بكل احترام : هل أنت شيعي؟.. ومن هم الشيعة؟ ومن أين

تعرفت عليهم ؟.

قال: مهلاً.. مهلاً .. سؤال بعد سؤال.

قلت له: عفواً، أنا ما زلت مذهولاً مما سمعته منك.

قال: هذا بحث طويل، ومجهود أربع سنوات من العناء والتعب مع

الأسف لم تكن النتيجة متوقعة .

فقاطعته: أي نتيجة هذه ؟.

قال: ركامٌ من الجهل والتجهيل عشناه طوال حياتنا، نركض خلف

مجتمعاتنا من غير أن نسأل، هل ما عندنا من دين هو مراد الله تعالى، وهو

الإسلام؟ وبعد البحث اتضح أن الحق كان مع أبعاد الطرق تصوراً في نظري، وهم الشيعة .

قلت له: لعلك تعجلت.. أو اشتبهت ..!.

فابتسم في وجهي قائلاً: لماذا لا تبحث أنت بتأمل وصبر؟ وخاصة أن لكم مكتبة في الجامعة تفيدك في هذا الأمر كثيراً.

قلتُ (متعجباً) : مكتبتنا سنية، فكيف أبحث فيها عن الشيعة؟!.

قال: من دلائل صدق التشيع أنه يستدل على صحته من كتب وروايات علماء السنة فإن فيها ما يظهر حقهم بأجلى الصور.

قلتُ: إذن مصادر الشيعة هي نفس مصادر أهل السنة؟!.

قال: لا، فإن للشيعة مصادر خاصة تفوق أضعافاً مضاعفة مصادر السنة كلها مروية عن أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكنهم لا يحتجون على أهل السنة بروايات مصادرهم، لأنها غير ملزمة لهم فلا بد أن يحتجوا عليهم بما يثقون به، أي الزمومهم بما ألزموا به أنفسهم.

سرّني كلامه وزاد تفاعلي للبحث، قلتُ له: إذن كيف أبدأ؟

قال: هل يوجد في مكتبتك - صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند أحمد والترمذي والنسائي - ؟

قلتُ : نعم، عندنا قسمٌ ضخمٌ لمصادر الحديث.

قال: من هذه أبدأ، ثم تأتي بعد ذلك التفاسير وكتب التاريخ فإن في هذه الكتب أحاديث دالة على وجوب اتباع مدرسة أهل البيت.

وبدأ يسرد لي أمثلة منها، مع ذكر المصدر ورقم المجلد والصفحة..

توقفت حائراً، أستمع إلى هذه الأحاديث التي لم أسمع بها من قبل مما جعلني أشك في أنها موجودة في كتب السنة .. ولكن سرعان ما قطع عني

هذا الشك، بقوله: سجّل هذه الأحاديث عندك، ثم ابحثها في المكتبة وولتقي يوم الخميس القادم بإذن الله.

□ في الجامعة :

بعد مراجعة تلك الأحاديث في البخاري ومسلم والترمذي.. في مكتبة جامعتنا، تأكد لي صدق مقالته، وفوجئت بأحاديث أخرى، أكثر منها دلالة على وجوب اتباع أهل البيت، مما جعلني أعيش في حالة من الصدمة.. لِمَ لَمْ نسمع بهذه الأحاديث من قبل؟!.

فعرضتها على بعض زملائي في الكلية حتى يشاركونني في هذه الأزمة، فتفاعل البعض ولم يكثر لها البعض الآخر، ولكنني صممتُ على مواصلة البحث ولو كلفني ذلك كل عمري.. وعندما جاء يوم الخميس، انطلقت لعبد المنعم... فاستقبلني بكل ترحاب وهدوء وقال: يجب عليك ألا تتعجل، وأن تواصل البحث بكل وعي.

ثم بدأنا في بحوث أخرى متفرقة استمرت إلى مساء الجمعة، استفدت منها الكثير وتعرّقت على أشياء لم أكن أعرفها، وقبل رجوعي إلى الجامعة.. طلب مني عدة أمور أبحثها.. وهكذا دواليك إلى مدة من الزمن. وكانت طبيعة النقاش بيني وبينه تتغير من فترة إلى أخرى، فأحياناً أحتدُّ معه في الكلام، وأحياناً أكابر في الحقائق الواضحة، فكنت مثلاً عندما أراجع بعض الأحاديث في المصادر وأتأكد من وجودها، أقول له: إن هذه الأحاديث غير موجودة.. ولست أعلم إلى الآن ما الذي كان يدفعني إلى ذلك، سوى الشعور بالانتهزام وحب الانتصار.

وبهذه الصورة وبمزيد من البحث انكشفت أمامي كثير من الحقائق لم أكن أتوقعها، وكنتُ في طوال هذه الفترة كثير النقاش مع زملائي، وبعدها

ضاق زملائي بي ذرعاً، طلبوا مني أن أناقش دكتوراً كان يدرّسنا الفقه، قلت: لا مانع لدي، ولكن هناك حواجز بيني وبينه تمنعني من الحرية في الكلام، فلم يقتنعوا بهذا، وقالوا: بيننا وبينك الأستاذ، فإذا أقنعته فنحن معك!!

قلت: ليست المسألة هي الاقناع، وإنما هي الدليل والبرهان، والبحث عن الحق..

وفي أول درس للفقه بدأت النقاش معه بصورة أسئلة متعددة.. فوجدته لا يخالفني كثيراً بل العكس كان يؤكد على حب أهل البيت (ع) ولزوم اتباعهم وذكر فضائلهم... وبعد أيام متعددة طلب مني أن آتية في مكتبته في مقر الجامعة، وبعد الذهاب إليه قدّم لي كتاباً من عدة أجزاء وهو (صحيح الكافي) من أوثق مصادر الحديث عند الشيعة. وطلب مني عدم التفريط في هذا الكتاب لأنه تراث أهل البيت.. لم أتكلّم من شدة المفاجأة.. أخذت الكتاب وشكرته على ذلك، وكنت أسمع بهذا الكتاب ولم أره، مما جعلني أشك في تشييع هذا الدكتور، مع معرفتي أنه مالكي، وبعد السؤال والاستفسار اتضح لي أنه صوفي متعلق بحب أهل البيت (ع).

وعندما شعر زملائي بهذا التوافق بيني وبين الأستاذ، طلبوا مني مناقشة أستاذ آخر كان يدرّسنا مادة الحديث، وكان رجلاً متديناً كثير التواضع طيب الأخلاق، وكنتُ أحبه كثيراً، فاستجبت لطلبهم، وبدأت بيننا نقاشات متعددة، وكنتُ أسأله عن صحة بعض الأحاديث فكان يؤكد صحتها، وبعد مدة من الزمن شعرتُ منه النفور وعدم الارتياح من نقاشي وقد أحس بذلك زملائي، ففكرتُ أن أفضل وسيلة لمواصلة النقاش، هي الكتابة، فكتبتُ له مجموعة من الأحاديث والروايات التي تدل بصراحة على وجوب اتباع مذهب أهل البيت (ع)، وطلبتُ منه البحث في صحتها، وكنتُ أسأله كل

يوم عن الإجابة فيعتذر بعدم البحث.. وتابعت معه بهذه الطريقة حتى أحس مني المضايقة.

قال لي: كلها صحيحة .

قلت: إنها واضحة في اتباع أهل البيت ..

لم يجب وذهب مسرعاً إلى المكتب.

كان هذا التصرف صدمة بالنسبة لي، مما جعلني أشعر بصدق مقالة الشيعة. ولكنني أحببت التريث وعدم العجلة في الحكم .

ومن غريب الصدفة، أن عميد الكلية وهو الأستاذ علوان، كان يدرسنا التفسير فقال يوماً في تفسير قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما كان في غدِيرِ خَم، نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد علي عليه السلام فقال: «من كنتُ مولاه فعلي مولاه»، فشاع ذلك في أقطار البلاد وبلغ ذلك الحارث بن نعمان الفهري فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ناقته فأناخ راحلته ونزل عنها، وقال: يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلي خمساً فقبلناه، وأمرتنا بالزكوات فقبلناه وأمرتنا أن نصوم رمضان فقبلناه وأمرتنا بالحج فقبلناه، ثم لم ترضَ بهذا حتى رفعت بضيعي ابن عمك تفضله علينا فقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أم من الله؟

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: والله الذي لا إله إلا هو، إن هذا من الله عز وجل، فولى الحارث يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقوله محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله بحجر سقط على هامته وخرج من دبره،

فأنزل الله عز وجل: ﴿سَأَلْنَا سَائِلًا بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾^(١) ..

وبعد الفراغ من الدرس لحق به أحد أصدقائي، وقال له: إن ما قلته هو كلام الشيعة، توقف الأستاذ العميد هنيهة ثم نظر إلى هذا المعترض وقال له: ادع لي «معتصماً» إلى مكتب الإدارة..! استغربت هذا الطلب، وتهييت لقاء الأستاذ العميد، ولكنني حزمت أمري وذهبت إليه، وقبل أن أجلس، قال: يقولون أنك شيعي!. قلت: أنا مجرد باحث.

قال: إن البحث جميل ولا بد منه .

أخذ العميد يذكر لي بعض الشبهات عن الشيعة التي كثيراً ما كانت تُردَّدُ، وقد أعانني الله على الرد عليها بأقوى الأدلة والبراهين، حيث انطلقت في الحديث بأكثر مما كنت أتوقع، وقبل ختام حديثنا أوصاني بكتاب المراجعات، وقال: إنه من الكتب الجيدة في هذا المجال.

وبعد قراءتي لكتاب المراجعات ومعالم المدرستين وبعض الكتب الأخرى، اتضح لي الحق وانكشف الباطل، لما في هذين السفرين من أدلة واضحة وبراهين ساطعة بأحقية مذهب أهل البيت. وازدادت قوتي في النقاش والبحث، حتى كشف الله نور الحق في قلبي، وأعلنت تشييعي...

ومن ثم بدأت مرحلة جديدة من الصراع، فلم يجد الذين عجزوا عن النقاش طريقاً، غير السخرية والسب والشتم والتهديد والافتراء.. وغير ذلك من أساليب الجهل فاحتسبت أمري عند الله، وصبرت على ما جرى، رغم أن الضربات قد وجّهت لي من أعز أصدقائي الذين حرّموا الأكل والنوم معي تحت سقف واحد.

(١) راجع نور الأبصار للشبلنجي ص ٧٥.

وضُربت عليَّ عزلة كاملة، إلا من بعض الأخوة الذين هم أكثر فهماً
وتحرراً. وبعد مدة من الزمن استطعت أن أعيد علاقتي بالجميع وبصورة
أفضل من الأول بل ولقد أصبحت بينهم محترماً ومقدّراً، وكان بعضهم
يستشيرني في كل صغيرة وكبيرة من أمور حياته، ولكن هذا الحال لم يستمر
طويلاً، فقد شبت نار الفتنة من جديد، بعدما أعلن ثلاثة من الطلبة تشييعهم،
بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الطلبة أظهروا تعاطفهم وتأييدهم للشيعة،
فدارت سلسلة أخرى من الصدمات والصراعات التزمنا فيها جميعاً الأخلاق
الرسالية والحكمة، فتمكنا من امتصاص الغضب بأسرع ما يكون.



□ في قريتنا

قريتنا (ندي) من القرى الصغيرة في شمال السودان على ضفاف النيل، ومعظم سكانها من قبيلة (الرباطاب)، وقد اشتهرت هذه القبيلة بالذكاء وسرعة البديهة، ويعتمد سكانها على النخيل وزراعة المحاصيل الموسمية.

وقد استغل الوهايون أهلها الطيبين في نشر الفكر الوهابي، فأثروا بطريقة غير مباشرة على مفاهيمهم وعقولهم، لكثرة المحاضرات والندوات التي يقيمونها، فأبدت تحفظي في البداية، وملأت أوقاتي بالقراءة والاطلاع والدعوة إلى مذهب أهل البيت (ع) بين الأهل والأقارب. وقد جرى بيني وبين أخي الأكبر كثير من المناقشات والمشادات إلى درجة أنه رفض أن يقرأ كتب الشيعة وهددني بحرقها، وبعد النقاش تمكنت من التأثير عليه، فقرأ بعض الكتب أمثال: (أهل البيت قيادة ربانية، المراجعات، معالم المدرستين..) إلى أن هداه الله إلى نور أهل البيت (ع) وأعلن تشيعه، أما بقية الأهل فقد أبدى الغالبية تعاطفهم وتأييدهم..

وبهذا انتشر أمري في القرية، وبدأت أ طرح مذهب أهل البيت على كثير من أهلها، فشبث نار الوهابية وتأجج غضب مروجيها، فأصبحت كل محاضراتهم في أية مناسبة كانت هي عبارة عن سب وشتم الشيعة والافتراء عليهم وأحياناً يتعرضون لشخصيتي، وواجهت كل ذلك بالصبر والصفح الجميل.

□ مناظرة مع شيخ الوهابية:

وجرى حوار بيني وبين شيخهم - أحمد الأمين - وطلبت منه العقلانية وترك الاستهتار والتهجم دون جدوى، وبعدهما طفح الكيل وازداد تعنتهم وتعصبهم ذهبتُ إلى مسجدهم وصليتُ خلفه صلاة الظهر، وبعد الانتهاء من الصلاة سألته: هل تعرضتُ لك يوماً طوال هذه المدة، التي تسب فيها الشيعة وتكفروهم بمكبرات الصوت؟!!

قال : لا .

قلت : أوتدري ما السبب؟!!

قال : لا أدري .

قلت : إن كلامك تهجم وجهل، وتعرض لشخصيتي، فخفتُ أن أعترض عليك فيكون ذلك دفاعاً عن نفسي، وليس دفاعاً عن الحق، والآن أطلب منك مناظرة علمية ومنهجية أمام الجميع حتى ينكشف الحق.

قال: لا مانع عندي .

قلت : إذا حدد محاور المناظرة .

قال : تحريف القرآن، وعدالة الصحابة .

قلت : حسناً، ولكن هناك أمران ضروريان لا بد من مناقشتهما، وهما صفات الله، والنبوة في اعتقادكم ورواياتكم.

قال : لا .

قلت : ولِمَ؟

قال : أنا أحدد المحاور، فإذا طلبتُ منك - أنا - المناظرة ، يكون الحق لك في تحديد المحاور.

قلت : لا خلاف .. متى موعدنا؟

قال : اليوم، بعد صلاة المغرب.. - ظناً منه أنه سيرهني بهذا الموعد القريب - فأظهرت موافقتي بكل سرور، وخرجت من المسجد.

وبعد أداء صلاة المغرب، بدأت المناظرة . فبدأ شيخهم - أحمد الأمين - الحديث كعادته يتهجم ويتهم الشيعة بالقول بتحريف القرآن وكان يمسك في يده كتاب (الخطوط العريضة لمحَب الدين)، وبعد الفراغ من حديثه، ابتدأت حديثي، وقمت بالرد على كل ما افتراه من اتهامات بالتفصيل، وبرأت الشيعة تماماً من القول بتحريف القرآن، وبعد ذلك، قلت له كما قال عيسى عليه السلام : (ترون التبنه في أعين غيركم ولا ترون الخشبة في أعينكم) ، فإن الروايات التي احتوتها كتب الحديث عند السنة ظاهرة في اتهام القرآن الكريم بالتحريف، فنسبة القول بالتحريف إلى السنة أقرب منها إلى الشيعة، وذكرت ما يقارب عشرين رواية مع ذكر المصدر ورقم الصفحة من صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، مثال:

أخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن أبي بن كعب قال: كم تقرأون سورة الأحزاب؟ قال: بضعا وسبعين آية، قال: لقد قرأتهامع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البقرة أو أكثر منها وإن فيها آية الرجم^(١).

وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب، قال: إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها فلذا رجم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله .. إلى أن يقول: ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله :

(١) مسند أحمد ج ٥ ص ١٣١.

﴿أَنْ لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَاتِكُمْ فَإِنَّ كُفْرَ بَكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَاتِكُمْ﴾، وَإِنْ كُفِرَ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَاتِكُمْ﴿^(١).

وروى مسلم في صحيحه، قال: بُعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة، وقراءؤهم، فأتلوه ولا يطولن عليكم الأمر، فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيئها غير أنني قد حفظت منها >لو كان لابن آدم واديان من مال لا يبغي وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب>، وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيئها غير أنني حفظت منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ فَكُتِبَ شَهَادَةٌ فِي أَعْنَاقِكُمْ فَتَسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٢).

وفي أثناء ذكري لهذه الروايات، لاحظت أن الشيخ حملق عينيه وفتح فاه وظهرت الحيرة والدهشة على وجهه، فما أن توقفت عن الكلام حتى أخذ يقول: أنا لم أسمع بذلك وأنا لم أرَ ذلك، وأطالبك أن تحضر هذه المصادر أمامي.

قلت: قبل قليل كنت تتهجم على الشيعة وتتهمهم بالتحريف، فلماذا لم تحضر كتبهم التي لم ترها في حياتك كلها، فأنت ملزم بإحضار مصادرك وهذه مكتبتي، فيها البخاري ومسلم وكتب الحديث، أحضرها حتى أخرج لك هذه الروايات منها.. وعندما لم يجد مخرجاً قفز إلى موضوع آخر، وهو أن الشيعة تقول بالتقية فكيف نصدق كلامهم!؟.

وهرج ومرج، حتى قام أحدهم وأذن لصلاة العشاء، وبعد الصلاة تواعدنا أن نكمل المناظرة في الأيام القادمة، على أن نختار في كل يوم

(١) صحيح البخاري ج ٨ ص ٢٦، رحم الحبلي من الزنا إذا أحصنت .

(٢) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٥، باب لو أن لابن آدم ...

موضوعاً نتناظر حوله.. ولما جاء الغد كنتُ جالساً أمام منزلنا في الصباح
فمر الشيخ وسلّم عليّ بكل احترام وقال: إن هذه المباحث لا يفهمها العامة،
فمن الأفضل أن نتحاور ونتناظر أنا وأنت على إنفراد.

قلت: أوافق، لكن بشرط أن تترك التهجم على الشيعة، وفيما بعد لم
نسمع له تهجماً على الشيعة..



□ ملاحظات للباحث لا بد منها

قبل البدء في تسجيل بعض بحوثي في هذا الكتاب، أحببتُ أن أشير إلى بعض الملاحظات، التي استفدتها من تجاربي السابقة في منهج البحث.

(١) الثقة والتوكل على الله تعالى، وهي نقطة الانطلاق في البحث، فقد أعطى الله سبحانه الإنسان نور العقل والعلم، وجعل أمر الاستفادة منه بيد الإنسان، فمن أهمل ذلك النور ولم يشعله لكشف الواقع، سيظل يعيش في ركام من الجهل والخرافات والضلال، بخلاف الذي يستثمر عقله وينميّه، والفرق بين الإثنين يرجع إلى سبب واحد، وهو الثقة وعدمها، فالذي يشعر بالضعف والانزهاج لا يستفيد من عقله، أما الذي يثق بالله تعالى وبما أعطاه من نور العقل يصل إلى قمة المعرفة والتحضر، فلذلك إن كثيراً ممن اعترض طريقي في البحث كان يستخدم هذا الأسلوب لضعضعة ثقتي، فيقول: من أين لك القدرة في بحث هذه الأمور؟!، وإن كبار علمائنا لم يتوصلوا إلى ما توصلت إليه فما هي قيمتك أمام جهابذة العلماء؟!.. وغير ذلك من أساليب تحطيم القدرات.

ولم يكونوا يريدون مني أكثر من أن أخوض فيما يخوضون، وأنعق كما يعقون قال تعالى: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾

١٠٤ - المائدة.

(٢) التجنب من خداع الذات، بمعنى منع تسرب الحقيقة إلى العقل، قد يكون ذلك بإغلاق منافذ النفس المطلّة على الواقع الخارجي، فيتعصب

ويمتنع عن سماع أحاديث المعرفة والأفكار الأخرى وقراءة الكتب وغير ذلك، وأي نوع من أنواع الانفتاح على الثقافات الأخرى، فكل دعوى تأمر بالانغلاق وعدم البحث وتحصيل المعرفة، فإنها دعوى تقصد تكريس الجهل وإبعاد الناس عن الحق، إن ما يقوم به الوهابية من تحصن بعدم الإطلاع على الكتب الشيعية وعدم مجالسة أفراد الشيعة والنقاش معهم، هو أسلوب العاجز وهو منطوق غير سليم، وقد عارض القرآن الكريم هذه الفكرة بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١١١ - البقرة.

(٣) تقوية الإرادة، أمام تيارات الشهوة وخطوط ضغط المجتمع، الذي ينفر من كل من يخالفه أو يتمرد عليه، فلا بد من مواجهة هذه الضغوط بالصبر والعزيمة لأن الحق لم يكن امتداداً للمجتمعات وإفرازات طبيعة الإنسان، وهذا تاريخ أنبياء الله تعالى فقد لاقوا أشد أنواع العذاب من مجتمعاتهم، فكان بنوا إسرائيل يقتلون في اليوم سبعين نبياً، قال تعالى ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ٧ - الزخرف.

(٤) هناك حجبٌ كثيرة قد تكون حاجزاً عن اكتشاف الحق، فلا بد من الإلتفات إليها ومراعاتها حتى تكون الحقيقة أكثر وضوحاً وضياءً، ومن بين هذه الحجب :

آ - حب الذات، وهو شر داء، يصيب كل إنسان، فمنه تنعكس كل صفة ذميمة مثل الحسد والحقد والعناد، فعندما يجعل الإنسان أفكاره ومعتقداته جزءاً من ذاته وكيانه حتى ولو كانت خرافية لا يمكن أن يتقبل أي نقد لها، لأنه يعتبر نقدها نقداً لذاته وكيانه، فبغريزة الدفاع عن النفس وحبها يستبسل في الدفاع عنها من غير وعي وفهم، وأحياناً يتعصب لفكرة لأنها تجلب له نفعاً أو تدفع عنه ضرراً يتلون معها ويحامي عنها، ويرفض بذلك كل الأفكار حتى ولو كانت

حقيقتها ظاهرة للعيان، وقد يجب الفكرة أيضاً لأنها تنسجم مع هواه
أو هوى مجتمعه فلا يتنازل عنها.

ب - حُب الآباء، وهو يبعث الإنسان على تقليدهم من غير تفكير وتدبر،
فتحت داعي الاحترام والخشية بالإضافة إلى الوراثة والتربية يسلم
تسليماً مطلقاً بأفكارهم وعقائدهم، وهذا من أعظم الحجب التي تمنع
الإنسان من اكتشاف الحقيقة.

ج - حب السلف، إن النظرة القدسية للعلماء السابقين والعظماء تدعو
الإنسان إلى تقليدهم مطلقاً والانتكال على أفكارهم، فالاستسلام لهذا
التقليد مدعاة للانحراف عن الحق، فلم يجعل الله تعالى عقولهم حجة
علينا، وإنما عقل كل إنسان حجة عليه، فلا يمنعنا احترامنا لهم من
مناقشة أفكارهم والتدقيق فيها حتى لا ندخل في قوله تعالى: ﴿وقالوا
ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلاً﴾ ٦٧ - الأحزاب.

د - ومن عوامل الخطأ أيضاً، التسرع، وهو نتاج حب الراحة، فمن غير أن
يتعب الإنسان نفسه في البحث والتنقيب يريد أن يصدر حكمه من أول
ملاحظة، ومن هنا قلّ المفكرون في العالم لصعوبة التفكير والبحث، فمن يريد
الحق فلا بد أن يجهد نفسه في البحث.

وغير ذلك من الملاحظات العلمية التي لا بد من أن يضعها الباحث
نصب عينيه قبل الشروع في البحث، وهذا مع التجرد التام والتسليم المطلق
إذا ظهر الحق، وبالإضافة إلى طلب العون والتضرع إلى الله تعالى لكي ينير
قلبك بنور الحق: (اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً
وارزقنا اجتنابه) حديث شريف.



وانكشf الزيف

- عليكم بسنتي .. الخدعة الزائفة
- مصادر الحديث
- رواية الترمذي
- سند الحديث عند أبي داوود
- سند الحديث عند ابن ماجة
- الواقع التاريخي وحديث (وسنتي)
- الحديث الآخر
- حوار مع المحدث الدمشقي الأرئوطني
- لا تحل مشكلة أهل السنة بالحديثين
- الخلفاء هم أئمة أهل البيت
- أهل البيت طريق التمسك بالكتاب والسنة

...وانكشف الزيف...

إن الحديثين: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ» و«إني تارك ما أن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي»؛ كانا بالنسبة لي من أقوى الأدلة التي كنتُ أحتجُ بها حينما كنتُ أميل إلى الفكر الوهابي، فبعد أن حفظتُ الحديثين اللذين يرددهما كثير من علمائهم في الكتب والمحاضرات، ولم أحدث نفسي يوماً بالرجوع إلى مصادرهما الأصلية من كتب الحديث، وكنتُ أتعامل معهما تعامل المسلّمات والبديهيات، وهذا ليس بالشيء الغريب فهما في الواقع الأساس الأول الذي يبنى عليه الفكر السني، وبالأخص الفكر الوهابي الذي تبنى الحديثين بصلافة.. فلم يطرأ ببالي مجرد الشك في صحتهما لأنهما القاعدة التي أنطلقُ منها في انتمائي إلى المذهب السني فالشك فيهما يعني الشك في انتمائي.

وهذه الفكرة التي انخدعتُ بها لم تكن - بعد التحقيق - وليدة العصر أو وليدة الفكر السني، وإنما هي وليدة خطةٍ مدروسة دُبرَ لها من قديم الزمان لتمويه الحقائق ولمواجهة خط أهل البيت، الذي يُمثل الإسلام بأروع صورته، وللأسف الشديد فإن كثيراً من المدارس الفكرية، قامت على أنقاض ذلك المخطط الخبيث، فتبنت أفكاره وكأنها نازلة من عند الله سبحانه وتعالى، وروجوا لها ودافعوا عنها بكل السبل والوسائل. وما الوهابية إلا مثال

واضح لضحايا ذلك المخطط الذي أودى بالأمة الإسلامية إلى وادٍ سحيق من الانقسام والفرقة والشتات.

وسنحاول كشف نزرٍ يسيرٍ من مكائده في كل فصل من فصول الكتاب.

وما يهمننا من ذلك المخطط في هذا المجال هما الحديثان اللذان كانا الخطة الأولى لتحريف الدين وتغيير مسار الرسالة ولإبعاد المسلمين عن حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي».. ذلك الحديث المتواتر الذي روته كتب الحديث وتعددت مصادره عند السنة والشيعه، ولكن يد الغدر والخيانة حاولت أن تحفيه عن الأنظار وروجت بدلاً عنه حديثي: «كتاب الله وسنتي» و «عليكم بسنتي».. اللذين سينكشف ما ينطويان عليه من ضعف.

فوجئت عندما سمعتُ أول مرة حديث: «.. كتاب الله وعترتي».. وأخذني الخوف.. وتمنيت ألا يكون صحيحاً، لأنه يهدم كل ما كنت بنيت من فكري الديني، بل ينسف مرتكز المذهب السني... ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن.. وحدث العكس تماماً عندما نظرت إلى الحديثين في مصادرهما الأصلية، فوجدتُ أن حديث: «كتاب الله وعترتي».. عليه من الصحة والوثاقه ما لا يستطيع أحد أن يشك فيه، بخلاف حديث: «كتاب الله وسنتي».. الذي لا يتجاوز أن يكون خبر آحاد مرفوعاً أو مرسلأ، وعليه من الهزلة والضعف ما انكسر له قلبي. ومن هنا كانت انطلاقتي في البحث عندما شعرتُ بمرارة الهزيمة، فبدأت بعد ذلك تجتمع عندي القرائن والإشارات واحده بعد أخرى، حتى انكشف لي الحق بأجلى صورته... وسوف تثبت هنا ضعف حديثي: «عليكم بسنتي».. و «. وكتاب الله

وسنتي..» وصحة حديث العترة الذي هو الرصاصة الأولى التي تصيب قلب الفكر السني..

○ حديث: «.. عليكم بسنتي..» الخدعة الزائفة :

«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ».

الناظر لأول وهلة لهذا الحديث يظن أنه الحجّة الدامغة والدلالة الواضحة على وجوب اتباع مدرسة الخلفاء الراشدين، وهم: «أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب»، ولا يمكن له أن يحمل على غير هذا المعنى، إلا أن يكون ضرباً من التأويل وروحاً من التعصب والجدال، ومن هنا كانت قوة الخدعة وذكاء المحرفين، فبه يثبت صحة مذهب أهل السنة والجماعة - مدرسة الخلفاء - في قبال مذهب التشيع - مدرسة أهل البيت -، وبذلك نستطيع أن نفسر حالة نشوء مدارس تسير في اتجاه مخالف لمذهب أهل البيت، لأنها قامت على هذا الحديث وأمثاله..

ولكن بالنظرة العلمية وبقليل من الجهد في تفحص الواقع التاريخي، وملايسات هذا الحديث وأمثاله، أو بالنظر في مجال علم الحديث وفنون الجرح والتعديل يظهر وينكشف زيف هذا الحديث وبطلانه..

.. ومن الجهل أن يحتجّ أي سني على أحد من الشيعة بهذا الحديث وذلك لانفراد أهل السنة به، ولا يمكن إلزام الشيعة بما لم يروونه في مصادرهم التي يثقون بها.

ولكن بما أنني، باحث سني لا بد أن تكون انطلاقتي من الكتب والمصادر السنية، حتى تكون ملزمة لي، وهذه نقطة منهجية ومحورية في البحث. لا بد أن نلتفت إليها في احتجاجاتنا وحواراتنا لأن الحجة لا تسمى حجة إلا إذا التزم بها الخصم حتى تكون حجة عليه وهذا ما لا ينتبه له كثير من علماء أهل السنة، عندما يحتجون على الشيعة، بهذا الحديث مثلاً.. مقابل ما يحتاج به الشيعة من حديث كتاب الله وعترتي، والفارق بين الحجتين واسع، إذ أن حديث سنتي من مختصات السنة، بخلاف حديث وعترتي الذي يُعتدُّ به عند الطرفين.



مصادر الحديث

إن أول إشكال يوجه للحديث (عليكم بسنتي..) أنه مما أعرض عنه الشيخان - البخاري ومسلم - ولم يخرجاه، وهذا يعني النقصان في درجة صحته، وذلك لأن أصح الأحاديث ما أخرجه الشيخان، ثم ما انفرد في إخراج البخاري، ثم ما انفرد في إخراج مسلم ثم ما كان على شرطيهما، ثم ما كان على شرط البخاري، ثم ما كان على شرط مسلم، وهذه المميزات لا توجد في هذا الحديث.

يوجد الحديث في (سنن أبي داود، سنن الترمذي، سنن ابن ماجه).
إن رواية هذا الحديث لا يخلو جميعهم من ضعف وطعن عند علماء الجرح والتعديل، والمتتبع لتراجهم يلاحظ ذلك جيداً، ولا يسعني في هذه العجالة أن أناقش رواية هذا الحديث واحداً واحداً، بشتى طرقه، ونقل آراء علماء الجرح والتعديل فيهم، وسأكتفي بتضعيف راوٍ واحدٍ أو اثنين من مسند كل رواية: وهو كافٍ لتضعيفها كما اتفق على ذلك علماء الجرح والتعديل، إذ ربما يكون هذا الراوي الضعيف قد اختلق هذه الرواية.

- رواية الترمذي -

روى الترمذي هذا الحديث عن بغية بن الوليد، وإليك آراء علماء الجرح والتعديل فيه: قال فيه ابن الجوزي في حديث: «وقد ذكرنا أن بغية

كان يروي عن الجهولين والضعفاء، ولربما أسقط ذكرهم وذكر من روى له عنهم^(١).

وقال ابن حبان: «لا يحتج ببغية»^(٢). وقال: «بغية مُدلس، يروي عن الضعفاء، وأصحابه لا يسوون حديثه ويحذفون الضعفاء منهم»^(٣).

وقال أبو اسحاق الجوزجاني: «رحم الله بغية ما كان يبالي إذا وجد خرافة عمن يأخذه»^(٤).

وغيرها من كلمات الحفاظ وعلماء الجرح والتعديل وما ذكرناه كاف للمقام.

- سند الحديث عند أبي داود -

■ الوليد بن مسلم: روى الخبر عن ثور الناصبي كما قال ابن حجر العسقلاني: «وكان جده قُتل يوم طُعنَ مع معاوية، فكان ثور إذا ذكر علياً قال: لا أحب رجلاً قتلَ جدي»^(٥).

أما الوليد فقد قال الذهبي: «وقال أبو مسهر الوليد مُدلس، وربما دلس عن كذابين»^(٦).

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «سئل عنه أبي فقال: كان رفّاعاً»^(٧) وغير ذلك وهو كاف لتضعيف روايته.

(١) الموضوعات لابن الجوزي ج ١ ص ١٠٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٥١.

(٣) المصدر السابق ص ٢١٨.

(٤) خلاصة عقبات الأنوار ج ٢ ص ٣٥٠.

(٥) المصدر السابق ص ٣٤٤.

(٦) ميزان الاعتدال ج ٤ ص ٣٤٧.

(٧) تهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٥٤.

روي بثلاث طرق:

* ففي طريق الحديث الأول، عبد الله بن علاء، وقد قال فيه الذهبي: «وقال ابن حزم ضعفه يحيى وغيره»^(١) وهو روى الخبر عن يحيى وهو مجهولٌ عند ابن قطان^(٢).

* أما في الطريق الثاني ففيه اسماعيل بن بشير بن منصور، فقد كان قدراً كما في تهذيب التهذيب^(٣).

* أما في الطريق الثالث عند ابن ماجه:

روى الخبر عن ثور - الناصبي - عبد الملك بن الصَّبَّاح، ففي ميزان الاعتدال: «مُتهم بسرقة الحديث»^(٤).

هذا بالاضافة إلى أن الحديث خبر أحاد، ترجع كل رواياته إلى صحابي واحد وهو العرياض بن سارية، وخبر الأحاد لا يثبت في مقام الاحتجاج، بالاضافة إلى أن العرياض كان من شيعة معاوية وجلالوته.

● الواقع التاريخي وحديث وسنتي :

أما الواقع التاريخي فإنه يكذب هذا الحديث أيضاً:

ذكر التاريخ أن السنة المطهرة لم تُكتب على عهد رسول الله (ص)، بل هناك أحاديث من طرق أهل السنة ينهى فيها رسول الله (ص) عن كتابة الأحاديث، مثل قوله (ص):

«لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه» كما في سنن الدارمي^(٥)، ومسند أحمد، وفي رواية «أنهم استأذنوا النبي صلى الله عليه

(١) ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٣٤٣.

(٢) تهذيب التهذيب ج ١١ ص ٢٨٠.

(٣) ج ١ ص ٢٨٤.

(٤) ج ٢ ص ٦٥٦.

(٥) رواه أحمد ومسلم والدارمي، والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري.

وسلم أن يكتبوا عنه فلم يأذنهم، وغيرها من الروايات الظاهرة بمنع الكتابة عن رسول الله (ص)، وكل هذا كان ضمن المخطط الذي نُفذ لمنع نشر الحديث وكتمانه حتى لا يظهر الحق، ولم يقفوا عند ذلك فقد اجتهد عمر اجتهاداً واضحاً لمحو السنة، روى عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن. فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله (ص) فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال:

إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرتُ قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوها عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً^(١).

وعن يحيى بن جعدة أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنة ثم بدا له أن لا يكتبها، ثم كتب في الأمصار من كان عنده شيء فليمحه^(٢).

وروى ابن جرير أن الخليفة عمر بن الخطاب كان كلما أرسل حاكماً أو والياً إلى قطر أو بلد، يوصيه في جملة ما يوصيه: «جرد القرآن وأقل الرواية عن محمد وأنا شريككم»^(٣).

وقد حفظ التاريخ أن الخليفة قال لأبي ذر وعبد الله بن مسعود، وأبي الدرداء: «ما هذا الحديث الذي تفسون عن محمد؟!»^(٤).

كما ذكر أن عمر جمع الحديث من الناس، فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار،

(١) رواه حافظ المغرب بن عبد البر والبيهقي في المدخل عن عروة.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٦٤-٦٥. طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣.

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٧٣.

(٤) كنز العمال ج ١٠ ص ٢٩٣.

ثم قال: أمنية كأمنية أهل الكتاب، كما روى الخطيب عن القاسم في تقييد العلم.

وما ذكره عمر من سبب لمصادرة السنة، فإنه سبب لا يقبله الجاهل فضلاً عن العالم، لأنه مخالفٌ للقرآن ولروح الدين والعقل، فكيف يقول: «جردوا القرآن وأقلوا الرواية» والقرآن نفسه يؤكد أن حجته تقوم بالسنة، لأنها موضحة وشارحة ومخصصة ومقيدة وغير ذلك وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فكيف يبين رسول الله (ص) القرآن! أوليس بالسنة؟! وقال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ وما ينطق عن الهوى ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ فما فائدة الوحي إذا أمرنا بكتمانه وحرقه وهذه السنة التي تحتجون بلزوم اتباعها قد مرت عليها سلسلة من المؤامرات فقد بدأت المسيرة من أبي بكر فقد أحرق في خلافته خمسمائة حديث كتبه عن رسول الله (ص) (١)، قالت عائشة: جمع أبي الحديث عن رسول الله فكانت خمسمائة حديث فبات يتقلب ولما أصبح قال: أي بُنيه هلمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها فأحرقها وقال: خشيت أن أموت وهي عندك فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدثني فأكون قد تقلدت ذلك» (٢).

وكتب عمر في خلافته إلى الآفاق أن من كتب حديثاً فليمححه (٣). وسار عثمان على نفس الخط؛ لأنه وقَّع على أن يواصل مسيرة الشيخين - أبي بكر وعمر - فقال على المنبر: «لا يحل لأحد يروي حديثاً لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر» (٤).

(١) كنز العمال ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٩.

(٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٥.

(٣) مسند أحمد ج ٣ ص ١٢ - ١٤.

(٤) كنز العمال ج ١٠ ص ٢٩٥ رقم الحديث ٢٩٤٩٠.

ثم واصل المسيرة من بعده معاوية بن أبي سفيان، قائلاً: «يا ناس أقلوا الرواية عن رسول الله وإن كنتم تتحدثون فتحدثوا بما كان يُتحدث به عهد عمر»^(١).

وبذلك أصبح ترك كتابة الأحاديث سنةً متبعةً، وعدت كتابتها شيئاً منكراً. ولم يكن هذا الكبت والتضليل الإعلامي الذي مارسه السلطات الحاكمة على كتابة الحديث إلا من أجل كتم فضائل أهل البيت والحيلولة دون انتشارها. هذا هو السبب الذي لا يرضاه الكثيرون، ولكن هو الواقع المرير الذي يصطدم به المتتبع في التاريخ والدارس لأحداثه. وبعد ذلك أيُّ سنةٍ أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإتباعها؟!.

هل هي ما محاه عمر أم ما أحرقه أبو بكر؟! .
ولو كان هناك أمرٌ بإتباع السنة. فلماذا لا ينصاع له الخلفاء الراشدون، فيكثروا من روايتها ويحرصوا على كتابتها؟! .
فماذا يصنع من يريد التمسك (بالسنة) من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! .

فلنفترض أنه عاشر الصحابة، أیظل يبحث عن جميع الصحابة ليأخذ منهم سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيهم الولاة والحكام، والقواد والجنود في الثغور؟! .

أيبحث عنهم جميعاً ليسألهم عن طبيعة ما يريد التعرف عليه من أحكام، أم يكتفي بالرجوع إلى الموجودين، وهو لا يجزئه لاحتمال صدور الناسخ أو المقيد أو المخصص بحضور واحدٍ أو اثنين ممن ليسوا بالمدينة؟ والحجية - كما يقول ابن حزم - : لا تقوم إلا بهم.

(١) كنز العمال ج ١٠ ص ٢٩١ رقم الحديث ٢٩٤١٣.

وإذا كانت هذه مشكلة من أدرك الصحابة، وهم قلة فما بالك من بعدما توسعت الدولة الإسلامية وكثرت الفتوحات، وكثرت الأسئلة عن الحوادث والمتغيرات.

فماذا يُجابون !!؟

وهكذا ضاع كثيرٌ من الأحاديث والأحكام، وإلى هذا كانت تهدف المؤامرة، فقد صرَّح عمرٌ بذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند وفاته :
> اتوني بكتف ودواة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً. فقال عمر إنه يهجر ، حسينا كتاب الله^(١) .

فالغاية التي منعت من إحضار الكتف والدواة لرسول الله ليكتب لهم كتاباً يمنعهم من الضلالة هي نفسها التي منعتهم عن جمع الأحاديث وكتابتها .

فكيف يروى بعد ذلك (تمسكوا بسنتي).

ولم يتمسك بها الصحابة ولا الخلفاء، بل صرحوا بغير ذلك، كما روى الذهبي في تذكرة الحفاظ قال: إن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله (ص) أحاديث، تختلفون فيها والناس بعدكم أشدُّ اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله، وحرّموا حرامه^(٢) .

> إن الشيء الطبيعي أن لا يفرض أي مصدر تشريعي على الأمة ما لم يكن مدوّناً ومحدّث المفاهيم، أو يكون هناك مسؤول عنه يكون هو المرجع

(١) البخاري ، كتاب العلم ، ج ١ ص ٣٠ .

(٢) أضواء على السنة المحمدية، محمد أبو رية ص ٥٣ .

فيه^(١) . وقد أجمعت الأمة على أن السنة لم تدوّن في عهد الرسول ولا عهد الخلفاء ولم تدوّن إلا بعد قرن ونصف من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فبأي وجه يقول قائلٌ : (عليكم بسنتي...) .

☆ الحديث الآخر :

نصه :

> تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة نبيه < .

هذا الحديث أسخف من أن يناقش وكل ما يمكن أن يقال فيه بالإضافة لما تقدم :

(١) إن هذا الحديث لم يروه أصحاب الصحاح الستة عند أهل السنة، وهذا كافٍ لتضعيفه فكيف يا ترى تمسكوا بحديث لم يكن له وجود في صحاحهم ومسانيدهم، والناظر لمكانة الحديث عند أهل السنة لا يحتلجه الشك في أن هذا الحديث قد روته الصحاح وعلى رأسها البخاري ومسلم، وفي الواقع لا وجود له بتاتاً.

(٢) إن أقدم المصادر التي ذكرت هذا الحديث، هي موطأ الإمام مالك، وسيرة ابن هشام، والصواعق لابن حجر.. ولم أجد كتاباً آخر روى هذا الحديث. وقد اشتركت هذه الكتب في نقل الحديثين ما عدا الموطأ.

(٣) رواية الحديث مرسلة في الصواعق، ومبتورة السند في سيرة ابن هشام^(٢) ، ويدعي ابن هشام أنه أخذ الحديث من سيرة ابن إسحاق، وبجثت

(١) أصول الفقه المقارن، محمد تقي الحكيم ص ٧٣.

(٢) سيرة ابن هشام، الطبعة القديمة ج ٢ ص ٦٠٣، الطبعة الثانية ج ٤ ص ١٨٥، والطبعة

الأخيرة ج ٢ ص ٢٢١.

سيرة ابن إسحاق فلم أجد الحديث في كل الطبقات، فيما ترى من أين أتى به ابن هشام؟!.

(٤) أما رواية مالك للحديث، فهو خير مرفوع لا سند له، قال راوي الموطأ: «حدثني عن مالك أنه بلغه أن رسول الله (ص) قال: ... الحديث»^(١).
... كما تلاحظ أن هذا الحديث من غير سند فلا يمكن الاعتماد عليه. ولماذا انفرد مالك بهذا الحديث ولم يرويه أستاذه أبو حنيفة أو تلميذه الشافعي وأحمد بن حنبل، فلو كان الحديث صحيح لماذا أعرضت عنه أئمة المذاهب، وأئمة الحديث؟!.

(٥) أخرج الحاكم في مستدركه^(٢) الحديث بطريقتين، الطريق الأول فيه زيد الديلسي عن عكرمة عن ابن عباس، ولا يمكن أن نقبل هذا الحديث لأن في سنده عكرمة الكذاب^(٣) وهو من أعداء أهل البيت (ع) ومن الذين خرجوا على علي (ع) وكفروه، وأما الطريق الآخر فيه صالح بن موسى الطلحي عن عبد العزيز بن ربيع عن ابن صالح عن أبي هريرة، وهذا الحديث أيضاً لا يمكن أن يقبل لأن الحديث على رواية أبي سعيد الخدري قاله رسول الله (ص) وهو على فراش الموت، وفي هذه الفترة كان أبو هريرة في البحرين أرسل مع العلاء الحضرمي قبل أن يتوفى رسول الله (ص) بسنة ونصف، إذن متى سمع النبي وهو على فراش الموت؟!.

(١) الموطأ، للإمام مالك توفي ١٧٩ هـ، ج ٢، ص ٤٦، صححه، ورقمه، وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد عبد الباقي..

(٢) المستدرک ج ١ ص ٩٣ اشرف د. يوسف عبد الرحمن المرعشي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

(٣) سوف يأتيك كلمات علماء الجدح والتعديل في عكرمة.

(٦) السنن الكبرى للبيهقي ينقل الحديث ج ١٠ ص ٤، دار المعرفة بيروت - لبنان، نقل حديث مسلم «تركت فيكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، ثم ينقل حديثي المستدرک بالنص.

(٧) كتاب الفقيه المتفقه - للخطيب البغدادي ج ١ ص ٩٤ قام بتصحيحه والتعليق عليه فضيلة الشيخ اسماعيل الأنصاري عضو دار الافتاء - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، نقل حديثين، الأول هو حديث المستدرک، (عن ابي صالح عن أبي هريرة). أما الحديث الجديد الذي نقله، قال حدثني سيف بن عمر، عن ابن اسحاق الأسدي عن الصباح بن محمد عن أبي حازم عن أبي سعيد الخدري ... الحديث، وهذا السند لا يمكن أن يقبل بشهادة علماء الجرح والتعديل في سيف بن عمر الذين أجمعوا على كذبه وافتراءه، وسوف يأتيك قول العلماء فيه.

(٨) كتاب : الامناع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض ٤٧٩ - ٥٤٤ هـ تحقيق السيد أحمد صقير الطبعة الأولى، الناشر دار الراس الناصرة - المكتبة العتيقة - تونس ص ٩، نقل نص الحديث من كتاب الفقيه المتفقه الذي في سنده سيف بن عمر.

وغير ما ذكرناه لا يوجد كتاب قط نقل حديث (كتاب الله وسنتي) فإذا لم يثبت للحديث إلا ثلاثة طرق عن ابن عباس وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة، وهذه الطرق مع ضعفها لم تظهر إلا في وسط القرن الخامس الهجري أي بعد الحاكم، ولم يأتي كتاب أقدم من ذلك يذكر هذه الطرق. هذا أولاً، وثانياً أن هؤلاء الصحابة الثلاثة أبو هريرة وابن عباس وأبو سعيد الخدري رروا حديث (كتاب الله وعترتي) في القرن الثاني الهجري كما روى مسلم، فأيهما نقبل^(١).

(١) وقد أفادني سماحة العلامة السيد علي البدري كثيراً في تحريجات حديث (كتاب الله وسنتي).

وبذلك لا تتجاوز هذه الرواية كونها خبر أحاد مرفوعة أو مرسلة..
ومما يدل على أنها موضوعة أن حديثاً مثل هذا الحديث في الأهمية بمكان
وهو الدستور الذي سوف تسلكه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم: «لن تضلوا ما إن تمسكنم بهما كتاب الله وسنة نبيه»..! فيفترض أن
يكرره رسول الله (ص) في مواضع كثيرة، وأن يتناوله الصحابة بالرواية والحفظ
كما في حديث (كتاب الله وعترتي).

فلا يمكن أن يكون رسول الله (ص) قد جعل لنا هذا الحديث مصدراً
تشريعياً من بعده لأنه حديث مبهم قاصر الدلالة، بالإضافة إلى ظنية
صدوره.

□ حوار مع المُحدِّث والحافظ الدمشقي

عبد القادر الأرنووطي :

حدث لي أثناء اقامتي في الشام لقاء مع الشيخ عبد القادر الأرنووطي،
وهو من علماء الشام وله إجازة في علم الحديث.

وقد تمَّ هذا اللقاء من غير اعداد مني، وإنما كان من طريق الصدفة..

كان لي أحد الأصدقاء السودانيين اسمه عادل، تعرفت عليه في منطقة
السيدة زينب (ع) وقد أنارَ الله قلبه بنور أهل البيت (ع) وتشيع لهم، وامتاز
هذا الأخ بصفات حميدة قل ما تجدها في غيره، فكان خلقاً متديناً ورعاً.
وقد أجبرته الظروف على العمل في إحدى المزارع في منطقة تُسمى
«العادية» - ٩ كم تقريباً جنوب السيدة زينب (ع) - وكان بجوار المزرعة
التي يعمل بها مزرعة أخرى لرجل كبير السن متدين يكنى بأبي سليمان.

ف عندما عرفَ هذا الجار أن السوداني الذي يعمل بجواره شيعي، جاء إليه وتحدّث معه، قال:

- يا أخي، السودانيون سنّة طيبون .. من أين لك بالتشيع؟! هل في أسرتك أحد شيعي؟

قال عادل: لا، ولكن الدين والقناعة لا تبتسني على تقليد المجتمع والأسرة.

قال: إن الشيعة يكذبونهم ويخدعون العامة .

قال عادل: أنا لم أرَ منهم ذلك.

قال: بلى نحن نعرفهم جيداً.

قال عادل: يا حاج، هل تؤمن بالبخاري ومسلم وصحاح السنة؟

قال: نعم.

قال عادل: إن الشيعة يستدلون على أي عقيدة يؤمنون بها من هذه المصادر، فضلاً عن مصادرهم.

قال: إنهم يكذبون ولهم بخاري ومسلم مُحَرَّف.

قال عادل: إنهم لم يلزموني بكتاب مخصص، بل طلبوا مني أن أبحث في أي مكتبة في العالم العربي.

قال: هذا كذبٌ، وأنا من واجبي أن أردك مرة أخرى إلى السنّة، (وإن يهدي بك الله رجل واحد خير لك مما طلعت عليه الشمس)...

قال عادل: نحن طالبي حق وهدى، نميل مع الدليل حيثما مال.

قال: إنني سأحضر لك أكبر عالم في دمشق، وهو العلامة عبد القادر الأرناؤوطي، عالمٌ جليل، ومحدّث حافظ، وقد حاول الشيعة اغراءه بالملايين حتى يصبح معهم، لكنه رفض...

وافق - الأخ - عادل على هذا الطرح، وقال له أبو سليمان :
موعدنا يوم الاثنين أنت وكل السودانيين الذين تأثروا بالفكر الشيوعي.
جاء إليّ عادل، وأخبرني بما حدث، وطلب مني أن أذهب معه..
وبفرحة شديدة قبلت هذا العرض، وتواعدتُ معه يوم الاثنين بتاريخ ٨ صفر
١٤١٧ من الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، في تمام الساعة
١٢ ظهراً.

وكان يوماً شديداً الحر، تقابلنا في الموعد، وانطلقنا إلى المزرعة مع ثلاثة
من السودانيين، وبعد وصولنا كان الأخ عادل في استقبالنا في مزرعة خضراء
تحفها الأشجار المثمرة من الخوخ والتفاح والتوت وغيرها من الفواكه التي لا
توجد عندنا في السودان .

وبعدها أخذنا نحث الخطى إلى مزرعة، جاره السني، فاستقبلنا بحفاوة
بالغة، وبعد قليل من الاستجمام في ذلك المكان الذي تحيط به الخضرة من
كل حدبٍ، قمتُ إلى صلاة الظهر، وفي أثناء الصلاة، جاءت قافلة في
مقدمتها سيارة تحمل الشيخ الأرنؤوطي، وقد امتلأ المكان بالناس وخارج
المبنى بالسيارات، وعلت الدهشة وجوه أصحابي السودانيين من هيبة هذا
المقام، لأنهم لم يتصوروا أن الأمر بهذا الحجم . وبعدما استقر كل واحد في
مكانه، اخترتُ مكاناً بجوار الشيخ.

وبعد اجراء التعريف بين الجميع، تحدّث صاحب المزرعة مع الشيخ
قائلاً: إن هؤلاء اخواننا من السودان وقد تأثروا بالتشيع في السيدة زينب،
وبينهم واحد شيعي يعمل في المزرعة التي بجوارنا.

قال الشيخ : أين هذا الشيعي ؟

قالوا له: ذهب إلى مزرعته وسيرجع بعد قليل.

قال: إذن نؤخر الحديث إلى رجوعه..

... ذهب إليه أحد السودانيين وأحضره إلى المجلس، وقد استغل الشيخ هذه الفرصة، بقراءة أحاديث كثيرة يحفظها عن ظهر قلب، وكان موضوعها أفضلية بعض البلدان على بعض وخاصة الشام ودمشق، وقد أخذ هذا الموضوع حوالي نصف ساعة - وهو موضوع لا جدوى فيه - ، وقد تعجبت منه كثيراً كيف لا يستغل هذا الظرف، وقد أعاره الجميع عقولهم بحديث يستفيدون منه في دينهم وديناهم، ثم قال: إن دين الله لا يؤخذ بالحسب والنسب، وقد جعل الله شرعه لكل الناس، فبأي حق نأخذ ديننا من أهل البيت؟! وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتمسك بكتاب الله وسنته وهو حديث صحيح لا يستطيع أحد تضعيفه، ولا يوجد عندنا طريق آخر غير هذا الطريق. وضرب بيده على ظهر عادل وقال له: يا ابني ، لا يُغرنك كلامُ الشيعة.

استوقفته قائلاً :

- سماحة الشيخ، نحن باحثون عن الحق، وقد اختلط علينا الأمر وجئنا كي نستفيد منك عندما عرفنا أنك عالم جليل ومحدّث وحافظ.
قال : نعم .

قلت : من البديهيات، التي لا يتغافل عنها إلا أعمى أن المسلمين قد تقسموا إلى طوائف ومذاهب متعددة وكل فرقة تدعي أنها الحق وغيرها باطل. فكيف يتسنى لي، وأنا مكلف بشرع الله أن أعرف الحق من بين هذه الخطوط المتناقضة؟! هل أراد الله لنا أن نكون متفرقين، أم أراد أن نكون على ملة واحدة، ندين الله بتشريع واحد؟! وإذا كان نعم، ما هي الضمانة التي تركها الله ورسوله لنا لكي تُحصن الأمة من الضلالة؟

مع العلم أن أول ما وقع الخلاف بين المسلمين كان بعد وفاة رسول الله (ص) مباشرة، فليس جائز في حق الرسول أن يترك أمته من غير هدى يسترشدون به.

قال الشيخ: إن الضمانة التي تركها رسول الله لثمنع الأمة من الاختلاف قوله (ص): «إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي».

قلت: لقد ذكرت قبل قليل، في معرض كلامك قد يكون هناك حديث لا أصل له أي غير مذكور في كتب الحديث.

قال : نعم .

قلتُ له: هذا الحديث لا أصل له في الصحاح الستة، فكيف تقول به، وأنت رجل محدث؟

.. هنا، شبت ناره، وأخذ يصرخ قائلاً: ماذا تقصد، هل تريد أن تضعف هذا الحديث.

تعجبتُ من هذه الطريقة ، وعن سبب هيجانه، مع أنني لم أقل شيئاً .
فقلت: مهلاً، إن سؤالي واحد ومحدد، هل يوجد هذا الحديث في الصحاح الستة؟

قال: الصحاح ليست ستة، وكتب الحديث كثيرة، وإن هذا الحديث يوجد في كتاب الموطأ للإمام مالك.

قلت (متوجهاً إلى الحضور): حسناً، قد اعترف الشيخ أن هذا الحديث، لا وجود له في الصحاح الستة، ويوجد في موطأ مالك..

فقاطعتني (بلهجة شديدة) قائلاً : شو، الموطأ مو كتاب حديث؟

قلتُ: الموطأ كتاب حديث ولكن حديث: «كتاب الله وسنتي» مرفوع في الموطأ من غير سند - مع العلم أن كل أحاديث الموطأ مسندة - .

هنا صرخ الشيخ بعدما سقطت حجته، وأخذ يضربني بيده ويهزني شمالاً ويميناً: أنت تريد أن تضعف الحديث، وأنت من حتى تضعفه .. حتى خرج عن حدود المعقول. وأخذ الجميع يندهش من حركاته وتصرفه هذا.

قلت: يا شيخ!، هنا مقام مناقشة ودليل وهذا الأسلوب الغريب الذي تتبعه لا يجدي، وقد جلست أنا مع الكثير من علماء الشيعة، ولم أر مثل هذا الأسلوب أبداً. قال تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لأنفضوا من حولك﴾ .. وبعد هذا، هداً قليلاً من ثورته.

قلت: أسألك يا شيخ: هل رواية مالك لحديث «كتاب الله وسنتي»، في الموطأ، ضعيفة أم صحيحة!؟

قال (بتحسر شديد): ضعيفة.

قلت: فلماذا إذن، قلت أن الحديث في الموطأ وأنت تعلم أنه ضعيف؟
قال (رافعاً صوته): إن للحديث طرق أخرى .

قلت للحضور: قد تنازل الشيخ عن رواية الموطأ، وقال: إن للحديث طرق أخرى، فلنسمع منه هذه الطرق.

.. هنا أحس الشيخ بالهزيمة والخجل، لأن ليس للحديث طرق صحيحة، وفي هذه الأثناء، تحدث أحد الجلوس، فوكزني الشيخ بيده، وقال لي وهو مشيراً إلى المتحدث: اسمع له، والتفت يريد بذلك الهروب من السؤال المحرج الذي وجهته له.

.. أحسستُ منه هذا، ولكنني أصررت وقلت: أسمعنا يا شيخ الطرق الأخرى للحديث؟؟

قال (بلهجة منكسرة): لا أحفظها، وسوف أكتبها لك.

قلت: سبحان الله!، أنت تحفظ كل هذه الأحاديث، في فضل البلدان والمناطق، ولا تحفظ طريق أهم الأحاديث وهو مرتكز أهل السنة والجماعة والذي يعصم الأمة عن الضلالة كما قلت .. فظل ساكناً .

وعندما أحس الحضور بنجمله، قال لي أحدهم :

– ماذا تريد من الشيخ وقد وعدك أن يكتبها لك.

قلت : أنا أقرب لك الطريق، إن هذا الحديث يوجد أيضاً في سيرة ابن

هشام من غير سند.

قال الشيخ الأرناؤوطي: إن سيرة ابن هشام، كتاب سيرة وليس

حديث.

قلت: إذن تضعف هذا الرواية.

قال : نعم .

قلت: كفتيني مؤونة النقاش فيها .

وواصلت كلامي قائلاً : ويوجد أيضاً في كتاب الاماع للقاضي

عياض، وفي كتاب الفقيه المتفقه للخطيب البغدادي .. هل تأخذ بهذه

الروايات ؟

قال : لا.

قلت : إذن، حديث <كتاب الله وسنتي>، ضعيف بشهادة الشيخ، ولم

يقي أماننا إلا ضمانة واحدة تمنع الأمة من الاختلاف، وهي حديث متواتر

عن رسول الله (ص) وقد روته كتب الحديث السننية، والصحاح الستة ما

عدا البخاري وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

<إني تاركٌ فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي كتاب

الله جبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، فإن العليم

الخبير، أنبئني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض>. كما في رواية أحمد

بن حنبل، ولا مناص لمؤمن يريد الإسلام الذي أمر الله به ورسوله غير هذا

الطريق، وهو طريق أهل البيت المطهرين في القرآن الكريم من الرجس والمعاصي، وذكرت مجموعة من فضائل أهل البيت (ع)، والشيخ ساكت لم يتفوه بكلمة طوال هذه المدة - على غير عادته - فقد كان يقاطع حديثي بين كلمة وأخرى.

وعندما رأى مريدوه الانكسار في شيخهم، أصبحوا يهرجون ويمرّجون.

قلت: كفى دجلاً ونفاقاً، ومراوغة عن الحق، إلى متى هذا التنكر !!؟ والحق واضحة آياته، ظاهرة بيناته، وقد أقمْتُ عليكم الحجة، بأن لا دين من غير الكتاب والعترة الطاهرة من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وظل الشيخ ساكتاً ولم يرد عليّ كلمة واحدة . فقام منتفضاً قائلاً: أنا أريد أن أذهب، وأنني مرتبطٌ بدرس. - مع العلم أنه كان مدعواً لطعام الغداء !! -.

أصر عليه صاحب المنزل بالبقاء، وبعد احضار طعام الغداء، هدأ المجلس، ولم يتفوه الشيخ بكلمة واحدة في أي موضوع كان، طيلة جلسة الغداء وقد كان فيما سبق هو صاحب المجلس والحديث أولاً! ... هكذا مصير كل من يراوغ ويخفي الحقائق، فلا بد أن ينكشف أمام الملأ..

❖ لا تحل مشكلة أهل السنة بالحديثين :

إذا تغاضينا عن كل ذلك وسَلّمنا جدلاً بصحة الحديثين، <عليكم بسنتي..> <كتاب الله وسنتي> فذلك لا ينقذ أهل السنة ولا يفك محتتهم، بل إنه بكل الطرق والاتجاهات يؤيد ويدعم مذهب أهل البيت (التشيع) وذلك للآتي: الحديث الأول: <عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي>.

✦ الخلفاء هم أئمة أهل البيت :

فإن كلمة الخلفاء هنا عامة غير مخصصة لفئة معينة، وتفسير أهل السنة لها بالخلفاء الأربعة تأويل من غير مصدر ولا دليل، لأن القضية أوسع من المدعى، بل إن الأدلة تنطق بعكس ذلك إذ أن الخلفاء الراشدين هم الأئمة الاثنا عشر من أهل البيت، لما ثبت من الأدلة والروايات القاطعة أن الخلفاء بعد الرسول (ص) اثنا عشر خليفة، وقد أورد القندوزي الحنفي في ينابيع المودة، قال: «ذكر يحيى بن الحسن في كتاب العمدة من عشرين طريقاً أن الخلفاء من بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم اثنا عشر خليفة، كلهم من قریش، في البخاري من ثلاثة طرق. وفي مسلم من تسعة طرق، وفي أبي داود من ثلاث طرق، وفي الترمذي من طريق واحد، وفي الحميدي من ثلاثة طرق. ففي البخاري عن جابر رفعه: يكون من بعدي اثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها فسألت أبي: ماذا قال: قال: كلهم من قریش، وفي مسلم عن عامر بن سعد، قال: كتبتُ إلى ابن سمرة أخبرني بشيء سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم فكتب إلي: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الجمعة عشية رجم الأسلمي، يقول: لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قریش»^(١).

وبعد هذا لا يمكن بأن يحتج بحديث «وسنة الخلفاء..» حاملاً ذلك على الخلفاء الأربعة، لهد الروايات المتواترة التي بلغت عشرين طريقاً وكلها تصرح أن الخلفاء اثنا عشر خليفة، ولا يمكن أن نجد تفسيراً لهذه الروايات في الواقع الخارجي إلا في أئمة مذهب أهل البيت الإثني عشر.

(١) ينابيع المودة، القندوزي الحنفي ص ١٠٤ - منشورات مؤسسة الأعلمي للطبوعات -

فيكون الشيعة بذلك هم الفرقة الوحيدة التي جسدت معاني هذه الأحاديث بولايتهم للإمام علي عليه السلام ثم من بعده الحسن والحسين ثم تسع أئمة من ذرية الحسين، فيكون العدد بعد ذلك اثنا عشر إماماً.

ورغم أن كلمة قريش في هذه الروايات مطلقة وغير محددة ولكن بضميمة روايات وقرائن أخرى يتبين أن المراد منه أهل البيت وذلك لوجود روايات متضافرة على إمامة أهل البيت. سنتطرق إلى بعضها في البحوث القادمة.

ويكفيكم في هذا المقام رواية إني تارك فيكم ما إن تمسكنم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي^(١) :

فما دام قيام الدين بولاية اثني عشر خليفة كما صرحت الروايات السابقة، وفي نفس الوقت هناك روايات تؤكد ملازمة أهل البيت للكتاب، فذلك خير دليل على أن المقصود من (اثني عشر خليفة) هم الأئمة من أهل البيت.

وأما عبارة (كلهم من قريش) فما هي إلا تبديل وتدليس في الحديث، فوضعت حتى تشوه الدلالة الواضحة في وجوب اتباع أهل البيت، لأن العبارة الصحيحة هي (كلهم من بني هاشم) ولكن يد الغدر والخيانة تتبع فضائل أهل البيت فأخفت منها ما استطاعت وبذلك وغيرت ما يمكن تحريفه^(٢).

وهذه الرواية إحدى ضحايا التغيير والتبديل، ولكن يأبى الله إلا أن يظهر نوره، فقد نقل القندوزي الحنفي نفسه في ينابيع المودة: (وفي المودة

(١) إن علياً عليه السلام هو أول الأئمة الإثني عشر إنما يناقش الكاتب هنا النظريتين هل هم أربعة

خلفاء أم اثنا عشر خليفة؟ من هؤلاء الإثنا عشر وإلى أين يتمون؟

(٢) راجع فصل تحريف المحدثين للأحاديث.

العاشرة من كتاب - مودة القربى - للسيد علي الهمداني - قدس الله سره - وأفاض علينا بركاته وفتوحه عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال: كنتُ مع أبي عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم - يقول بعدي إثنا عشر خليفة ثم أخفى صوته فقلت لأبي: ما الذي أخفى صوته قال: قال: كلهم من بني هاشم^(١). بل قد روى القندوزي أحاديث أكثر وضوحاً من ذلك فقد روى عن عبايه بن ربعي عن جابر قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنا سيد النبيين وعليّ سيّد الوصيين وإن أوصيائي بعدي إثنا عشر أولهم علي وآخراهم القائم المهدي»^(٢).

ولم يجد القندوزي الحنفي بعد ذكر هذه الأحاديث. إلا أن يعترف ويقول: (إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده صلى الله عليه وآله وسلم اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان علم أن مراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حديث هذا الأئمة الإثني عشر من أهل بيته وعترته إذ لا يمكن أن نحمله على الملوك الأموية لزيادتهم على إثني عشر ولظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز، ولكونهم غير بني هاشم لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: كلهم من بني هاشم في رواية عبد الملك عن جابر وإخفاء صوته (صلى الله عليه وسلم) في هذا القول يرجح هذه الرواية لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم، ولا يمكن أن نحمله على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور ولقلة رعايتهم الآية ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾، وحديث الكساء، فلا بد أن يُحمل هذا الحديث على الأئمة الإثني عشر من أهل بيته وعترته صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلهم وأورعهم

(١) المصدر السابق ص ١٠٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥.

وأنتقامهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله. وكان علمهم عن آبائهم متصلاً بجدهم صلى الله عليه وآله وسلم..^(١) فحمل الحديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» على الأئمة من أهل البيت أقرب من حملها على الخلفاء الأربعة لما تبين بأن الخلفاء من بعد الرسول (ص) إنا عشر خليفة من بني هاشم.

✧ أهل البيت طريق التمسك بالكتاب والسنة :

أما حديث «تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وسنتي» فإنه لا يعارض حديث «كتاب الله وعترتي» ولا يُلجأ إلى التعارض إلا إذا تحكمت المعارضة واستحال الجمع بينهما، ومع إمكانية الجمع بينهما لا معارضة أصلاً. وقد كفانا ابن حجر الجهد في إمكانية الجمع بينهما فقد ذكر في صواعقه: (إني تاركٌ فيكم أمرين لن تضلوا إن اتبعتموهما. وهما: كتاب الله وأهل بيتي عترتي، زاد الطبراني أني سألتُ الله ذلك لهما فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم، وفي رواية كتاب الله وسنتي وهي المراد من الأحاديث المقتصرة على الكتاب لأن السنة مبينة له فأغنى ذكره عن ذكرها والحاصل إن الحث وقع على التمسك بالكتاب وبالسنة وبالعلماء بهما من أهل البيت، ويستفاد من مجموع ذلك بقاء الأمور الثلاثة إلى قيام الساعة..)^(٢).

وبتعبير أدق مما قاله ابن حجر فإن الأمر بالتمسك بالسنة لا يكون إلا عن طريق حفظتها وهم أهل البيت وأهل البيت أعلم بما في داخله، كما أثبتت الروايات ذلك وشهد به التاريخ. فيكون الحث من رسول الله صلى

(١) المصدر السابق ص ١٠٦.

(٢) الصواعق المحرقة ص ١٥٠.

الله عليه وآله وسلم قد وقع بالتمسك بالكتاب وبأهل البيت فيكون التمسك
بالسنة أمرٌ طبيعي ملازم للتمسك بأهل البيت وليس كما قال ابن حجر
الحث وقع على التمسك بالسنة، لأن الروايات الواردة بلزوم التمسك بالعترة
من أهل البيت قد بلغت حد التواتر، وإضافة إلى ذلك قد علمت ما جرى
على السنة من حرق وكنم وتزوير، فأهل البيت هم الطريق الوحيد لمعرفة
القرآن والسنة، كما قال رسول الله (ص): «فلا تقدموهم فتهلكوا ولا
تقصروا عنهم فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم» كما ذكرها
الطبراني، فيكون لا مناص بعد ذلك عن وجوب التمسك بأهل البيت.



الفصل الثالث

حديث كتاب الله وعترتي في المصادر السننية

- عدد الرواة من الصحابة
- عدد الرواة من التابعين
- في صحيح مسلم
- عند الحاكم
- عند الترمذي
- بعض الكتب التي أوردت الحديث
- شبهات على حديث الثقلين
- دفع الشبهة
- دلالة الحديث على إمامة أهل البيت (ع)

إثبات حديث «كتاب الله وعترتي»

وضح لك في البحث السابق وهن حديث التمسك بالسنة، الذي يعتبر العمدة الأساسية في قيام كيان أهل السنة والجماعة، وباهتزاز هذا الأساس يهتز كل الكيان، وهذا ما يفسر حرص علمائهم على كتم رواية «كتاب الله وعترتي» وترويع حديث «كتاب الله وسنتي» حتى انطلى على أذهان العامة إلى درجة أنني حينما أذكر حديث العترة لأي جماعة كانت، ترسم الدهشة على وجوههم.

ولذلك أحببتُ - حتى تكتمل الحجة - أن أثبتَ حديثَ العترة في هذا الفصل من كتب أهل السنة بجميع طرقه وإليك التفصيل:

أولاً: سند الحديث :

* عدد الرواة من الصحابة:

لقد تواتر هذا الحديث عن مجموعة من الصحابة إليك بعض أسمائهم:

- | | |
|----------------------|---------------------|
| (١) زيد بن أرقم | (٢) أبو سعيد الخدري |
| (٣) جابر بن عبد الله | (٤) حذيفة بن أسيد |
| (٥) خزيمة بن ثابت | (٦) زيد بن ثابت |

- | | |
|--|-------------------------------------|
| (٧) سُهَيْلُ بْنُ سَعْدٍ | (٨) ضُمَيْرَةُ الْأَسَدِي |
| (٩) عَامِرُ بْنُ أَبِي لَيْلَى (الْغَفَارِي) | (١٠) عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ |
| (١١) عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ | (١٢) عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو |
| (١٣) عُدْيُ بْنُ حَاتِمٍ | (١٤) عَقِبَةُ بْنُ عَامِرٍ |
| (١٥) عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ | (١٦) أَبُو ذَرِّ الْغَفَارِي |
| (١٧) أَبُو رَافِعٍ | (١٨) أَبُو شَرِيحِ الْخَزَاعِمِي |
| (١٩) أَبُو قَدَامَةَ الْأَنْصَارِي | (٢٠) أَبُو هَرِيرَةَ |
| (٢١) أَبُو الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ | (٢٢) أُمُّ سَلْمَةَ |
| (٢٣) أُمُّ هَانِئِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ | (٢٤) وَرَجَالٌ مِنْ قَرِيْشٍ |

* عدد الرواة من التابعين :

وقد تواتر هذا النقل أيضاً في عهد التابعين، وإليك بعض من نقل منهم

حديث كتاب الله وعترتي:

- | | |
|--|---|
| (١) أَبُو الطَّفِيلِ عَامِرُ بْنُ وَائِلَةَ | (٢) عَطِيَّةُ بْنُ سَعِيدِ الْعَوْفِي |
| (٣) حُنْشُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ | (٤) الْحَارِثُ الْهَمْدَانِي |
| (٥) حُبَيْبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ | (٦) عَلِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ |
| (٧) الْقَاسِمُ بْنُ حَسَانَ | (٨) حُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ |
| (٩) عَمْرُو بْنُ مُسْلِمٍ | (١٠) أَبُو الضَّحَى مُسْلِمُ بْنُ صَبِيحٍ |
| (١١) يَحْيَى بْنُ جُعْدَةَ | (١٢) الْأَصْبَغُ بْنُ نَبَاتِهِ |
| (١٣) عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ | (١٤) الْمُطَلِّبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْطَبٍ |
| (١٥) عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ | (١٦) عَمْرُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ |
| (١٧) فَاطِمَةُ بِنْتُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ | (١٨) الْحَسَنُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ |
- (١٩) زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ.. وَغَيْرِهِمْ

* عدد الرواة خلال القرون :

أما من رواه من بعد الصحابة والتابعين من أعلام الأمة، وحفاظ الحديث ومشاهير الأئمة عبر القرون فجماعة لا يسمح لنا المقام ذكر أسمائهم ورواياتهم. وقد أحصاها عدد من البحاثة والعلماء، وللتفصيل ارجع إلى كتاب عبقات الأنوار الجزء الأول والثاني.

وأكتفي بذكر عددهم في كل طبقة زمنية من القرن الثاني إلى القرن

الرابع عشر:

٣٦	- القرن الثاني : عدد الرواة
٦٩	- القرن الثالث : عدد الرواة
٣٨	- القرن الرابع : عدد الرواة
٢١	- القرن الخامس : عدد الرواة
٢٧	- القرن السادس : عدد الرواة
٢١	- القرن السابع : عدد الرواة
٢٤	- القرن الثامن : عدد الرواة
١٣	- القرن التاسع : عدد الرواة
٢٠	- القرن العاشر : عدد الرواة
١١	- القرن الحادي عشر: عدد الرواة
١٨	- القرن الثاني عشر: عدد الرواة
١٢	- القرن الثالث عشر: عدد الرواة
١٣	- القرن الرابع عشر: عدد الرواة

فيكون مجموع رواة الحديث من القرن الثالث

إلى القرن الرابع عشر
٣٢٣ فتأمل.

* حديث الكتاب والعترة في كتب الحديث :

أما عن الكتب التي روت الحديث فهي كثيرة نذكر منها :

١ - صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٢٣ در المعارف بيروت لبنان.

روى مسلم في صحيحه >حدثنا محمد بن بكار بن التريان حدثنا حسان (يعني ابن ابراهيم) عن سعيد (وهو ابن مسروق) عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال: دخلنا عليه فقلنا له: لقد رأيت خيراً لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصليت خلفه، لقد لاقيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: يا ابن أخي والله لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم فما حدثتكم فاقبلوا وما فلا تكلفوني، ثم قال:

قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فينا خطيباً بماء يُدعى خمأ بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب. وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله عز وجل وهو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة. ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي (فقلنا من أهل بيته نساؤه. قال: وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حُرِّموا الصدقة بعده). وروى مسلم أيضاً :

(عن زهير بن حرب وشجاع بن مخلد جميعاً عن ابن عُلَيَّة قال زهير

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثني أبو حيان حدثني يزيد بن حيان قال انطلقت ... ثم ذكر الحديث).

ورواه مسلم عن (أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل وحدثنا اسحاق بن إبراهيم أخبرنا جرير كلاهما عن أبي حيان ... ثم ذكر الحديث).

وروايات مسلم كلها ترجع إلى أبي حيان بن سعيد التميمي، وقد قال فيه الذهبي:

(يحيى بن سعيد بن حيان أبو حيان التميمي . كان الثوري يعظمه ويوثقه، قال أحمد بن عبد الله العجلي: ثقة، صالح، مبرز صاحب سنة)^(١) .
وقال الذهبي أيضاً في العبر ج ١ ص ٢٠٥ (وفيها يحيى بن سعيد التميمي، مولى تيم الرباب الكوفي، وكان ثقة إماماً صاحب سنة روى عنه الشعبي ونحوه) .

وقال اليافعي : (وفيها يحيى بن سعيد التميمي الكوفي، وكان ثقة إماماً صاحب سنة)^(٢) .

وقال العسقلاني : (أبو حيان التميمي الكوفي ثقة عابد من السادسة مات سنة خمس وأربعين)^(٣) .

.. وغيرهم من علماء الجرح والتعديل.

كما لا يخفى أن كون الحديث مروياً في صحيح مسلم حاكم على صحته، لإجماع المسلمين على تصحيح كل روايته .

ولقد صرح مسلم نفسه بأن جميع ما في صحيحه مجمع على صحته فضلاً عن كونه صحيحاً عنده كما قال الحافظ السيوطي . (قال مسلم: ليس

(١) تهذيب التهذيب .

(٢) مرآة الجنان ج ١ ص ٣٠١ .

(٣) تقريب التهذيب ج ٢ ص ٣٤٨ .

كل شيء صحيح عندي وضعته هنا وإنما وضعت ما أجمع عليه (كما في تدريب الراوي :

وقال النووي في ترجمة مسلم: (وصنف مسلم في علم الحديث كُتُباً كثيرة منها هذا الكتاب الصحيح الذي منَّ الله الكريم - وله الحمد والنعمة والفضل والمنّ - به على المسلمين)^(١) ..

وغيره ... لا يسع المقام لإيرادهم ولبداهة المدعى.

٢ - رواية الحديث عند الإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري في مستدركه على البخاري ومسلم ج ٣ ص ٢٧ كتاب معرفة الصحابة - دار المعرفة - بيروت - لبنان .

- روى الحديث (أبو عوانة) عن الأعمش ثنا حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم قال لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حجة الوداع ونزل غدیر خم أمر بدوحاتٍ فقممن فقال > كأنني قد دُعيتُ فأجبتُ، إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي فانظروا كيف تحلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، ثم قال: إن الله عز وجل مولاي وأنا مولى كل مؤمن ثم أخذ بيد علي فقال من كنتُ مولاه فهذا وليه > فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم يؤكد إذاً أن أول أهل البيت ورأسهم الذي أوجب اتباعه هو علي عليه السلام .

كما رواه عن (حسان) بن ابراهيم الكرمانى ثنا محمد بن سلمى بن كهيل عن أبيه عن أبي الطفيل عن ابن وائلة أنه سمع زيد بن أرقم يقول.. وساق الحديث على نحو ما سبق إلا أنه زاد (ثم قال: تعلمون أنني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ثلاث مرات، قالوا: نعم، قال: من كنتُ مولاه فعلي مولاه).

(١) تهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ٩١.

- وأيضاً رواه الحاكم بطريقتين آخرين، ولمراعاة عدم التطويل اكتفينا بإثبات طريقتين.

ومما يدل على صحة الحديث وتواتره أن الحاكم أخرجه وحكم بصحته على شرط البخاري ومسلم.

٣ - رواية الحديث عند أحمد بن حنبل : ج ٣ من مسنده ص ١٧ - ٢٦-١٤-٥٩ - دار صادر بيروت ، لبنان.

> (حدثنا) عبد الله حدثني أبي ثنا أبو النظر ثنا محمد يعني ابن أبي طلحة عن الأعمش عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إني أوشك أن أدعى فأجيب وإني تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي. كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا بما تخلفوني فيهما > .

ورواه أيضاً (حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا بن نمير ثنا عبد الملك يعني ابن أبي سليمان عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إني قد تركتُ فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله عز وجل جبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ألا إنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض) ورواه بطرق متعددة غير التي سبقت.

٤ - رواية الحديث عن الترمذي ج ٥ ص ٦٦٣ - ٦٦٢ - دار إحياء التراث العربي.

- وحدثنا علي بن المنذر الكوفي . حدثنا محمد بن فضيل قال: حدثنا الأعمش عن عطية وعن أبي سعيد والأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن زيد بن أرقم قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إني تاركٌ فيكم

ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما).

- (حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي حدثنا زيد بن الحسن وهو الأنماطي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته يوم عرفة وهو على ناقته يخطب، فسمعته يقول: يا أيها الناس: إني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي).

٥ - كما أورد هذا الحديث العلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي المتوفي سنة ٩٧٥ في (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال الجزء الأول الباب الثاني - في الاعتصام بالكتاب والسنة ص ١٧٢ طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٥ - وهو الحديث رقم ٨١٠ و ٨٧١ و ٨٧٢ و ٨٧٣).

ولو استرسلنا في هذا الباب لإيراد الكتب التي روته لطال بنا المجال واحتاج كتاباً لوحده. وسوف نذكر هنا مجموعة من الحفاظ والعلماء الذين أوردوه كنموذج لا للحصر. وللتفصيل راجع كتاب إحقاق الحق لأسد الله التستري ج ٩ ص ٣١١، ومنهم:

(١) الحافظ الطبراني المتوفي سنة ٣٤٠ في (المعجم الصغير).

(٢) العلامة محب الدين الطبري (في ذخائر العقبى).

(٣) العلامة الشيخ إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الحموي في (فرائد السمطين).

(٤) ومنه ابن سعد في طبقاته الكبرى.

(٥) الحافظ نور الدين الهيثمي في (مجمع الزوائد).

- (٦) الحافظ السيوطي في (إحياء الميت).
- (٧) الحافظ العسقلاني في (المواهب اللدنية).
- (٨) العلامة النبھاني في (الأنوار المحمدية).
- (٩) العلامة الدارمي في سننه.
- (١٠) الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي في (السنن الكبرى).

- (١١) العلامة البغوي في (مصاييح السنة).
- (١٢) الحافظ أبو الفداء بن كثير الدمشقي في (تفسير القرآن).
- (١٣) وفي جامع الأصول لابن الأثير.
- (١٤) المحدث الشهير أحمد بن حجر الهيتمي المكي المتوفي سنة ٩١٤ هجرية في كتابه (الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة) الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥ مكتبة القاهرة - شركة الطباعة الفنية المتحدة - .

وقال بعد إيراد حديث الثقلين: (ثم اعلم أن لحديث التمسك بذلك طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً وله طرق مبسوطة في حادي عشر الشبهة، وفي بعض تلك الطرق أنه قال ذلك بحجة الوداع بعرفة وفي أخرى أنه قاله بالمدينة في مرضه. وقد امتلأت الهجرة (الحجرة) بأصحابه وفي أخرى أنه قال ذلك بغدير خم وفي أخرى أنه قاله لما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف كما مرّ ولا تنافي إذ لا مانع من أنه كرر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة. وفي رواية عن الطبراني عن ابن عمر آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخلفوني في أهل بيتي وفي أخرى عند الطبراني وأبي الشيخ أن الله عز وجل ثلاث حرمت فمن حفظهن حفظ الله دينه وديناه ومن لم يحفظهن لم يحفظ

الله ديناه ولا آخرته. قلت ما هن؟ قال حرمة الإسلام وحرمتي وحرمة رحي. وفي رواية للبخاري عن الصديق من قوله يا أيها الناس أرغب محمد صلى الله عليه وسلم في أهل بيته؟ أي احفظوه فيهم فلا تؤذوهم. (وأخرج ابن سعد والملا في سيرته أنه صلى الله عليه وسلم قال: أستوصي بأهل بيتي خيراً فإني أخاصمكم عنهم غداً ومن أكن خصمه أخصمه ومن أخصمه دخل النار، وأنه قال من حفظني في أهل بيتي فقد اتخذ عند الله عهداً. (وأخرج) الأول أنا وأهل بيتي شجرة في الجنة وأغصانها في الدنيا فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً، والثاني حديث: في كل خلف في أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ألا إن أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل فانظروا من توفدون... ثم قال: سمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن وعترته - وهي بالمشاة الفوقية الأهل والنسل والرهط الأذنون - ثقلين، لأن الثقل كل نفيس خطير مصون وهذان كذلك، إذ كل منهما معدن للعلوم الدنية والأسرار والحكم العليا والأحكام الشرعية، ولذا حث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الاقتداء والتمسك بهم والتعلم منهم وقال: الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت. وقيل: سُمِّيَ ثقلين لثقل وجوب رعاية حقوقهما، ثم الذين وقع الحث عليهم منهم إنما هم العارفون بكتاب الله وسنة رسوله إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلى الحوض ويؤيدهم الخبر السابق ولا تعلموهم فأنهم أعلم منكم، وتميزوا بذلك عن بقية العلماء، لأن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً...).

فهل راعيتَ يا ابن حجر كل هذا فحفظت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أهل بيته وواليهم وانقطعتَ في أخذ الدين عنهم!؟

أم تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم ۱؟ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وصدق الإمام جعفر الصادق عليه السلام عندما قال: «يدعون حينا
ويتبعون عقوقنا». فابن حجر وأمثاله يدعي حُبَّ أهل البيت ويوالي
ويأخذ دينه ممن ظلم أهل البيت، فهذا ابن حجر نفسه عندما يثبت فضائل
أهل البيت ويعترف بلزوم التمسك بهم يشن هجومه على الشيعة في صواعقه
ويصنفهم من الفرق الضالّة وينهال عليهم بأبشع التهم وأقبح السبّ.
فما ذنبهم يا ابن حجر؟!
هل لأنهم والوا أهل البيت، وتمسكوا بأخذ الدين منهم؟!.



شبهات على حديث الثقلين

(١) قدح ابن الجوزي في كتابه (العلل المتناهية في الأحاديث الواهية) بعدما ذكر حديث التمسك بالثقلين (كتاب الله وعترتي)، قال: «هذا حديث لا يصح، أما عطية فقد ضعفه أحمد ويحيى وغيرهما، وأما ابن عبد القدوس فقال يحيى ليس بشيء رافضي خبيث وأما عبد الله بن داهر فقال أحمد ويحيى ليس بشيء، ما يكتب من إنسان فيه خير».

* دفع الشبهة :

(١) لم يقتصر حديث الثقلين على هذا السند، فقد روي بأسانيد متعددة كما مر.

(٢) لقد رواه مسلم في صحيحه، بطرق كثيرة، ولا يخفى أن رواية مسلم له ولو بطريق واحد كافٍ لإثبات صحته، وهذا ما لا خلاف فيه بين المسلمين السنة.

(٣) كما رواه الترمذي في صحيحه بطرق متعددة. عن جابر، وزيد بن أرقم، وأبي ذر، وأبي سعيد وحذيفة.

(٤) كلام ابن الجوزي نفسه في كتابه الموضوعات ج ١ ص ٩٩ ما نصه: «دمت رأيت حديثاً خارجاً عن دواوين الإسلام (الموطأ ومسنده أحمد والصحيحين وسنن أبي داود والترمذي ونحوها) فأنظر فيه فإن كان له نظير في الصحاح والحسان فرتب أقرباً أمره..» وهو بهذا يناقض

نفسه حيث رُوِيَ هذا الحديث في ما سماه بدواوين الإسلام كما مر عليك!.

(٥) إن كلام ابن الجوزي في عطية مردود بتوثيق ابن سعد له، فقد قال ابن حجر العسقلاني: «قال ابن سعد: خرج عطية مع ابن الأشعث، فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم أن يعرضه على سب علي، فإن لم يفعل فاضربه أربعمائة سوط واحلق لحيته، فاستدعاه، فأبى أن يسب فأمضى حكم الحجاج فيه، ثم خرج إلى خراسان فلم يزل بها حتى وليَّ عمر بن هبيرة العراق فقدمها فلم يزل بها إلى أن توفي سنة مائة وعشرة، وكان ثقة إن شاء الله تعالى وله أحاديث سالحة»^(١).

مع العلم بأن ابن سعد من النواصب الذين يناصبون أهل البيت العداء إلى حدٍّ ضعف الإمام جعفر بن محمد الصادق، فتوثيقه لعطية كافٍ للخصم.

(٦) إن عطية من رجال أحمد بن حنبل، وأحمد لا يروي إلا عن الثقة كما هو معلوم، فروى عنه أحمد روايات كثيرة متعددة، فنسبة تضعيف عطية لأحمد كذبٌ ظاهر، فقد قال التقى السبكي: «وأحمد رحمه الله لم يكن يروي إلا عن ثقة، وقد صرح الخصم بعني ابن تيمية بذلك في الكتاب الذي صنفه في رد البكري بعد عشرة كراريس منه - قال: إن القائلين بالجرح والتعديل من علماء الحديث نوعان: منهم من لم يرو إلا عن ثقة عنده كمالك.. وأحمد بن حنبل.. وقد كفانا الخصم بهذا الكلام مؤونة تبين أن أحمد لا يروي إلا عن ثقة وحينئذٍ لا يبقى له مطعن فيه»^(٢).

(١) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٢٢٦.

(٢) شفاء الأسقام ج ١٠ ص ١١.

(٧) توثيق سبط ابن الجوزي له: فقد صرح بوثاقة عطية وردّ تضعيفه حيث قال بعد أن أورد قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك: «فإن قيل فعطية ضعيف قالوا والدليل على ضعف الحديث أن الترمذي قال: وحدث بهذا الحديث أو سمع مني هذا الحديث محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - فاستطرفه.

والجواب: إن عطية العوفي قد روى عن ابن عباس والصحابة وكان ثقة وأما قول الترمذي عن البخاري فإنما استطرفه لقوله صلى الله عليه وآله وسلم. لا أحله إلا لظاهر لا حائض ولا جنب».

وعن الشافعي يُباح للجنب العبور في المسجد وعند أبي حنيفة لا يباح حتى يغتسل للنص ويُحمل حديث علي عليه السلام أنه كان مخصوصاً بذلك كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخصوصاً بأشياء»^(١).

(٨) نسبة ابن الجوزي تضعيف عطية إلى يحيى بن معين مردود بنقل الدوري عن ابن معين بأنه صالح - فقد قال الحافظ بن حجر بترجمة عطية ما نصه: «قال الدوري عن ابن معين، صالح»^(٢). فسقط ما نسبته ابن الجوزي إلى يحيى بن معين فتأمل.

وما يدل على جهل ابن الجوزي بحديث الثقلين، ظنه أنه بمجرد تضعيف عطية يُضعف حديث الثقلين، مع العلم أن توثيق عطية أو تضعيفه لا يقدح في حديث الثقلين، لأن حديث عطية الذي رواه عن أبي سعيد قد رواه أيضاً عن أبي سعيد أبو الطفيل وهو يُعد من طبقة الصحابة ولو تجاوزنا ذلك فإن صحة حديث الثقلين غير موقوفة على رواية أبي سعيد سواء كانت

(١) خلاصة عقبات الأنوار ج ٢ ص ٤٥.

(٢) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٢٢٥.

عن طريق عطية أو أبي الطفيل، فلو سلّمنا جدلاً بضعف رواية أبي سعيد بكل طرقها فلا يضر ذلك بالحديث شيئاً لتعدد رواياته وطرقه.

* الرد على ابن الجوزي في تضعيفه لابن عبد القدوس.

(١) وأما قدحه في عبد الله بن عبد القدوس، فهو مرود بتوثيق الحافظ محمد بن عيسى إياه، قال الحافظ المقدسي بترجمة - عبد الله المذكور -: «وحكى ابن عدي عن محمد بن عيسى أنه قال: هو ثقة»^(١).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «وحكى عن محمد بن عيسى أنه قال: هو ثقة»^(٢).

ومحمد بن عيسى هو كما ذكره الحافظ الذهبي في ترجمته قال أبو حاتم: ثقة مأمون، ماريتُ من المحدثين أحفظ للأبواب منه، وقال أبو داود: ثقة.

(٢) أورده محمد بن حبان في الثقات وقال ابن حجر بترجمته: «ذكره ابن حبان في الثقات»^(٣).

(٣) نقل الهيثمي في [مجمع الزوائد] قال: «وثقه البخاري وابن حبان».

(٤) قال العسقلاني بترجمته: «قال البخاري: هو في الأصل صدوق إلا أنه يروي من أقوام ضعاف»^(٤).

(١) خلاصة عقبات الأنوار ج ٢ ص ٤٧ نقلاً عن الكمال في أسماء الرجال.

(٢) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٣٠٣.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

فإشكال البخاري على ابن عبد القدوس بعد أن وثقه بأنه يروي عن الضعاف لا يتوجه في هذا الحديث، لأن ابن عبد القدوس روى حديث الثقلين الذي أورده ابن الجوزي عن الأعمش وهو ثقة.

٥) عبد الله بن عبد القدوس هو من رجال البخاري في صحيحه في التعليقات كما في تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٣٠٣ وتقريب التهذيب ج ١ ص ٤٣٠، وتخريج البخاري له ولو كان في التعليقات دليل على توثيقه.

قال ابن حجر العسقلاني في مقدمة فتح الباري في شرح صحيح البخاري] في مقام الجواب عن الطعن في رجال البخاري: «وقبل الخوض فيه ينبغي لكل منصف أن يعلم أن تخريج صاحب الصحيح - يعني البخاري - لأي راوٍ كان، مقتضى لعدالته عنده وصحة ضبطه وعدم غفلته، ولا سيما ما انضاف إلى ذلك من إطباق جمهور الأئمة على تسمية الكتاين بالصحيحين، وهذا معنى لم يحصل لغير من خرّج عنه في الصحيحين».

٦) عبد الله بن عبد القدوس من رجال الترمذي.

٧) كما أن القدح في عبد الله بن عبد القدوس لا يضر في صحة الحديث. حتى برواية الأعمش عن عطية عن أبي سعيد لعدم تفرد عبد الله بن عبد القدوس بروايته عن الأعمش، فلقد رواه عن الأعمش: محمد بن طلحة بن المصرف اليامي، ومحمد بن فضيل بن غزوان الضبي في المسند والترمذي كما مر عليك، وهذا دليل على صدق الرواية، كما أن الأعمش لم يتفرد بروايته عن عطية، فقد رواه الأعمش عن عبد الملك بن أبي سليمان ميسرى العزرمي وأبي إسرائيل إسماعيل بن خليفة العبسي كما في مسند أحمد كما مر عليك، وعن هارون بن سعد العجلي، وكثير بن إسماعيل التيمي كما في معجم الطبراني.

★ أما تضعيفه الجمل لعبد الله بن داهر:

(١) هذا خلاف أصول وقواعد الجرح والتعديل لأن الطعن المبهم، لا يقبل من أي كائن كان.

(٢) لم يكن هناك سببٌ وجيةٌ للطعن فيه، سوى روايته فضائل أمير المؤمنين كما قال الذهبي: «قال بن عدي: عامة ما يرويه في فضائل علي، وهو متهمٌ في ذلك»^(١)، وتضعيفه لهذا السبب غير مقبول.

(٣) ومن العجيب والقيح في حق ابن الجوزي أن يکید إلى هذا الحد لتضعيف الحديث، بإيراد عبد الله بن داهر في سند الحديث مع العلم أنه لم يقع في سند من أسانيد هذا الحديث من الأساس! فراجع الروايات السابقة والتي لم نذكرها فهل تجد في سندها عبد الله بن داهر؟!، ولا أجد لهذا المعنى غير النصب والعداء لأهل البيت وطمس حقهم، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.. فتأمل.

(٤) لقد ذكر سبط ابن الجوزي بعد إيراد حديث الثقلين من مسند أحمد بن حنبل قال: «فإن قيل فقد قال جدك في كتاب [الواهية]—وأورد كلام ابن الجوزي في تضعيف الحديث كما تقدم— قلت: الحديث الذي رويناها أخرجه أحمد في الفضائل، وليس في إسناده أحد ممن ضعّفه جدي، وقد أخرجه أبو داود في سننه والترمذي أيضاً وعامة المحدثين، وذكره رزين في الجمع بين الصحاح. والعجب كيف خفي عن جدي ماروى مسلم في صحيحه من حديث زيد بن أرقم..»^(٢). وما قاله سبط ابن الجوزي ما هو إلا تبريرات لابن الجوزي، وإلا فإنه لا يغفل عن هذا الحديث المشهود في مصادر المسلمين مع ما هو عليه من كثرة النظر والاطلاع، ولكنه أراد أن يخدع ويمكر فمكر الله به وفضح أمره.

(١) ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٤١٧.

(٢) تذكرة خواص الأمة.

إشكال ابن تيمية

أما إشكال ابن تيمية على حديث الثقلين في كتابه منهاج السنة، فهو أسخف من أن يناقش، ولكن نذكره على سبيل التعريض بتلك الأفكار الفارغة، التي لا تعبر إلا عن سوء فهم وخلط وكثرة وهم، فعندما عجز ابن تيمية عن تضعيف حديث الثقلين من جهة السند كعادته في تضعيف كل ما يرد في فضل أهل البيت. عمد إلى أسلوب آخر لم نره في غيره، وهو قوله: إن هذا الحديث لا يدل على وجوب التمسك بأهل البيت، وإنما يدل على وجوب التمسك بالقرآن فقط.

أيُّ عاقل يا تُرى يستفيد من هذا النص الصريح هذا المعنى وهذا الفهم؟! وظاهر الحديث يجزم ويؤكد على لزوم التمسك بهما - الكتاب والعترة - وإلا أيُّ معنى للثقلين؟! (إني تاركٌ فيكم الثقلين)، وأيُّ معنى لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (ما إن تمسكنم بهما)؟! ولكن التعصب يعمي القلوب. واستدل - أي ابن تيمية - على ذلك بحديث واحد في صحيح مسلم عن جابر، وضرب ببقية الأحاديث عرض الحائط أو تغافل عنها مع كثرة روايتها وتعدد طرقها، وهو حديث يظهر للمتأمل بأنه مبتور بالمقارنة مع بقية الأحاديث الواردة في نفس هذا الباب، وهو حديث «تركتُ فيكم ما لن تضلوا بعده، إن اعتصمتم به كتاب الله .. < .

وهذا الحديث ظاهر البتر والتحريف، لأن حديث جابر نفسه جاء في رواية الترمذي وفيه الأمر الواضح بوجود التمسك بأهل البيت، ونص الحديث كما تقدم في رواية الترمذي : > أيها الناس، إني تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي <.

- كما أن هذا الإشكال نفسه يتوجه إلى ابن تيمية أيضاً، لأنه يقول بوجود التمسك بالكتاب والسنة. ومن الضروري أن يكون الأمر الصادر من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واحداً. إما لزوم التمسك بالكتاب فقط، وإما بالكتاب والسنة. وعندما اختار ابن تيمية وجوب التمسك بالقرآن فقط يسقط في المقابل وجوب التمسك بالسنة، وهذا خلاف ما يذهب إليه ابن تيمية كما هو واضح من مذهبه - أهل السنة - كما أنه سمي كتابه الذي ذكر فيه هذا الحديث [منهاج السنة] ولم يسمه منهاج القرآن !

وإذا كان في اعتقاده أن هذا الحديث الذي ذكره لا يلغي حديث التمسك بالكتاب والسنة فهو أيضاً لا يلغي وجوب التمسك بالكتاب والعتره.

ولم يقف ابن تيمية عند هذا الحد، فقال في > .. وعترتي فإنهما لم يفترقا حتى يردا عليّ الحوضاً : فهذا رواه الترمذي، وقد سُئل عنه أحمد، وضعفه غير واحد من أهل العلم وقالوا إنه لا يصح<. والجواب :
تشعر من قوله أن هذا النص من الحديث لم يروه إلا الترمذي، وقد علمت كما سبق أنه قد رواه غير واحد من أعلام السنة وحفاظهم.

فماذا يقصد من قوله رواه الترمذي !؟

هل رواية الترمذي دلالة على ضعفه !؟

ومن الذي سأل أحمد !؟ وماذا قال له !؟

وفي أي مكان هذا القول !؟

أولم يروه أحمد - نفسه - ووثقه؟!

ومن الذي ضعفه حتى يقول: غير واحد؟! ولماذا لم يذكرهم؟!
وغيرها من الأسئلة التي توجه على ابن تيمية، فإذا أجاب عليها بكلام
محكم نقبل إشكاله ولا يمكن أن نقبله على عواهنه وهو مجمل.
ولكن هذه عادة ابن تيمية إذا شمرَّ ساعد الجد على تضليل الأمة وستر
الحق.

هذه أوجه الشبهات التي وردت في هذا الباب ولم أرَ حسب تتبعي من
يطعن في حديث الثقلين الذي ثبت بالتواتر واعترف بصحته أعلام الأمة من
الحفاظ والمحدثين، فلا يجرؤ على طعنه إلا ذو قلب مريض امتلاً بغضاً وغيظاً
على أهل البيت - والعياذ بالله - .
وبعد أن ثبت لنا جلياً صحة هذا الحديث يجب علينا كشف دلالاته
ومن ثمَّ الالتزام بها .



دلالة الحديث على إمامة أهل البيت

دلالة الحديث على إمامة أهل البيت من أوضح الأمور وأظهرها - عند كل مُنصف - لأنه يفيد وجوب اتباعهم في المعتقدات والأحكام والآراء وعدم مخالفتهم، بقول أو فعل، لأن أي عمل يخرج عن إطارهم يُعتبر خارجاً عن القرآن وبالتالي خارجاً عن الدين، وهم بذلك مقياسٌ دقيق يُعرف به الطريق المستقيم والصراط السوي، حيث لا يكون الهدى إلا عن طريقهم ولا يكون الضلال إلا بمخالفتهم (ما إن تمسكنم بهما لن تضلوا) لأن التمسك بالقرآن يعني العمل بما فيه، وهو الائتمار بأوامره والانتهاز عن نواهيه، فكذلك يكون التمسك بالعترة، لأنه لا يقوم جواب شرط إلا بقيام المشروط، كما أن الضمير في (بهما) يرجع إلى الكتاب والعترة، ولا أظن أن عربياً أعطي قليلاً من الفهم في اللغة يخالف في ذلك، وبذلك يكون اتباع أهل البيت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرضاً كما أن اتباع القرآن فرض، بعيداً عن من هم أهل البيت، لأن هذا بحثٌ متأخر، والمهم هنا إثبات أن الأمر والنهي والاتباع والافتداء لأهل البيت، وتحديد هويتهم خارج عن إطار هذا الحديث، كما يقول علماء الأصول > إن القضية لا تثبت موضوعها < فيكون بالضرورة أن أهل البيت هم الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وقوله (ص) : > إني تاركٌ فيكم < نصٌ صريح بأن

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلفهم ووصى الأمة باتباعهم، وأكد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم «فانظروا كيف تخلفوني فيهما». فخلافة القرآن واضحة، وخلافة أهل البيت لا تكون إلا بإمامتهم.

وبذلك، يكون كتاب الله وعتره رسوله صلى الله عليه وآله وسلم السبب الموصل إلى رضوان الله، لأنهم حبل الله الذي أمرنا الله بالاعتصام به ﴿واعتصموا بحبل الله﴾^(١).

والآية هنا عامة في تعيين وتحديد حبل الله، وكل ما يتبين منها هو وجوب التمسك به. فأتت السنة بمحدث الثقلين وأحاديث أخرى، تبين أن الحبل الذي يجب أن نتمسك به هو كتاب الله مع عتره رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد قال بذلك مجموعة من المفسرين: فقد أوردها ابن حجر في كتابه الصواعق في باب ما أنزل في أهل البيت من القرآن.. فراجع.

وذكرها القندوزي في كتابه - ينابيع المودة - قال: «في قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً...﴾ أخرج الثعلبي عن أبان بن تغلب عن جعفر الصادق ؑ قال: نحن حبل الله الذي قال الله عز وجل ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وأيضاً أخرج صاحب كتاب المناقب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عنهما قال: كُنَّا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذ جاء أعرابي فقال: يا رسول الله سمعتك تقول واعتصموا بحبل الله، فما حبل الله الذي نعتصم به؟ فضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يده في يد علي وقال «تمسكوا بهذا هو حبل الله المتين»^(٢).

(١) آل عمران - ١٠٣.

(٢) النبايع ص ١١٨ منشورات مؤسسة الأعلمي بيروت - لبنان.

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم : > لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض < فهو دالٌّ على عدة وجوه:

أولها: إثبات العصمة لهم، لأن اقترانهم بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، دالٌّ على علمهم بما في الكتاب وأنهم لا يخالفونه قولاً ولا فعلاً، ومن البديهي أن صدور أي مخالفة منهم للكتاب سواء كانت عن عمدٍ أو سهو حاكمة بافتراقهم عن القرآن، والحديث صريح في عدم افتراقهما حتى يردا الحوض، وإلا يكون تكذيباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما أن هذا الفهم تؤيده أدلة من القرآن والسنة تؤجل البحث فيها إلى مكان آخر.

ثانياً: إن مفاد > لن < التأييدية تفيد أن التمسك بهما مانعٌ من الضلالة دائماً وأبداً، ولا يتم ذلك إلا بالتمسك بهما معاً، لا بواحدٍ منهما كما تقدم، وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في رواية الطبراني : > فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم < تؤكد هذا المعنى.

ثالثاً: بقاء العترة إلى جانب الكتاب إلى يوم القيامة، فلا يخلو منهما زمان، وقد قرَّب هذا المعنى ابن حجر في صواعقه > وفي أحاديث الحث على التمسك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك به إلى يوم القيامة، كما أن الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض كما سيأتي، ويشهد لذلك الخبر السابق.. في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي. ثم أحق من يتمسك به منهم إمامهم وعالمهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لما قدمناه من مزيد علمه ودقائق مستنبطاته > (١).

(١) الصواعق ص ١٥١.

رابعاً : كما أنه يدل على تميزهم وعلمهم بتفاصيل الشريعة وذلك
لاقترانهم بالكتاب الذي لا يفادر صغيرة ولا كبيرة، كما قال صلى الله عليه
 وآله وسلم : > ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم < .

والخلاصة أنه لا بد من وجود ولو واحد من أهل البيت في كل زمان
 إلى قيام الساعة لا يخالف قوله ولا فعله القرآن حتى لا يفترق عنه ومعنى لا
 يفترق قولاً وفِعلاً عن القرآن أنه معصوم لساناً وسلوكاً يجب اتباعه لأنه أمان
 من الضلال.

وهذا المعنى لا تقول به إلا الشيعة حيث يقولون بوجوب وجود إمام
 في كل زمان من أهل البيت يكون معصوماً عن الخطأ والزلل يجب موالاته
 ومعرفته (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية) ودلّ على هذا
 المعنى قوله تعالى ﴿ويوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾.



الفصل الرابع

من هم أهل البيت؟

- أهل البيت في آية التطهير
- حديث الكساء تحديد هوية أهل البيت
- أهل البيت في آية المباهلة

من هم أهل البيت؟

هذا البحث من أوضح البحوث، حيث لا يتجاهل إنسان معرفة أهل البيت إلا ذلك المعائد الذي لم يجد مخرجاً من الأدلة القاطعة في وجوب اتباعهم، فيلجأ إلى أسلوب التشكيك فيهم، وهذا ما لاحظته بنفسى خلال مناقشاتي مع بعض الأخوة والزملاء، فعندما لا يجد الواحد منهم مفرأ من لزوم اتباع أهل البيت تجده مباشرة يوجه أسئلةً مبهمة :

من هم أهل البيت ؟

وآليس أزواجه من أهله؟! أو لم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم : سلمان منا أهل البيت؟!

بل أوليس أبو جهل من أهله (ص) أيضاً؟!

ولا يريد من كل هذه الأسئلة إلا أن ينكر واقع حديث الثقلين وأنه من

الأحاديث الدالة على إمامة أهل البيت، ظناً منه أنه بهذه الأسئلة الحائرة

المبهمة يستطيع أن يسكت عقله ونداء ضميره، ولكن هيهات الحجة قائمة

سواء أنكروا أو لم ينكروا.

فكنت أقول لبعضهم عندما يسأل هذه الأسئلة، لماذا أنتم تريدون كل

شيء جاهز من غير عناء أو بحث؟! إن الأفكار المعلبة لا تفيد، فبإمكانى

أن أجيب وبإمكانكم أن تردوا إجاباتى وتتكروا لها وتتكروا عليها لأنكم لم

تذوقوا مرارة البحث ولم تتحملوا عناء الإجابة عليها، ومن ثم هل أنا الوحيد

الذى يفترض عليّ أن أجيب؟ وهل أمرنى رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم بالتمسك بأهل البيت على وجه الخصوص !؟ أما كلنا مكلفون ويجب عليّ وعليكم الإجابة، لأنه قامت علينا الحجة بوجوب اتباع أهل البيت، وأخذ الدين عنهم فيكون لزاماً معرفتهم ومن ثم الاقتداء بهم !؟

وأنا أيضاً في هذا المقام، لا أوسع في الأدلة والبراهين، إنما أكتفي ببعض الإشارات الواضحة ومن يريد الزيادة فعليه بالتوسع .

✧ أهل البيت في آية التطهير:

قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١) .

إن نزول هذه الآية المباركة في علي وفاطمة والحسن والحسين من أوضح الأمور لمن تتبع كتب الحديث والتفسير، يقول ابن حجر في هذا الصدد: > إن أكثر المفسرين على أنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين <^(٢) . وهذه الآية لدلالاتها الواضحة على عصمة أهل البيت لا تنسجم إلا معهم لما وضحناه آنفاً لأنهم ثقل هذه الأمة، والأئمة الهادون بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولذلك أمر رسول الله (ص) باتباعهم، وإفادة العصمة واضحة من هذه الآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وذلك لاستحالة تخلف المراد إذا كان المريد هو الله سبحانه، وأداة الحصر >إنما< شاهدة على ذلك، وما يهمنا في هذا المقام إثبات خصوص هذه الآية وأنها نازلة في علي وفاطمة والحسن والحسين - عليهم السلام - .

(١) سورة الأحزاب : ٣٣ .

(٢) الصواعق ص ١٤٣ .

✦ حديث الكساء تحديد هوية أهل البيت:

أقرب الأدلة وأوضحها فيما جاء في تفسير هذه الآية من روايات عُرفت عند أصحاب الحديث بحديث الكساء، ولا تقل صحته وتواتره عن حديث الثقلين.

آ - روى الحاكم في كتابه (المستدرک على الصحيحين في الحديث) :

«عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أنه قال: لما نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرحمة هابطة قال: (أدعوا لي، أدعوا لي) فقالت صفية: من يا رسول الله؟! قال: أهل بيتي عليّ وفاطمة والحسن والحسين، فجيء بهم فألقى عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كساءه، ثم رفع يديه ثم قال: اللهم هؤلاء آلي «فصل على محمد وآل محمد» وأنزل الله عز وجل (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)»^(١).

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد .

ب - وروى الحاكم مثله عن أم سلمة قالت: « في بيتي نزلت - إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت - فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي وفاطمة والحسن والحسين، فقال هؤلاء أهل بيتي»^(٢). ثم قال الحاكم: هذا صحيح على شرط البخاري، ورواه في موضع آخر عن وائلة وقال: صحيح على شرطيهما.

ج - ورواه مسلم في صحيحه عن عائشة قال: « خرج رسول الله غداً عليه مرطٌ مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء

(١) مستدرک الحاكم ج ٣ ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) المصدر السابق .

الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء عليّ فأدخله ثم قال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» (١) .

وجاء هذا الخبر في روايات متعددة في الصحاح وكتب الحديث والتفسير (٢) . وهو من الأخبار الصحيحة المتواترة لم يضعفه أحدٌ من الأولين والآخرين. ويطول بنا المقام إذا ذكرنا كل هذه الروايات، فأنا أحصيتُ منها سبعاً وعشرين روايةً كلها صحيحة .

ومن أوضح الروايات في هذا الباب - في تعيين أهل البيت - دون غيرهم من أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما نقله السيوطي في الدر المنثور عن ابن مردويه عن أم سلمة قالت: «نزلت هذه الآية في بيتي - إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً - وفي البيت سبعة جبرائيل وميكائيل وعلي وفاطمة والحسن والحسين، وأنا على باب البيت، قلت يا رسول الله ألسْتُ من أهل البيت؟! قال: إنك على خير إنك من أزواج النبي» (٣) .

وفي رواية الحاكم في مستدركه قالت أم سلمة: يا رسول الله ما أنا من أهل البيت؟ قال: إنك إلى خير وهؤلاء أهل بيتي، اللهم أهل بيتي أحق (٤) .

(١) صحيح مسلم، باب فضائل أهل البيت.

(٢) آ - البيهقي في السنن الكبرى، باب بيان أهل بيته والذين هم آله.

ب - تفسير الطبري ج ٢٢ ص ٥ .

ج - تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٨٥ .

د - تفسير الدر المنثور ج ٥ ص ١٩٨-١٩٩ .

هـ - صحيح الترمذي، باب فضائل فاطمة.

و - مسند أحمد ج ٦ ص ٢٩٢ - ٣٢٣ ... وغيرها .

(٣) الدر المنثور ج ٥ ص ١٩٨ .

(٤) مستدرك الحاكم ج ٢ ص ٤١٦ ، تفسير الآية من سورة الأحزاب.

وفي رواية أحمد فرفعتُ الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي وقال إنك علي خير^(١). وفي هذا كفاية في اثبات أن أهل البيت هم أصحاب الكساء بأوضح العبارات وأصرح الألفاظ، فيكونون بذلك ثقل القرآن الذي أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الثقلين بالتمسك بهم.

ومن قال بأن العترة بمعنى القريبى حتى يشوه المعنى فقولهُ غير مقبول، لأن هذا لم يقل به أحد من أئمة اللغة، فقد نقل ابن منظور في لسان العرب: «إن عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولدُ فاطمة رضي الله عنها» هذا قول ابن سيده، وقال الأزهري - رحمه الله -، وفي حديث زيد بن ثابت قال: قال رسول الله (ص).. ويذكر حديث الثقلين - فجعل العترة أهل البيت، وقال أبو عبيد وغيره: عترة الرجل وأسرته وفصيلته رهطه الأذنون، ابن الأثير عترة الرجل أخص أقاربه وقال ابن الأعرابي: العترة ولدُ الرجل وذريته وعقبه من صلبه. قال: فعترة النبي (ص) ولدُ فاطمة البتول عليها السلام^(٢). فيتضح من هذا المعنى أن أهل البيت ليس مطلق الأقارب وإنما هم أخص أقاربه، ولذلك عندما سئل زيد بن أرقم في رواية مسلم قالوا فمن أهل بيته؟ نساؤه؟

قال: لا وأيم الله.. إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها.. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة من بعده..

كما أن شرف الانتماء لأهل البيت لم يدعِهِ أحد من أقارب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا زوجاته، وإلا لحدثنا التاريخ بذلك، فلا يوجد في التاريخ ولا الحديث أن زوجات النبي (ص) احتججنَ بهذه الآية

(١) مسند أحمد ج ٣ ص ٢٩٢-٣٢٣.

(٢) لسان العرب ج ٩ ص ٣٤.

وهذا الشرف بعكس أهل البيت، فهذا أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إن الله عز وجل فضلنا أهل البيت، وكيف لا يكون كذلك والله عز وجل يقول في كتابه: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فقد طهرنا الله من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فنحن على منهاج الحق».

وقال ابنه الحسن عليه السلام: «أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن عليّ، وأنا ابن البشير النذير الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، أنا من أهل البيت الذي كان ينزل فيه جبرئيل ويصعد، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». وفي موضع آخر يقول: «وأقول معشر الخلائق فاسمعوا، ولكم أفئدة وأسماع فعوا، إنّنا أهل بيت كرمنا الله بالإسلام واختارنا واصطفانا واجتباننا فأذهب عنا الرجس وطهرنا تطهيراً».

واحتجاج ابن كثير بالسياق في لزوم إدخال أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية لا مجال له، لأن حجية الظهور متوقفة على وحدة الكلام، ومن المعلوم أن الخطاب قد تغير من التأنيث في الآيات السابقة لهذه الآية إلى التذكير فإذا كان المراد من هذه الآية نساءً يكون الخطاب - إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس أهل البيت ويطهركن تطهيراً - لأن الآيات خاصة بالنساء ولذلك استأنف الله قوله بعد هذه الآية: ﴿وَإِذْ كُنَّ هُنَّ حِجَابٌ مُثَقَلٌ فِي بَيْوتِكُنَّ مِنَ الْآيَاتِ وَالْحِكْمَةِ..﴾^(١). ولم يقل أحد أن آية التطهير نازلة في أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم غير عكرمة ومقاتل، فكان عكرمة يقول: «من شاء باهلتها أنها نازلة في أزواج النبي (ص)»^(٢). وهذا الكلام من

(١) الأحزاب ، آية ٣٤ .

(٢) الدر المنثور ج ٥ ص ١٩٨ .

عكرمة غير مقبول لتعارضه مع روايات صحيحة صريحة كما سبق في أن أهل البيت هم أصحاب الكساء.

وثانياً ما هو الذي حرّك عكرمة وأثار غضبه حتى ينادي في الأسواق للمباهلة؟.

هل حباً في أزواج النبي أم بغضاً لأصحاب الكساء؟! وما هو الداعي للمباهلة إذا كانت مسلمة أنها في أزواج النبي (ص)؟! أم كان الرأي العام والسائد أنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين؟! بل هو كذلك. ويدل على ذلك فحوى كلامه: «ليس بالذي تذهبون إليه، إنما هو نساء النبي»^(١) وهذا يعني أن الآية كانت واضحة عند بقية التابعين أنها في - علي وفاطمة والحسن والحسين - عليهم سلام الله.

كما أننا لا يمكن أن نقبل عكرمة حكماً وشاهداً في هذا الأمر لما عُرِف عنه من شدة العداة لأمر المؤمنين عليه السلام فهو من الخوارج الذين قاتلوا علياً، فكان عليه أن يقول أنها نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه لو أقر في نزولها في علي عليه السلام يكون حكم بنفسه على مذهبه وهذا أسس عقيدته التي سوغت له ولأصحابه الخروج على علي عليه السلام. وغير ذلك من اشتهار عكرمة بالكذب على ابن عباس حتى أن ابن المسيب كان يقول لمولى له اسمه برد: لا تكذب علياً كما كذب عكرمة على ابن عباس، وفي ميزان الاعتدال أن ابن عمر قال ذلك أيضاً لمولاه نافع.

وقد حاول علي بن عبد الله بن عباس صدّاً عكرمة وردعه عن ذلك، ومن وسائله التي اتخذها معه أنه كان يوقفه على الكيف ليرتدع عن الكذب على أبيه، يقول عبد الله بن أبي الحرث: «دخلتُ على ابن عبد الله بن عباس

(١) المصدر السابق.

وعكرمة موثق على باب الكنيف، فقلت: أتفعلون هذا بمولاكم ١٩ فقال: إن هذا يكذب على أبي^(١).

وأما مقاتل فإنه لا يقل عن عكرمة في عداته لأمر المؤمنين عليهم السلام واشتهاره بالكذب، حتى عده النسائي في جملة الكذابين المعروفين بوضع الحديث^(٢).

وقال الجوزجاني كما في ترجمة مقاتل من ميزان الذهب: كان مقاتل كذاباً جسوراً^(٣).

وقال مقاتل للمهدي العباسي: إن شئت وضعت لك أحاديث في العباس، قال: لا حاجة لي فيها^(٤).

ومثل هؤلاء لا يمكن أن نأخذ من كلامهم، فذلك ضرباً من الغرور والجهل، لأن الأحاديث الصحيحة المتواترة خلاف ذلك كما تقدم. وهذا غير الروايات التي تقول بعد نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقي تسعة أشهر يأتي باب علي بن أبي طالب عليه السلام عند وقت كل صلاة فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) كل يوم خمس مرات^(٥).

وفي صحيح الترمذي ومسند أحمد ومسند الطيالسي ومستدرک الحاكم على الصحيحين وأسد الغابة وتفسير الطبري وابن كثير والسيوطي: إن رسول

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٠.

(٢) دلائل الصدق ج ٢ ص ٩٥.

(٣) الكلمة الغراء، لشرف الدين ص ٢١٧.

(٤) الغدير ج ٥ ص ٢٦٦.

(٥) تفسير الآية عن ابن عباس في الدر المنثور ج ٥ ص ١٩٩.

الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمر بباب فاطمة (عليها السلام) ستة أشهر كلما خرج إلى صلاة الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)^(١) .. وغيرها من الروايات المشابهة التي وردت في هذا الباب.

وبهذا اتضح لنا جلياً أن أهل البيت هم (علي وفاطمة والحسن والحسين) ولا مجال للمنكر المراءوغ، فإن الشك في هذا كالشك في الشمس في رابعة النهار.



(١) مستدرک الصحیحین ج ٣ ص ١٥٨، وقال حدیث صحیح علی شرط مسلم ولم یخرجه.

أهل البيت في آية المباهلة

إن الصراع بين جبهتي الحق والباطل في ساحات القتال أمرٌ صعب ولكنه أكثر صعوبة إذا كان في ساحة المحراب، عندما يكشف كل واحد نفسه أمام علام الغيوب، ويجعلونه حاكماً وقاضياً بينهم، ففي هذه الحالة لا ينجح من في قلبه شك أو ريبة.

نعم، قد يكون مقاتلاً جلدأً في ساحات القتال، لذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مقاومته للكفار يدعو للجهاد كل من يقدر على حمل السلاح ولو كان منافقاً. ولكن عندما تحولت نوعية الصراع من الحرب إلى الدعاء والمباهلة مع النصارى لم يدعُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه النوعية الجديدة من الصراع أي واحدٍ من أصحابه، لأن في مثل هذا المقام لا يتقدم إلا من كان له قلب سليم مطهرٌ من الرجس والذنب، وهم النخبة المصطفاة، ومثل هؤلاء لا يكونون كثيراً بين البشر، وإنما هم قلة، ولكنهم خير أهل الأرض.

فمن هؤلاء النخبة المصطفون؟

عندما جادل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علماء النصارى بالتي هي أحسن، لم يجد منهم إلا الكفر والجحود والعصيان، ولم يعد هناك سبيل سوى الابتهاال، وهو أن يدعو كل واحد منهم بما عنده، ويجعلوا لعنة الله على الكاذبين، فحينها جاء الأمر الإلهي: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا

وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين^(١). وعندها استجاب
القساوسة إلى عرض الرسول الجديد حتى تكون المعركة حاسمة بينهم،
فجمع القساوسة خواصهم استعداداً لهذا اليوم، وعندما جاء الموعد
واحتشدت الجماهير وتقدم النصارى وهم يعتقدون بأن الرسول سوف يخرج
إليهم يجمع من أصحابه ونسائه ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وهو يتقدم بخطوات ثابتة مع كوكبة صغيرة من أهل البيت الحسن على يمينه
والحسين على شماله، وعلي وفاطمة خلفه، وعندما رأى النصارى هذه
الوجوه المشرقة ارتعشوا خوفاً، فالتفتوا جميعاً إلى الأسقف زعيمهم:

– يا أبا حارثة ، ماذا ترى في الأمر ؟

فأجابهم الأسقف: أرى وجوهاً لو سأل الله بها أحدٌ أن يزيل جبلاً من
مكانه لأزاله .

فازدادت دهشتهم، وعندما أحس الأسقف منهم ذلك قال:

– أفلا تنظرون محمداً رافعاً يديه ينظر ما تجيبان به، وحق المسيح إذا
نطق فوه بكلمة لا نرجع إلى أهل ولا مال^(٢) .

وحين ذاك قرروا التراجع وترك المباهلة، ورضوا بالذل ودفح الجزية.
فهؤلاء الخمسة هزم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النصارى وردهم
صاغرين. وبذلك قال رسول الله (ص) «والذي نفسي بيده إن العذاب تدلى
على أهل نجران ولولا عفوه لمُسحوا قردهً وخنازير واضرم عليهم الوادي
ناراً ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر وما حال الحول على
النصارى كلهم».

(١) سورة آل عمران: ٦١.

(٢) الدر المنثور، السيوطي ج ٢ من سورة آل عمران آية ٦١.

ولكن لماذا أحضر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هؤلاء الخمسة فقط، ولم يحضر أصحابه وزوجاته ؟

والإجابة على ذلك بكلمة، وهي: أهل البيت هم أوجه الخلق بعد الرسول عند الله وأكثرهم نقاءً وتطهيراً، ولم تُنحَ لغيرهم هذه الصفات التي أثبتها الله لأهل البيت في آية التطهير كما تقدم. ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تطبيق هذه الآية كيف يلفت أنظار الأمة لمنزلة أهل البيت، فيفسر قوله تعالى «أبناءنا» بالحسن والحسين و«نساءنا» بالسيدة فاطمة الزهراء (ع) و«أنفسنا» بـ علي عليه السلام، وذلك لأن الإمام لا يدخل ضمن النساء ولا ضمن الأولاد فينحصر دخوله في كلمة أنفسنا ولأن التعبير بـ «أنفسنا» يكون قبيحاً إذا كانت الدعوة موجهة إلى ذاته فقط.

فكيف يدعو نفسه؟! ..! ويؤيد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «أنا وعلي من شجرة واحدة وسائر الناس من شجر شتى».

فإذا كان الإمام علي عليه السلام هو نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيكون له ما للرسول من قيادة وولاية على المسلمين إلا منزلة واحدة وهي منزلة النبوة كما عبّر رسول الله (ص) في صحيح البخاري ومسلم: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»^(١).

إن استدلالنا من هذه الآية لم يكن في هذا المقام وإنما هو في بيان من هم أهل البيت، والحمد لله لم يكن هناك خلاف في أن هذه الآية نزلت في أصحاب الكساء، وهناك أخبار وأحاديث في هذا المجال .

فقد روى مسلم والترمذي كلاهما في باب فضائل علي عليه السلام: «عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم

(١) راجع البخاري كتاب المناقب، وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة، والمسنود ج ٣ رواية

ونسأئنا... ﴿﴾ دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال :
اللهم هؤلاء أهلي^(١) . وذكره السيوطي والحاكم والبيهقي، وقوله هؤلاء
أهلي يدل على تحديد أهل البيت في هؤلاء الأربعة.



(١) صحيح مسلم ج ٢ ص ٣٦٠ ط. عيسى الحلبي، وج ١٥ ط. مصر ص ١٧٦ بشرح
النووي، صحيح الترمذي ج ٤ ص ٢٩٣ رقم الحديث ٣٠٨٥، ج ٥ ص ٣٠١ الحديث
٣٨٠٨، المستدرک علی الصحیحین ج ٣ ص ١٥٠.

الفصل الخامس

ولاية علي (ع) في القرآن

- البحث الفاصل
- آية الولاية
- وجه الاستدلال من هذه الآية
- المصادر التي أثبتت نزولها في أمير المؤمنين علي (ع)
- آية التبليغ نص صريح في الولاية
- الغدير في المصادر الإسلامية
- المصادر التي أثبتت نزولها في الإمام علي (ع)
- نص الخطبة

ولاية علي في القرآن

* البحث الفاصل:

بعد فراغي من بحثي الأول الذي كلفني مجهوداً فكرياً ونفسياً، وجعلني أعيش صراعات مع ضميري وأخرى مع زملائي وأساتذتي في الجامعة، وصلت فيه إلى قناعة كافية أشك في الشمس ولا أشك فيها، وكانت النتيجة من ذلك كما وضحتُ وجوب اتباع أهل البيت (ع) وأخذ الدين عنهم، وكانت هذه قناعاتي الأولى لفترة من الزمن، لم أتمكن بعد من تحديد الموقف واختيار مذهبي رغم وجداني الذي كان يلحُّ عليّ باتباع مذهب التشيع، ورغم أن أصدقائي وأهلي وزملائي كانوا يصنفونني شيعياً، وكثير منهم يناديني بالشيعي وبعضهم بالخميني!، وأنا بعد لم أحدد موقفي، لا أشك فيما توصلت إليه، ولكن نفسي الأمانة بالسوء هي التي تنهاني وتوسوس لي:

كيف ترك ديناً وجدت عليه آباءك؟!

وماذا تصنع مع هذا المجتمع الذي هو بعيدٌ عن اعتقادك؟!

وأنت مَنْ حتى تصل إلى هذا؟! أغفل عنه أعظم العلماء!! بل جل المسلمين؟!.. وآلاف من الأسئلة والتشكيكات التي غالباً ما كانت تغلب عليّ وتسكنتني!. وأحياناً ينتفض عقلي وضميري.. وهكذا.. دفع وجذب ومد وجزر وتوتر عصبي وانفصام في نفسي، لا مفر ولا أنيس ولا صديق ولا حبيب..

فطفقتُ أسأل وأبحث عن الكتب التي ردت على الشيعة لعلها تنقذني مما أنا فيه وتوضح لي حقائق لعلها غائبة عني، ولقد كفاني الوهاية عن جمعها فقد كان إمام الجماعة في مسجد قريتنا يحضر لي كل ما أطلبه..

وبعد البحث فيها تعقدت مشكلتي وازداد توترتي ولم أجد فيها بغيتي، لأنها خالية من الموضوعية والنقاش المنطقي وكل ما فيها سبٌ ولعنٌ وشتم، وافتراءات وكذب، شكلت لي حجاباً في أول الأمر، ولكن بعد تجريدها من هذه التأثيرات الإعلامية تبينت أمامي أو هن من بيت العنكبوت.

فعمزتُ بعد ذلك على مواصلة البحث، رغم اقتناعي بما توصلت إليه في البحث الأول مقاوماً تسويلات نفسي ومتطلعاً لرؤية الحقيقة أكثر ظهوراً وضياءً، فوق اختياري على بحث أدلة ولاية الإمام علي عليه السلام والناصة على إمامته وكان في ذهني مجموعة من الأدلة التي تؤدي هذا الغرض رغم أنها كافية لمن كان له عقل صافٍ وقلب سليم، ولكن أردتُ أن يكون هو البحث الفاصل بين أن أكون سنياً أعتقد بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وبين أن أكون شيعياً ، أقول بإمامة علي عليه السلام .

وبعد البحث كانت المفاجأة ! حيث لم أستطع وإلى الآن أن أجمع وأحصي وأتبع كل الأدلة سواء أكانت نقلية أو عقلية، التي تصرح وبكل وضوح بإمامة أمير المؤمنين عليه السلام، بعضها ظاهراً في الدلالة وبعضها يحتاج إلى مقدمات مطولة.

وما أسجله في هذا الفصل هو مقتطف يسير، وذلك مراعاةً للاختصار وتشويقاً للباحث، ولاعتقادي بأن فيه الكفاية بعد الشرح والتوضيح.

(١) قوله تعالى :

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) ﴿١﴾ صدق الله العظيم.

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

- وجه الاستدلال من هذه الآية :

تكون هذه الآية واضحة في ولاية أمير المؤمنين وإمامته إذا ثبت أن المراد من قوله تعالى: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ هو الإمام علي عليه السلام. وإذا ثبت أيضاً أن كلمة الولي بمعنى الأولى بالتصرف. ✧ المصادر التي أثبتت نزولها في علي عليه السلام :

لقد قامت الأدلة وتواترت الروايات من الطرفين على أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخصوص الإمام علي عليه السلام عندما تصدق بالخاتم وهو راكع. وقد روى هذا الخبر جمع من الصحابة منهم:

(١) أبو ذر الغفاري: وقد رواه عنه مجموعة من الحفاظ مثل :

آ - أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي في التفسير - (الكشف والبيان عن تفسير القرآن).

ب - الحافظ الكبير الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج ١ ص ١٧٧ ط. بيروت.

ج - سبط ابن الجوزي في التذكرة ص ١٨.

د - الحافظ ابن حجر العسقلاني في (الكاف الشاف) ص ٥٦. ... وغيرهم من المحدثين والحفاظ.

(٢) المقداد بن الأسود : وأخرجه عنه الحافظ الحسكاني في (شواهد

التنزيل) ج ١ ص ١٧١ ط. بيروت تحقيق المحمودي.

(٣) أبو رافع القبطي : مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - :

أخرجها عنه مجموعة من الأعلام مثل :

آ - الحافظ بن مردويه في كتاب (الفضائل).

ب - الحافظ جلال الدين السيوطي في (الدر المنثور) ج ٢ ص ٢٩٣.

ج - المحدث المتقي الهندي في (كنز العمال) ج ١ ص ٣٠٥ ..
وآخرون

(٤) عمار بن ياسر: وأخرج روايته :

آ - المحدث الكبير الطبراني في (معجمه الأوسط).

ب - الحافظ أبو بكر بن مردويه في (الفضائل).

ج - الحافظ الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل).

د - الحافظ بن حجر العسقلاني في (الكاف الشاف) ص ٥٦ عن

الطبراني وابن مردويه.

(٥) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: وأخرجها :

آ - الحاكم النيسابوري، الحافظ الكبير في كتاب (معرفة علوم

الحديث) ص ١٠٢ ط. مصر سنة ١٩٣٧.

ب - الفقيه ابن المغازلي الشافعي في (المناقب) ص ٣١١.

ج - الحافظ الحنفي الخوارزمي في (المناقب) ص ١٨٧.

د - الحافظ ابن عساكر الدمشقي (تاريخ دمشق) ج ٢ ص ٤٠٩

تحقيق الحمودي.

هـ - ابن كثير الدمشقي في (البداية والنهاية) ج ٧ ص ٣٥٧ ط.

بيروت.

و - الحافظ بن حجر العسقلاني في (الكاف الشاف) في تخریج

أحاديث الكشاف ص ٥٦ ط. مصر.

ز - المحدث المتقي الهندي في (كنز العمال) ج ١٥ ص ١٤٦ في باب

فضائل علي عليه السلام.

(٦) عمرو بن العاص: أخرجها عنه الحافظ أخطب خوارزم الحافظ أبو

المؤيد في (المناقب) ص ١٢٨.

- (٧) عبد الله بن سلام : أخرجها عنه محب الدين الطبري في (ذخائر العقبي) ص ١٠٢ . وفي الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٢٧ .
- (٨) عبد الله بن عباس : وأخرجها عنه :
- آ - أحمد بن يحيى البلاذري في (انساب الأشراف) ج ٢ ص ١٥٠ ط. بيروت ، تحقيق المحمودي.
- ب - الواحدي في (أسباب النزول) ص ١٩٢ ط. الأولى سنة ١٣٨٩ تحقيق السيد أحمد الصمد.
- ج - الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل) ج ١ ص ١٨ .
- د - ابن المغازلي الشافعي في (المناقب) ص ٣١٤ تحقيق المحمودي.
- هـ - الحافظ بن حجر العسقلاني في (الكاف الشاف في تخریج احاديث الكشاف) ط. مصر.
- و - جلال الدين السيوطي .
- (٩) جابر بن عبد الله الأنصاري: ومن الذين أخرجوها عنه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج ١ ص ١٧٤ .
- (١٠) أنس بن مالك - خادم رسول الله - : وأخرجها :
- آ - الحافظ الحسكاني في (شواهد التنزيل) ج ١ ص ١٤٥ .
- ب - المحدث الكبير الحموي الجويني الخرساني في (فرائد السمطين) ج ١ ص ١٨٧ .
- ونختار من هذه الروايات العديدة ما رواه أبو ذر الغفاري ؓ في رواية طويلة أخرجها عنه الحاكم الحسكاني بسنده ص ١٧٧ ج ١ ط. بيروت .
- قال أبو ذر الغفاري ؓ : «أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري ابو ذر الغفاري، سمعتُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهاتين وإلا فصمتا ورأيت بهاتين وإلا فعميتا، وهو يقول:

عليّ قائد البررة قاتل الكفرة منصور من نصره ومخذول من خذله، أما إنني صليتُ مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً من الأيام صلاة الظهر، فسأل سائلٌ في المسجد، فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم اشهد أنني سألتُ في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلم يعطني أحدٌ شيئاً. وكان عليّ عليه السلام راکعاً فأوماً إليه بخنصره اليمنى وكان يتختم فيها، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبي (ص) فلما فرغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من صلواته، رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إن أخي موسى سألک، فقال: «رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري، وأشركه في أمري» فانزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، اللهم وأنا محمد نبيك و صفيك. اللهم فاشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي أشدد به أزري، قال: فوالله ما استتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكلام حتى نزل عليه جبرئيل من عند الله، وقال: يا محمد هنيئاً ما وهب لك في أخيك. قال صلى الله عليه وآله وسلم: وما ذاك يا جبرئيل؟

قال: أمر الله أمتك بموالاته إلى يوم القيامة. وأنزل عليك: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راکعون) ﴿﴾.

وهذه الرواية جاءت بألفاظ متعددة تقتصر في هذا المقام بهذه الرواية فإنها كافية لبيان المطلب.

وهذا من الفضائل التي لم يشارك بها أحد أمير المؤمنين، فلم نجد أحداً في التاريخ ادعى إعطاء الزكاة وهو راع، وفي هذا حجة كافية ودلالة واضحة على أن أمير المؤمنين هو المقصود لا غير .

وقد يحاول البعض التشكيك في هذه الآية ونسبتها لأمر المؤمنين متدرجاً لذلك بمجج فارغة لا معنى لها. فتجد الأوسي مثلاً يصرف معنى الركوع إلى غير معناه الظاهر، فيقول: المقصود منه الخشوع، وهذا تأويل غير مقبول، لأنه لا توجد قرينه تصرف المعنى الحقيقي الظاهر في الآية - وهو الركوع ذو الحركة المعهودة - وقد حدث لي ذات يوم، وأنا أناقش مجموعة من زملائي في الجامعة بخصوص هذه الآية، فبعدها أثبت لهم أنها نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام، استشكل أحدهم قائلاً:

- إذا أثبت نزولها في علي فقد أثبت له بذلك منقصه.

- قلت له: كيف ذلك؟

- قال: إن ذلك دلالة على عدم خشوعه في الصلاة، وإلا كيف سمع السائل وكيف أجابه؟ والمعروف أن العباد والأتقياء لا يحسون بمن حولهم في حالة توجههم إلى الله.

- قلت: كلامك لا وجه له، بدلالة نفس الآية، إن الصلاة لله والخضوع والخشوع له، والله سبحانه أخبرنا بقبول هذه الصلاة بل أثبت بها إمامة وولاية لصاحبها، ومقام المدح واضح في السياق، فسواء كان المتصدق عالياً أو غيره فالحالة سواء، فإذا كان عندك إشكال على خشوع علي فبالأولى أن يكون علي القرآن.

وفي الواقع إن هذه الآية أعلى إحصاءاً من تشكيكات المشككين، فهي واضحة الدلالة في ولاية أمير المؤمنين، مع العلم أن إثبات ولاية أمير المؤمنين من أوضح الأمور في القرآن. وكنت أقول هذا الكلام لبعض الأصدقاء فانبرى أحدهم قائلاً: أذكر لنا آية تبين مدعاك.

قلتُ: قبل ذلك نرى ماذا قال رسول الله (ص) في علي (ع)، فقد روى البخاري في صحيحه أن رسول الله (ص) قال لعلي:

«أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^(١).

فيظهر من ذلك أن كل ما لهارون لعلي (ع)، فله الإمامة والخلافة والوزارة وغير ذلك إلا النبوة، كما كان لهارون.

فاستنفروا جميعاً :

من أين لك هذا؟!.. قلت: مهلاً ماهي مكانة هارون من موسى؟ أולם يقل موسى ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري﴾.. قالوا: لم نسمع بذلك لعل الآية ليست بهذه الطريقة..! فعرفتُ منهم العصبية والجدل، قلت وأنا متحير في أمرهم: إن هذا امرٌ واضح لم ينكره أحد.

قال أحدهم: لماذا المخاصمة وهذا القرآن أمامك.. أخرج لنا الآية إن كنت صادقاً..!! وهنا اضطرب حالي، لأنني كنت ناسياً تماماً في أي سورة وفي أي جزء، وبعد برهة من الزمن تشجعت وقلت في سري: >اللهم صل على محمد وآل محمد< وفتحت المصحف بطريقة عشوائية، فأول ما وقع عليه بصري كانت هذه الآية ﴿رب اشرح لي صدري... واجعل لي وزيراً من أهلي﴾.

فحنقنتي العبرة وجرت دموعي على خدي، ولم أستطع قراءة الآية من شدة الدهشة، فسلمتهم المصحف مفتوحاً وأشرت لهم إلى الآية، فبهتوا جميعاً لشدة المفاجأة.

(١) البخاري، كتاب المناقب، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة.

❖ دلالة الآية (إنما وليكم الله...) على ولاية أمير المؤمنين.

وبعدما ثبت في البحث الأول أن الآية نزلت في الإمام علي عليه السلام،
فيكون معناها (إنما وليكم الله ورسوله وعلي بن أبي طالب)..
ولا يستشكل أحد، كيف خاطب الله الفرد بصيغة الجمع؟!
لأنه أمرٌ جائز في لغة العرب، فيكون الجمع في هذه الآية للتعظيم،
والشواهد على ذلك كثيرة. كقوله تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله فقير ونحن
أغنياء﴾ فالقائل هو حي بن أخطب وكقوله تعالى ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي
ويقولون هو أذن﴾ التوبة ٦١. وهذه الآية نزلت في رجلٍ من المنافقين إما في
الجلال بن سيويه أو نبتل بن الحرث أو عتاب بن قشيرة، تفسير الطبري
ج ٨ ص ١٩٨.

وبعد ذلك يتعين البحث عن معنى الولي.

تمسك الشيعة بأن الولي - في هذه الآية - بمعنى الأولى بالتصرف..
فتقول: ولي أمر المسلمين أو ولي أمر السلطان، يعني الأولى بالتصرف في
أمورهم.

ولذلك قالت الشيعة بوجوب اتباع أمير المؤمنين علي عليه السلام لكونه أولى
بالتصرف في أمور المسلمين، والذي يدل على ذلك هو أن الله تعالى نفى أن
يكون لنا وليٌ غيره تعالى وغير رسوله وغير ﴿الذين آمنوا الذين يقيمون
الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ بلفظة «إنما»، ولو كان المقصود الموالاتة
في الدين، ما خصَّ بها المذكورون، لأن الموالاتة في الدين عامة للمؤمنين
جميعاً. قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ فالتخصيص
يدل على أن نوع الولاية يختلف عن ولاية المؤمنين لبعضهم البعض، فلا
يكون المراد من ﴿الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة..﴾ مجمل ومطلق
المؤمنين، وإنما تكون خاصة بعلي عليه السلام بدليل (إنما) التي تفيد التخصيص

فتنفي جملة المؤمنين وهذا بالإضافة إلى الأحاديث السابقة التي ذكرت الآية في علي بن أبي طالب عليه السلام، فالوصف الذي جاء فيها ﴿يؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ لم ينطبق على أحد ولم يدَّعه أحد غير أمير المؤمنين عليه السلام، وهو كونه أتى الزكاة وهو راكع، لأن ﴿وهم راكعون﴾ حال لـ (يؤتون الزكاة) والركوع هو الحركة المخصوصة، وصرف الركوع لغير هذا المعنى الحقيقي يكون ضرباً من التأويل من غير دليل، لأنه ليس في الآية قرينه تصرف الركوع عن معناه الحقيقي، كما ﴿وهم راكعون﴾ لا يجوز جعله عطفاً على ما تقدم لأن الصلاة قد تقدمت. والصلاة مشتملة على الركوع فكانت إعادة ذكر الركوع تكراراً، فوجب جعله حالاً، وهذا بالإضافة لإجماع الأمة على أن علياً عليه السلام أتى الزكاة وهو راكع فتكون الآية مخصوصة به، وقد نقل القوشجي - شارح التجريد - عن المفسرين أنهم أجمعوا على أن الآية نزلت في علي عليه السلام في حالة تصدقه بالخاتم وهو راكع، وأيضاً نقله ابن شهر آشوب في كتاب - الفضائل - حيث قال في محكي كلامه:

«اجتمعت الأمة على أن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام»^(١)، والأحاديث التي تؤيد ذلك قد بلغت حد التواتر فقد نقل السيد هاشم البحراني في كتابه - غاية المرام - من طرق أهل السنة والجماعة أربعة وعشرين حديثاً في نزولها في علي عليه السلام، ومن طرق الشيعة تسعة عشرة حديثاً.. فتأمل.

فإذا تخصصت الآية في أمير المؤمنين فلا يكون المراد من الولي، الولاية العامة أي بمعنى النصره والمحبة، إنما هي ولاية من نوع خاص فتكون أقرب إلى معنى الأروى بالتصرف. وقد قال العلامة المظفر في ذلك: دولو سلّم أن المراد الناصر فحصر الناصر بالله ورسوله وعلي لا يصح إلا بلحاظ إحدى

(١) الخاتم لوصي الخاتم ص ٣٩٢.

جهتين، الأولى : (أن نصرتهم للمؤمنين مشتملة على القيام والتصرف بأمرهم، وحينئذ يرجع إلى المعنى المطلوب). الثانية (أن تكون نصره غيرهم للمؤمنين كلا نصره بالنسبة إلى نصرتهم، وحينئذ يتم المطلوب أيضاً إذ من لوازم النصره الكاملة للمؤمنين)^(١).

فثبت بذلك أن ولاية الله ورسوله، والذين آمنوا - علي - ولاية من سنخ واحد وهي ولاية حق التصرف، والدليل على ذلك استخدام لفظة واحدة لكل المستويات، ولو لم يكن المعنى واحداً لكان في ذلك التباس مقصود، وحاشا الله أن يضل عباده، لأنه لو أراد معنى آخر لولاية المؤمنين لكان الأنسب أن تفرد ولاية أخرى للمؤمنين بالذكر رفعاً للتباس، كما في آية أخرى ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ فكرر لفظة الطاعة. وبذلك كان أمير المؤمنين جديراً أن يكون إمام المتقين وولي المؤمنين.

(٢) آية التبليغ نص صريح في الولاية :

قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس﴾.

قد نزلت هذه الآية لبيان فضل أمير المؤمنين عليه السلام في غدیر خم كما مرت الإشارة إليه في حديث زيد بن أرقم في صحيح مسلم.

كنت أفكر في البداية أن أكتفي بمجرد الإشارة لهذه الحادثة لبدايتها عند من تتبع كتب الحديث والتاريخ، ولكن أثارني كاتب سوداني - هو المهندس الصادق الأمين - وهو يرد ويتهم على الشيعة في صحيفة سودانية (آخر خبر). وقد جاء في معرض كلامه: «دو الحقيقة أن هذه الواقعة التي

(١) دلائل الصدق ج ٢ ص ٦٠.

ترويهما كُتُب الشيعة في ما يتعلق بـ (غدير خم).. وهكذا دأب علماء الشيعة على ذكر هذه (الخرافة) التي تُعد أساس المذهب الشيعي..<

وأنا لا أدري هل هذا ينم عن جهل بالحديث والتاريخ! أم عن بغض الإمام علي عليه السلام ونكران لفضائله، فهذه الحادثة واضحة لا يخلو منها كتاب تاريخي.

فكيف غابت عن هذا المهندس؟!.

والواضح أنه لم يكلف نفسه، بأن يغمض عينيه ثم يأخذ أي كتاب في الحديث أو التاريخ من كتب أهل السنة، ثم يتصفحها، فإذا لم يجدها فيحق له بعد ذلك، أن ينسبها إلى كتب الشيعة أو يسميها (خرافة).

✦ الغدير في المصادر الإسلامية:

حديث الغدير من أكثر الأحاديث تواتراً، فقد بلغ رواته من الصحابة عشرةً ومائة صحابي، وقد أحصاهم العلامة الأميني مع الكتب التي أخرجت رواياته في كتابه الغدير ج ١ ص ١٤ إلى ص ٦١، ويطول بنا المقام إذا ذكرنا أسماءهم والتصنيفات التي أخرجت أحاديثهم من كتب أهل السنة.

وبلغ رواته من التابعين أربعةً وثمانينَ (٨٤) راوٍ كما في الغدير ص ٦٢ إلى ص ٧٢، ولم يقف رواة حديث الغدير عند هذا الحد بل نُقل بالتواتر في كل طبقاته، وقد بلغ مجموع الرواة من القرن الثاني إلى القرن الرابع عشر للهجرة ٣٦٠ راوٍ، هذا غير آلاف الكتب السنية التي ذكرت هذا الحديث.

كيف يتسنى لهذا الكاتب بعد ذلك أن يقول هذه (الخرافة) الشيعية مع العلم بأن رواية الغدير بطرق الشيعة لا تبلغ نصف ما جاء بطرق السنة!

ولكن هذه مشكلة أنصاف المثقفين، يطلقون كلامهم من غير بحث أو دراية، فهؤلاء علماء السنة وثقاتهم من الأقدمين والمتأخرين يصرحون بصحة حديث الغدير، ومنهم على سبيل المثال.

(١) ابن حجر العسقلاني - شارح صحيح البخاري - يقول: «وأما حديث «من كنتُ مولاهُ فعلي مولاهُ» أخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جداً، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدھا صحاح وحسان»^(١).

وهذا الكتاب الذي أشار إليه ابن حجر هو كتاب الولاية في طرق حديث الغدير لأبي عباس أحمد بن محمد بن سعيد الهمداني الحافظ المعروف بابن عقدة المتوفي سنة ٣٣٣ وقد أكثر منه النقل ابن الأثير في أسد الغابة، وابن حجر العسقلاني، وقد ذكره العسقلاني أيضاً في كتاب «تهذيب التهذيب» ج ٧ ص ٣٣٧ بعد ذكر حديث الغدير فقال: «صححه واعتنى بجمع طرقه أبو العباس ابن عقدة. فأخرجه من حديث سبعين صحابياً أو أكثر».

وقد أشار لهذا المصنف في إثبات طرق حديث الغدير ابن تيمية بقوله: «وقد صنف أبو العباس ابن عقدة مصنفاً في جمع طرقه»^(٢).

(٢) ابن المغازلي الشافعي: بعدما يذكر حديث الولاية بسنده يقول: «هذا حديث صحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد روى حديث غدیر خم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحو مائة نفس منهم العشرة - أي المبشرين بالجنة - وهو حديث ثابت لا أعرف له علة، تفرد علي عليه السلام بهذه الفضيلة لم يشركه أحد»^(٣).

(٣) وقد أفرد أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري - صاحب التاريخ - كتاباً أخرج فيه أحاديث الغدير، وقد ذكر عنه ذلك صاحب كتاب

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج ٧ ص ٦١.

(٢) منهاج السنة ج ٤ ص ٨٦.

(٣) مناقب أمير المؤمنين ص ٢٦-٢٧.

- العمدة - بقوله: «وقد ذكر ابن جرير الطبري صاحب التاريخ خبر يوم الغدير وطرقه في خمسة وسبعين طريقاً، وأفرد له كتاباً سماه كتاب الولاية»^(١).

وقد جاء في شرح - التحفة العلوية - لمحمد بن إسماعيل الأمير: «قال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة من كنت مولاه: ألف محمد بن جرير فيه كتاباً، - قال الذهبي - وقفت عليه فاندثرت لكثرة طرقه».

وذكر كتاب ابن جرير أيضاً ابن كثير في تاريخه: «وقد رأيتُ كتاباً جُمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين»^(٢).

(٤) وخرَّجَ الحافظ. أبو سعيد مسعود بن ناصر بن أبي زيد السجستاني - المتوفي سنة ٤٧٧ - حديث الغدير في كتاب (الدراية في حديث الولاية) في (١٧) جزءاً جمع فيه طرق حديث الغدير ورواه عن (١٢٠) صحابياً.

هذا وقد ذكر الأميني في الغدير - ٢٦ - عالماً من فطاحل علماء أهل السنة، أفردوا كتباً في تخريج روايات أحاديث الغدير، فضلاً عن الكتب التي ذكرت الرواية، ونختم كلامنا هنا بما قاله ابن كثير عن الجويني: «أنه كان يتعجب ويقول: شاهدت مجلداً ببغداد في يد صحف فيه روايات هذا الخبر، مكتوبٌ عليه: المجلد الثامن والعشرون من طرق (من كنت مولاه فعلي مولاه)، ويتلوه المجلد التاسع والعشرون»^(٣).

(١) العمدة ص ٥٥.

(٢) التاريخ لابن كثير ج ١١ ص ١٤٧.

(٣) الخلاصة ج ٢ ص ٢٩٨.

✦ المصادر التي أثبتت نزولها في علي (ع) :

أما بخصوص نزول هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ..﴾
في أمير المؤمنين، فقد صرح بذلك كثيرون منهم على سبيل المثال.

(١) السيوطي في (الدر المنثور) في تفسير الآية عن ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر بأسانيدهم عن أبي سعيد قال: (نزلت على رسول الله (ص) يوم غدیرخم في علي) ونقل أيضاً عن ابن مردويه بإسناده إلى ابن مسعود قوله: (كنا نقرأ على عهد رسول الله. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ أَنْ عَلِمْنَا مَا مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١)).

(٢) روى الواحدي في أسباب النزول عن أبي سعيد قال: (نزلت يوم غدیرخم في علي)^(٢).

(٣) الحافظ أبو بكر الفارسي، روى في كتابه ما نُزِّلَ من القرآن في أمير المؤمنين بالإسناد عن ابن عباس أن الآية نزلت في غدیرخم في علي بن أبي طالب.

(٤) الحافظ أبو نعيم الأصبهاني، بسنده عن الأعمش عن عطية قال: نزلت هذه الآية على رسول الله (ص) يوم غدیرخم^(٣).

(٥) الحافظ ابن عساكر الشافعي، بإسناده عن أبي سعيد الخدري أنها نزلت يوم غدیرخم في علي بن أبي طالب^(٤).

(١) أسباب النزول.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ١٥٠.

(٣) الخصائص ص ٢٩ - فيما نُزِّلَ من القرآن في علي.

(٤) الدر المنثور ج ٢ ص ٢٩٨.

(٦) بدر الدين بن العيني الحنفى، ذكر في عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري قال: قال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين: معناه بلغ ما أنزل من ربك في فضل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه. فلما نزلت هذه الآية أخذ بيد علي وقال من كنت مولاه فعلي مولاه.

✧ نص الخطبة :

.. وعشرات غيرهم أثبتوا نزولها في علي بن أبي طالب، وتختار من بين هذه الروايات المتعددة، رواية الحافظ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري. أخرج بإسناده في كتاب - الولاية في طرق أحاديث الغدير - ما نصح: «عن زيد بن أرقم قال: لما نزل النبي صلى الله عليه وسلم بغدير خم في رجوعه من حجة الوداع وكان في وقت الضحى والحر شديد أمر بالدوحات فقمنا. ونادى الصلاة جامعة. فاجتمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال: إن الله تعالى أنزل إليَّ: ﴿بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾، وقد أمرني جبرئيل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن عليَّ بن أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي والإمام من بعدي فسألت جبرئيل أن يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذنين لي واللائمين بكثرة ملازمتي لعلي وشدة إقبالي عليه حتى سموني أذنًا، فقال تعالى ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم﴾. ولو شئت أن أسميهم وأدل عليهم لفعلت، ولكني بسترهم قد تكلمت فلم يرض الله إلا بتبليغي فيه فاعلموا معاشر الناس ذلك: فإن الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً، وفرض طاعته على كل أحد، ماض حكمه جائزاً قوله، ملعون من خالفه، مرحوم من صدقه، اسمعوا وأطيعوا، فإن الله مولاكم وعلي إمامكم، ثم الإمامة في ولده من صلبه إلى يوم القيامة، لا حلال إلا ما أحله الله

ورسوله وهم، ولا حرام إلا ما حرم الله ورسوله وهم، فما من علم إلا وقد أمضاه الله فيه ونقلته إليه فلا تضلوا عنه ولا تستنكفوا منه، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به، لن يتوب الله على أحد أنكره ولن يغفر له، حتماً على الله أن يفعل ذلك أن يعذبه عذاباً نكراً أبداً الأبد، فهو أفضل الناس بعدي، ما نُزِّلَ الرزق وبقي الخلق، ملعون من خالفه، قولي عن جبرئيل عن الله، فلتنظر نفس ما قدمت لغد.

افهموا محكم القرآن ولا تتبعوا متشابهه، ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا أخذ بيده وشاغل بعضه ومعلمكم: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وموالاته من الله عز وجل أنزله عليّ ألا وقد أديت، ألا وقد بلغت، ألا وقد أسمعت، ألا وقت أوضحت.

لا تحل إمرة المؤمنين بعدي لأحد غيره، ثم رفعه إلى السماء حتى صارت رجله مع ركة النبي صلى الله عليه وسلم وقال:

معاشر الناس هذا أخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي على من آمن بي وعلى تفسير كتاب ربي. وفي رواية: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، والعن من أنكره، واغضب على من جحد حقه، اللهم إنك أنزلت عند تبين ذلك في علي، اليوم أكملت لكم دينكم بإمامته فمن لم يأت به وبمن كان من ولدي من صلبه إلى يوم القيامة فأولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون، إن إبليس أخرج آدم عليه السلام من الجنة مع كونه صفوة الله بالحسد فلا تحسدوه فتحبط أعمالكم وتزل أقدامكم، في علي نزلت سورة والعصر إن الإنسان لفي خسر.

معاشر الناس ﴿آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل معه من قبل أن يطمس وجوهاً فتردها على أديبارهم أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾. النور من الله فيّ ثم في علي ثم في النسل منه إلى القائم المهدي.

معاشر الناس: سيكون من بعدي أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وإن الله وأنا بريثان منهم، إنهم وأنصارهم وأتباعهم في الدرك الأسفل من النار، وسيجعلونها ملكاً اغتصاباً فعندها يفرغ لكم أيها الثقلان ويرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران».

لا تحتاج هذه الخطبة إلى شرح وتوضيح، فعلى العاقل أن يتدبر. فالدلالة واضحة من هذه الخطبة في وجوب اتباع الإمام علي عليه السلام وفيها الرد الكافي على من يقول أن المقصود من «الولي» هو الناصر أو المحب، لأن القرائن المقامية والمقالية تمنع ذلك فلا يعقل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يحتجز كل هذه الجموع الهائلة في شدة الشمس، حتى يقول لهم الرسول هذا علي فأحبوه وانصروه، أي عاقل يرتأي هذا المعنى؟ وإنه بذلك، يتهم رسول الله (ص) بالعبثية، كما أن المقال يؤكد ذلك. فقول الرسول (ص): «إن علي بن أبي طالب، أخي ووصيي، وخليفتي والإمام بعدي» وقوله (ص): «فإن الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً وفرض طاعته على كل أحد..».

فأمر الولاية ليست بالأمر البسيط، فالإسلام كله يتوقف عليه.

أليس الإسلام هو التسليم؟!!

فالذي لا يسلم بالقيادة الإلهية وينصاع إليها في كل أوامرها، هل يحق لنا أن نسميه مسلماً؟!!

بالطبع لا. وإلا يكون في ذلك التناقض بعينه، فاتباع القيادات المزيفة والتسليم لها جعله القرآن في عداد الشرك.

قال تعالى: ﴿..اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله..﴾^(١) فإنهم لم يجعلوهم أصناماً وإنما أحلوا لهم ما حرم الله وحرموا لهم ما أحل الله فاتبعوهم، كذلك الذي يتمرد على القيادة الإلهية يُعد مشركاً لا محال.

(١) سورة التوبة الآية ٣١.

فالمتدبر في الآية بعين الوعي والبصيرة يكتشف ذلك جيداً، فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ فإن هذه الآية من سورة المائدة وهي آخر سور القرآن كما جاء في مستدرك الحاكم.

كما أن هذه الآية بالذات نزلت في غدیر خم كما تقدم، وهي في آخر حجة لرسول الله (ص)، فيعني ذلك أن الإسلام بالمعنى الظاهري قد كان مبلغاً من صلاة وزكاة وحج وجهاد... إلخ.

فما هو هذا الأمر الإلهي الذي يساوي عدم تبليغه عدم تبليغ الرسالة؟!

فلا بد أن يكون جوهر الإسلام وغايته، وهو التسليم للقيادة الإلهية والانصياع لأوامرها، ومن الواضح أن هذا الأمر يشكل حالة عدم رضا من الصحابة، فأغلبية ترفضه ولذلك قال رسول الله (ص) لجبرائيل في أحد الروايات بما معناه أنني قاتلتهم ثلاثة وعشرين عاماً حتى يعترفوا بنبوتي فكيف يسلموا بإمامة علي عليه السلام؛ بلحظة واحدة. ومن هنا جاء الخطاب القرآني: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾.

وبعد أن بلغ الرسول (ص) هذا الأمر الذي يساوي كل الرسالة نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وقد صرح بنزول هذه الآية في علي كثير من المحدثين، وذكر منهم الأميني في كتابه الغدير ج ١ ص ٢٣٠ إلى ص ٢٣٧ ستة عشر مصدراً، فإتمام الدين وإكمال النعمة بولاية علي عليه السلام. فمن هنا يمكن أن نختلص كل الروايات التي تقول: إن قبول الأعمال من العبد منوطة بولاية أهل البيت عليهم السلام، لأنهم الطريق الذي أمرنا الله تعالى باتباعه، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، ومودتهم لا تعني مجرد الحب لهم وإنما موالاتهم واتباعهم وأخذ معالم الدين عنهم.

جاء في حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: «إن أول ما يسأل عنه العبد إذا وقف بين يدي الله جل جلاله عن الصلوات المفروضة وعن الزكاة المفروضة وعن الصيام المفروض وعن الحج المفروض وعن ولايتنا أهل البيت، فإن أقر بولايتنا ثم مات عليها قبلت منه صلاته وصومه وزكاته وحجه، وإن لم يقر بولايتنا بين يدي الله جل جلاله لم يقبل الله عز وجل منه شيئاً من أعماله»^(١).

وعن علي عليه السلام كان يقول: «لا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين، رجل يزداد كل يوم إحساناً ورجل يتدارك سيئته بالتوبة! وأنى له بالتوبة؟ والله لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبل الله منه إلا بولايتنا أهل البيت».

وعن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «معاشر الناس الي إذا ذُكر آل إبراهيم عليهم السلام تهللت وجوهكم وإذا ذُكر آل محمد كأنما يفتقأ في وجوهكم حب الرمان؟ فوالذي بعثني بالحق نبياً لو جاء أحدكم يوم القيامة بأعمال كأمثال الجبل ولم يجئ بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام لأكبّه الله عز وجل في النار»^(٢) ... وغير ذلك من الروايات.



(١) بحار الأنوار ج ٢٧ ص ١٦٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٠.

الفصل السادس

الشورى والخلافة الإسلامية

- أولاً - بحث في دلالة آيات الشورى
- ثانياً - الشورى في الواقع العملي
- ثالثاً - الصحابة وآية الانقلاب

أولاً: بحث في دلالة آيات الشورى

اختلف المسلمون في كيفية تعيين الإمام والخليفة اختلافاً شديداً قديماً وحديثاً، وقد تجسد الخلاف قديماً على الواقع العملي والتطبيق الخارجي أكثر منه على الصعيد النظري والفكري، وأما حديثاً فأنحصر الخلاف في الناحية الفكرية، فلا يتعدى المشادات الكلامية والبراهين النظرية.

ومساهمة منا في حل هذا النزاع أحيينا أن ناقش دلالة آيات الشورى في القرآن التي يعتمد عليها أهل السنة في نظرتهم، ومن ثم التطرق إلى الشورى في الواقع العملي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما حدث بعده من انقلاب .

قال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ آل عمران/ ١٥٩ .

وقال تعالى: ﴿فإذا أرادوا فصلاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تعرضوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ البقرة/ ٢٣٣ .

وقال تعالى: ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلوة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾. الشورى/ ٣٨ .

يعتمد أهل السنة في نظرية الخلافة على مبدأ الشورى ويرون أن خلافة المسلمين لا تكون إلا بالشورى، وبذلك صححوا خلافة أبي بكر بانتخابه بالشورى في سقيفة بني ساعدة، وترى النظرية أو الخط الثاني وهم الشيعة ضرورة التعيين والتنصيب الإلهي للخليفة حيث لا يمكن ضمان اختيار الأصلح في النظرية الأولى وذلك لأن قضية الشورى تتأثر بانفعالات الناس وعواطفهم وتوجهاتهم الفكرية والنفسية وانتماءاتهم العقائدية والاجتماعية والسياسية، كما تحتاج إلى مستويات من النزاهة والموضوعية والتحرر من المؤثرات الشعورية واللاشعورية، ولذلك يقولون لا بد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وصية واضحة في شأن الخلافة، وادعت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نص على خليفته بل خلفائه من بعده، وعلى ذلك قالوا بخلافة علي بن أبي طالب (ع) وأن الشورى التي نزل بها القرآن إنما جاءت في بعض المواضيع التي تخص ممارسة الحكم لا تعيين الحاكم الذي هو منصب إلهي.

وبما أنه انحصر الخلاف بين هذين الخطين؛ فإذا ثبت بطلان أحدهما ثبت صحة الآخر، مما يترتب عليه صحة أو بطلان خلافة الخليفة سواء كان أبا بكر ومن خلفه من خلفاء أو علياً (ع) ومن خلفه من أوصياء.

وقد أثبتنا بما لا يدع مجالاً للشك في الفصول السابقة صحة نظرية القائلين بالنص وأحقية أهل البيت في الخلافة الإسلامية، بل هو حق محصور فيهم لا يتعدى إلى غيرهم، ولكن من باب إتمام الفائدة وتبيان الحقائق أكثر فأكثر كان لا بد من نقاش نظرية الشورى بما هي نظرية مجردة وصلاحتها في انتقاء خليفة المسلمين.

لقد اعتمد أهل الشورى اعتماداً عظيماً في إقامة نظريتهم على الآيات القرآنية التي توجنا بها صدر البحث فهي العمدة في الباب.

فإذا رجعنا إلى الآيات يتضح لنا أن الشورى الإسلامية تتصور على نحوين:

آ - إما أن يكون موضوع الشورى الذي يراد الاستشارة فيه أمر جزئياً في نطاق ضيق ومحدود كموضوع فطام الطفل الرضيع كما تشير إليه الآية ﴿فإن أراداً فصلاً...﴾ وهذا النوع من الشورى ليس محل النزاع ولذا نغض الطرف عن مناقشته.

ب - وإما أن يكون موضوع الشورى الذي يراد الاستشارة فيه أمراً كلياً وعماماً يهم كل المسلمين كإعلان الحرب على العدو أو انتخاب خليفة للمسلمين... الخ

ولا شك ولا ريب في أنه لا بد من الرجوع في مثل هذا الموضوع إلى الرسول (ص)، إذ لا يعقل أن تتم هذه الشورى وليس للرسول (ص) فيها رأي، بل من القبيح عرفاً والعصيان شرعاً أن تتم الشورى بدون الرجوع إليه أو الرجوع إلى من يحل محله وهو ولي الأمر ﴿ولو ردهو إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ النساء/ ٨٣.

وهذا النوع من الشورى حسب الآية ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل..﴾ لها ثلاثة أركان:

١ - ضرورة وجود مستشارين حتى تتم الاستشارة وهذا يدل عليه لفظة (هم) في (وشاورهم).

٢ - وجود مادة التشاور وموضوعها لكي تقوم هذه الشورى.

٣ - ولي يدير الشورى، والأمر في النهاية منوط برأيه، وهذا يدل عليه ضمير تاء المخاطب في (فإذا عزمت فتوكل..) ولا إشكال أنه إذا كان الموضوع أمراً كلياً يخص كل المسلمين فإن الذي له حق الحسم إنما هو ولي أمر المسلمين.

ولا يمكن للشورى الشرعية بالصيغة الإسلامية أن تتم بانهدام ركن من الأركان الثلاثة، لأنه إما أن يكون ولي الأمر موجوداً والمستشار موجوداً ولا يكون هناك موضوع للشورى فلا تعقد هناك المشاورة أصلاً إذ لا أمر هناك حتى يتناقش ويتشاور فيه، وإما أن يكون ولي الأمر موجوداً والموضوع موجوداً ولكن الجماعة المستشارة غير موجودة وهنا يتغير العنوان من الشورى إلى النص أو الأمر.

وإما أن تكون الجماعة المستشارة موجودة وموضوع الشورى موجوداً وولي الأمر غير موجود وهنا لا تقع الشورى بصيغتها الشرعية التي قررها الله في كتابه حين فرض على الشورى قيماً يرجع الأمر إليه، فحين يدي كل واحد منهم برأيه أين يكون ملجأ الرأي؟!.

ولا يمكن بهذه الشورى غير الشرعية الخروج بقرارات شرعية يلزم المسلمون بها إذ أنها مخالفة وبصراحة للآية التي أكدت أن الأمر في النهاية منوط بولي الأمر ﴿فإذا عزم فتوكل على الله﴾.

ويمكن أن يستشكل ويقال: إن هذه الآية ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزم فتوكل...﴾ هي مختصة برسول الله (ص) فلا يلزم وجود ولي الأمر في الشورى ولا مانع من انعقاد الشورى دون ولي الأمر فيها بدلالة الآية (وأمرهم شورى بينهم) إذ ظاهر الآية ليس فيها ولي أمر يعزم ويتوكل كما في الآية الأولى.

ويدفع هذا الإشكال بما يلي:

١ - إن كل ما ثبت لرسول الله (ص) من حق الطاعة يثبت لولي الأمر بدليل قوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ وبذلك يتضح أن ذات طاعة ولي الأمر هي طاعة رسول الله (ص) لوجود العطف على سبيل الجزم، كما استخدم لفظاً واحداً لكليهما ﴿أطيعوا الرسول وأولي

الأمر منكم.. ﴿فلو أنه استخدم لفظة أطيعوا مرة ثالثة لأولي الأمر لصح القول أن هناك اختلافاً في الطاعتين.

٢ - إن كيفية الشورى التي قررها الله في الأمور الكلية التي تخص جميع المسلمين هي كيفية واحدة ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل...﴾ والإتيان بكيفية أخرى يستلزم الدليل الشرعي لما يترتب عليها من أمور شرعية كوجوب الطاعة لما تخرج به هذه الشورى والاستدلال بآية ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ على كيفية ثانية من الشورى غير تامة.

إذ يرد عليها بأن هذه الآية - وبلا إشكال وخلاف - نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى أنها نزلت وهو حي بين ظهراني المسلمين، والعقل والشرع يمنعان أن يتشاور المسلمون على أمر كلي يخص المسلمين دون وجود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بينهم ورجوعهم إليه، فهذا قبيح وبعيد جداً، مما يدل أنه لا بد أن يكون معهم وأن الضمير هم في (وأمرهم شورى...) شامل لرسول الله (ص)، وبالإضافة إلى ذلك فإن صيغ الآيات تتحدث عن صفات المؤمنين الفائزين ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾ الشورى/٣٦-٣٧.

ومما لا شك فيه أن أفضل مصداق للمؤمنين هو رسول الله (ص) فلا ريب أن رسول الله (ص) أحد هؤلاء، وإذا ثبت أن رسول الله (ص) ضمن هذه الشورى علمت أن أمر الشورى في الآية راجع إلى رسول الله (ص) ولا تتم إلا بعزيمته (فإذا عزمت فتوكل..) وعليه فإن هذه الشورى هي ذاتها الكيفية الأولى، وكل ما هنالك أن آية ﴿وأمرهم شورى بينهم..﴾ بجملة

وعامة وأن آية ﴿وشاورهم في الأمر وإذا عزمت فتوكل..﴾ هي شارحة ومفصلة لها.

بعد أن بينت هذا أضيف إليه على الفور أننا نصل إلى نتيجة محصورة في ما لو التزمنا بأن آية (وشاورهم في الأمر..) مختصة برسول الله دون أولي الأمر، لأن الشورى عندئذ لا تتم إلا بوجود رسول الله (ص) فإذا مات فلا شورى بسبب عدم وجود ركن أساسي فيها وهو رسول الله (ص)، أما إذا لم نلتزم باقتصار الآية في رسول الله (ص) وحده اعتبرنا أنها تتعدى إلى أولي الأمر، فتكون الشورى موجودة وشرعية بشرط وجود ولي الأمر فيها وله ما لرسول الله (ص) من حقوق في الشورى لأنه يحل محله، فيكون معنى (وأمرهم شورى بينهم) أي لا يعقدون أمراً دون مشاورة الرسول (ص) وأولي الأمر فيما يحتاجون إليه من أمر دينهم كما قال تعالى ﴿ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم﴾.

وعلى كلا الرأيين تقع نظرية الشورى في تنصيب الخليفة بمأزق ومحدور يستلزم بطلانها، فعلى الرأي الأول: وهو أن آية (وشاورهم في الأمر..) مختصة برسول الله (ص)، فمن المعلوم أن الشورى التي انعقدت لتنصيب الخليفة الأول إنما كانت بعد وفاة رسول الله (ص) وبالتالي هي شورى غير شرعية بحكم الإسلام وبمنظور الرأي القرآني، وكل ما ينتج عنها غير شرعي، ومنها تنصيب الخليفة الأول كما دلت كتب التاريخ والروايات على كيفية تنصيبه فيما يسمونه سقيفة بني ساعدة، وقد ذكرها الذهبي في تاريخه، كما جاءت هذه الحادثة برواية عمر بن الخطاب في كتاب صحيح البخاري كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا، كما ذكرها الطبري في تاريخه عند ذكره لحوادث سنة ١١هـ، ج ٢. وابن الأثير، وابن قتيبة في تاريخ الخلفاء، ج ١ وغيرها من مصادر التاريخ المتعددة.

وعلى الرأي الثاني، أي أن آية (وشاورهم..) منعقدة برسول الله (ص) أو من يخل محله وهو ولي الأمر، فإن الشورى الشرعية لا تتعقد إلا بولي الأمر وولي الأمر لا ينصب إلا بالشورى الشرعية فهذا دور والدور باطل، إذ لا يمكن انعقاد الشورى الشرعية إلا بعد وجود ولي الأمر ولا يمكن أن يوجد ولي الأمر إلا بعد انعقاد الشورى الشرعية، وهذا الأمر متوقف على نفسه فلا يمكن انعقاد الشورى الشرعية إلى أبد الأبدین، اللهم إلا أن يقال أن هناك ولي أمر معين من قبل رسول الله (ص) سبق وجوده الشورى، وهذا تسليم بنظرية النص التي تدعيها مدرسة أهل البيت أو الخط الثاني.

وربما يقال أنه ليس من الضروري وجود ولي أمر في الشورى بل يكفي فقط وجود صاحب الشورى أي المشاور ولا يشترط فيه أن يكون ولياً، وإن استشكلت أن ضمير عزمت يدل على حق المشاور في الحسم مما يدل على أنه ولي في أمر الشورى فربما أمكن رد الإشكال إن عزمت بمعنى عزم على ما وصلت إليه الشورى في تنفيذ أمرها.

وفيه: إن الظاهر غير ذلك حيث الأظهر من الآية هو ثبوت حق الحسم بالنسبة إليه، وبمعنى آخر إن الكلام يستقيم فيما لو كان رأي المستشارين واحداً ولكن إذا اختلفت آراء المستشارين فكيف ينحسم أمر الشورى؟

فإن قال صاحب الإشكال بالأكثرية فأين الدليل؟ بل إن الله تعالى ذم الأكثرية في كثير من الآيات ﴿.. أكثر من في الأرض يضلونك﴾، بل إن قوله هذا يخالف صريح الآية التي توكل أمر العزم إلى المشاور عند تردد الآراء، فإن سلمنا بذلك فقد خرج من صفة المشاور إلى صفة الولي على هذه الشورى، وحتى لو اتفقت آراء المشاورين على رأي فهو له حق العزم وعدمه، نعم كل ما هنالك أنه لا يستطيع العزم بأمر مخالف لرأي المستشارين وهذا لا يسلبه صفة الولاية.

ومما سبق يتضح أن نظرية الشورى تقع بين محذورين.

آ - إما أن الشورى انعقدت دون رسول الله (ص) وأولي الأمر، وهذه شورى باطلة غير شرعية، والقول الذي يقول بإمكانية الشورى من دون الرسول (ص) وأولي الأمر بحاجة إلى دليل شرعي ولا دليل عليها.

ب - وإما أن الشورى تمت بوجود ولي أمر يرجعون إليه، وهذا يتصور على وجوه:

١ - إما أن يكون ولي الأمر هذا نصب نفسه بنفسه لولاية أمر المسلمين، فهذا سلوك لا مسوغ له شرعاً، وهو مصادرة غير مشروعة لحقوق المسلمين، فكيف تجب طاعته شرعاً على جماعة المسلمين إذا عزم على أمر بعد الشورى؟

٢ - وإما أن تكون هناك جماعة صغيرة ولته أمر المسلمين فنقع في نفس المحذورين اللذين تكلمنا عنهما، إذ كيف ولوه؟ فيقع على هذه الصورة ما وقع على نظرية الشورى من إشكالات إضافة إلى مشروعية التساؤل ما هو المسوغ الشرعي لطاعة هؤلاء وأين الدليل؟!.

٣ - أن يكون الله ورسوله نص عليه ونصبه لولاية الأمر فلا حاجة حينها للشورى إذ لا يمكن مخالفة الله ورسوله، وهذا الرأي عينه نظرية النص فانتفت الشورى، وعلى أثرها انتفت وبطلت خلافة الأول.

وبهذا يتضح جلياً بطلان نظرية الشورى في تعيين الخلافة من كل الوجوه، وينبغي صرف موضوع الشورى في الآيات القرآنية إلى وجوه غير تنصيب ولي أمر المسلمين، كالاتشارة في أساليب الحكم والحرب.. الخ. كما هو سياق الآية (وشاورهم).

ولم يبقَ لهم باب، اللهم إلا أن يدَّعوا أن الله تعالى ورسوله (ص) نصا على خلافة الأول، وهذا ما لم يدَّعه أبو بكر نفسه إذ لو كان لاحتج به على الأنصار في سقيفة بني ساعدة.

ومما يتضح أيضاً من آية الشورى أن الله لم يأمنهم على أساليب الحرب التي لم تخرج الاستشارة من إطارها كما يستفاد من سياق الآية وكما بينته الروايات التي توضح استشارة الرسول لأصحابه في الحرب، حتى أناط أمر الشورى برسول الله (ص) فكيف يأمنهم على أمر أكبر وهو استخلاف خليفة لرسول الله (ص)، فإذا لم تأمن إنساناً في إدارة مائة دينار حتى تجعل له وصياً ومرشداً، فكيف تأمنه على ألف دينار. إن هذا قبيح في حق الإنسان العالم، وهو أشد قبحاً في حق الله تعالى ورسوله (ص).

ثم كيف يعقل أن الله يوكل الأمر إلى الأمة في اختيار خليفتها، والله ورسوله قد أنذرا بوقوع انقلاب مباشر بعد وفاة رسول الله (ص) ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾؟ وإذا تأملت في الآيات يتضح لك أن المخاطبين هم من المسلمين إذ لا معنى لانقلاب الكافر ولا يمكن حملها على مسيئة الكذاب لأن انقلابه كان على عهد رسول الله (ص).

وكيف يعقل أن يترك الله ورسوله الأمر سدى بين المسلمين وهو يعلم وقوع الفتن بينهم دون تعيين راع ووال يرجعون إليه، والتاريخ خير شاهد على ذلك حيث كان فقدان ولي الأمر سبب الفتن التي حدثت بين المسلمين حيث امتد الانحراف حتى تأمر على المسلمين فساقهم وفسادهم ومن لم يكن

له حياة ولا خلق ولا دين. ولكي تزداد يقيناً ارجع بعقارب ساعتك عبر مصادر التاريخ ١٤ قرناً وتوقف قليلاً عند الأمويين والعباسيين الذين تسلطوا على رقاب الناس حقبةً من الزمن، لكي تتعرف على أمرائهم وحكامهم وكيف كانوا يتجاهرون بشرب الخمر وكيف كانوا يلاعبون الكلاب والقروء بعدما يكسونها من صافي الحرير والذهب، وغير ذلك من فضائح الحكام التي يستحي القلم أن يخطها بين السطور.

وهذا مما يدل على مساوئ الاختيار، وعقم النظرية من أساسها، لأن من نختاره اليوم قد ننقم عليه غداً، ثم لا نقدر على عزله بعد توليته، وقد حاول المسلمون جهدهم عزل عثمان فأبى قائلاً: «لا أنزع قميصاً قمصنيه الله».

وبعدما أثبتنا بُعد الدليلين اللذين استدلت بهما الطائفة الأولى، التي اعتمدت الشورى كمبدأ سياسي في اختيار الخليفة لإدارة أمور المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتبين لنا بعدهما عن مقام القيادة والخلافة.

نرجع ونغض الطرف عن هذا، ونغمض أعيننا ونتجاهل إلى حد الغفلة، ونسلم بحجة هذين الدليلين في موضوع الخلافة والقيادة، فهل يشفي ذلك التجاهل والتغافل والتسليم سقم هذه النظرية التي يواجهها (الغموض التشريعي) في كل ما يتعلق بالأطر والأساليب التنفيذية لمضمونها؟ إن هذين الدليلين لا يقومان انحاءً ولا يسدان ثغرة من متطلبات هذه النظرية العميقة المتعددة الأطراف، حيث تحتاج إلى تحديد وتفصيل لمعناها، كما يفقد النصان المشار إليهما موازين الشورى ومقاييسها وكيفية ضبطها، إضافة إلى أنها تحتاج في تطبيقها إلى أدوات تنفيذية ووسائل تطبيقية.

ونحن لا نجد في الأحاديث والروايات المأثورة ولا في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد طرح هذا المبدأ وألزم الأمة بتنفيذه، ولو كان قد فعل ذلك لوجدنا رسول الله (ص) قد حدد معالمها الواضحة أو أن يكون مارس إعداداً فكرياً وروحياً وسياسياً للتعاطي مع هذا المبدأ.

وعلى الأقل يكون قد هيا نماذج متعددة مؤهلة لتولي زعامة التجربة وقيادتها والإشراف على التشريع وتنفيذه، وكما قدمنا نخلو الأدلة عن ملاءمة هذه الفراغات. فأين تذهبون وكيف تحكمون!



ثانياً: الشورى في الواقع العملي

الشورى وسقيفة بني ساعدة :

ذكر المؤرخون أن خلافة أبي بكر كانت عن طريق ترشيحه في سقيفة بني ساعدة، وهي في الواقع الشرعية الأساسية التي يرتكز عليها أبو بكر في خلافته للمسلمين، فلا يمكن أن يلتزم المسلم بخلافته إلا إذا التزم وآمن بالسقيفة واعتبرها الكيفية الوحيدة التي يمكن من خلالها تعيين خليفة المسلمين، وبما أننا في البحث السابق أثبتنا بطلان نظرية الشورى كوسيلة لتنصيب خليفة المسلمين، أحببنا في هذا المقام أن نستعرض حادثة السقيفة، التي هي التطبيق الخارجي لنظرية الشورى حتى نستكشف مدى نزاهتها، ومن ثم يترتب على ذلك الالتزام بها أو عدم الالتزام.

- السقيفة في تاريخ الطبري:

ذكر الطبري هذه الحادثة بشكل مفصل في تاريخه ج ٢ مطبوعة الاستقلال بالقاهرة سنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م، نقل منه مختصراً على قدر الحاجة من ص ٤٥٥ - ص ٤٦٠، كالآتي:

اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وتركوا جنازة الرسول يغسله أهله، فقالوا: نولي هذا الأمر بعد محمد، سعد بن عبادة. وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض.. فحمد الله وأثنى عليه، وذكر سابقة الأنصار في

الدين وفضيلتهم في الإسلام، وإعزازهم للنبي وأصحابه وجهادهم لأعدائه، حتى استقامت العرب وتوفي الرسول وهو عنهم راض، وقال: استبشروا بهذا الأمر دون الناس فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو ما رأيت، نوليك هذا الأمر. ثم إنهم تراءوا الكلام بينهم، فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا: نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلام تنازعونا هذا الأمر بعده؟ فقالت طائفة منهم: فإننا نقول إذا: منا أمير ومنكم أمير.

فقال سعد بن عبادة: هذا أول الوهن.

سمع أبو بكر وعمر بأمر الأنصار، فأسرعا إلى السقيفة مع أبي عبيدة بن الجراح وانهزوا معهم أسيد بن حضير وعويم بن ساعدة وعاصم بن عدي من بني العجلان. تكلم أبو بكر - بعد أن منع عمر من الكلام - فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر سابقة المهاجرين في التصديق بالرسول دون جميع العرب، وقال: (فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم) ثم ذكر فضيلة الأنصار، وقال: (فليس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء).

فقام الحباب بن المنذر وقال: يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم وفي ظللكم، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وينتقص عليكم أمركم. فإن أبي هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع اثنان في قرن واحد والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، وولي أمورهم منها، ولنا على من آمن الحجة

الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدَلِّ بياطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة؟!
فقام الحباب بن المنذر وقال: يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموهم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من لم يكن يدين به، أنا جُذيلُها المُحَكِّكُ وعُذيقُها المُرَجَّبُ. أما والله لو شئتم لنُعِيدنها جُدْعَةً.

قال عمر: إذا يقتلك الله.

قال: بل إياك يقتل.

فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار، إنكم كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغير.

فقام بشير بن سعد الخزرجي أبو النعمان بن بشير فقال: يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنّا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً فإن الله ولي النعمة وأولى، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم.

فقال أبو بكر: هذا عمر، وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا.

فقالا: والله لا نتولى هذا الأمر عليك... الخ

وقام عبد الرحمن بن عوف، وتكلّم فقال: يا معشر الأنصار إنكم وإن كنتم على فضل، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي، وقام المنذر ابن الأرقم فقال: ما ندفع فضل من ذكرت، وإن فيهم لرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد - يعني علي بن أبي طالب (ع).

(فقلت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلا علياً).

(قال عمر: فكثرت اللفظ وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف

فقلت: ابسط يدك لأبيك، فلما ذهب لبياعه، سبقهما إليه بشير بن سعد فباعه، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير بن سعد عَقَّت عقاق! أنفست على ابن عمك الإمارة؟

فقال: لا والله، ولكني كرهت أن أنزع قوماً حقاً جعله الله لهم ولما

رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعوا إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض - وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء -: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة، لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر.

فقاموا إليه فبايعوه، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا اجتمعوا له من أمر... فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطأون سعد بن عبادة.

فقال أناس من أصحاب سعد: اتقوا سعداً لا تطأوه.

فقال عمر: اقتلوه، قتله الله.

ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضوك.

فأخذ قيس ابن سعد بلحية عمر فقال: والله لو حصصت منه شعرة ما

رجعت وفيك واضحة.

فقال أبو بكر: مهلاً، يا عمر! الرفق هاهنا أبلغ.

فأعرض عنه عمر.

وقال سعد: أما والله، لو أن بي قوة، أقوى بها على النهوض لأسمعت

مني في أقطارها وسككها زئيراً يُحجرُك وأصحابك، أما والله إذا لألحقنك

بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع. احملوني من هذا المكان، فحملوه فأدخلوه

في داره...

لا تحتاج هذه الحادثة إلى شرح وتعليق فهي بنفسها تكشف عن كيفية تولي أبي بكر للخلافة.. وأنها بعيدة كل البعد عن الشورى، فالشورى لا تنسجم مع هذا الريب المكاني، حيث تقع سقيفة بني ساعدة في مزرعة خارج المدينة، وكان مسجد رسول الله (ص) أولى بانعقاد هذا الأمر فيه، فإنه محل اجتماع المسلمين وموضع المشاورة في أمور الدنيا والدين، هذا بالإضافة إلى الريب الزمني حيث ما زال رسول الله (ص) مسجياً لم يُورَى جسده الطاهر في التراب، فكيف سمحت لهم نفوسهم أن يتركوه في هذه الحال ليتنازعوا في أمر الخلافة، وأقطاب الصحابة وأعاضهم مشغولون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فهل هناك عاقل يسمي هذا الأمر شورى!؟

وفي الواقع إن القوم لم يبحثوا عن الخلافة الإسلامية الرشيدة التي عن طريقها تصان وحدة المسلمين وكيونتهم، فكلماتهم كاشفة عن هذا الأمر. فقول سعد: استبدوا بهذا الأمر دون الناس، أجابوه: أن قد وفقت في الرأي وأصبت في القول، ولن نعدوا ما رأيت.

وقول عمر: من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته.

وقول الحباب: املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقاله هذا وأصحابه فيذهب بنصيبكم من هذا الأمر.

... فهذه الكلمات كاشفة عن نفسية القوم، فهم لا يريدون إلا سلطةً وسلطاناً.

بالإضافة للكلمات الحادة التي وقعت بين الصحابة الذين تعب رسول الله (ص) ثلاثة وعشرين عاماً في تربيتهم، فمثلاً قول عمر للحباب: قتلك الله وقول الحباب: بل إياك يقتل، أو قول عمر لسعد: اقتلوه قتله الله. وقوله: لقد هممتُ أن أطأك حتى تنذر عضوك، أو قول قيس بن سعد لعمر وهو ماسك بلحيته: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة.

فمثل هذه الكلمات العنيفة التي تخرج في هذا المكان الانتخابي الحساس إلى حد التهديد بالضرب والدعوة للقتل إنما تدل على تلك النفوس المليئة بالحقد والمشبعة بالعداء والكراهية لبعضها البعض... فكيف لنا أن نقبل مشورة مثل هؤلاء - إن صحت الشورى -.

ثم انظر إلى كلماتهم واحتجاجاتهم على بعضهم البعض، فهي احتجاجات واهية بعيدة عن الصواب، فاحتجاج عمر مثلاً - وهو أقوى الاحتجاجات -: «لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبهها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم، وولي أمرهم منهم». فإذا كان العرب لا يرضون بإمارة من هو بعيد عن النبي، فبالأولى أن ترضى بإمارة من هو أقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو علي بن أبي طالب عليه السلام، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «احتجوا بالشجرة وتركوا الثمرة»^(١).

وإذا كانت العرب لا ترضى بإمارة علي عليه السلام فبالأولى أن لا ترضى بإمارة رجل من قبيلة تيم، فإذا كانت هذه حججهم فلعل عليه السلام الحجة البالغة. ... قال أبو بكر الجواهري في احتجاج علي عليه السلام: «وعلي يقول: (أنا عبد الله وأخو رسول الله) حتى انتهوا به إلى أبي بكر، فقيل له: بايع، فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبياعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله، فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، فأنصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم، واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم وإلّا فبؤروا بظلم وأنتم تعلمون. فقال عمر: إنك لست متروكا حتى تباع.

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٠٠.

فقال له علي: احلب له يا عمر حلباً لك شطره، اشدد له اليوم أمره ليرده عليك غداً. لا والله لا أقبل قولك ولا أتبعك^(١).

فحاولوا بعدة طرق أن يكسبوا علياً (ع)، فقد حاولوا يوماً أن يغيروا العباس فقالوا أعطوه نصيباً يكون له ولعقبه من بعده فقطعون به ناحية علي بن أبي طالب وتكون لكم حجة على علي إذا مال معكم^(٢)... وجاء في رد العباس: «فأما ما قلت إنك تجعله لي، فإن كان حقاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم فيه، وإن كان لنا فلم نرضى ببعضه دون بعض؟! وعلى رسلك فإن رسول الله من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها»^(٣).

وعندما لم ينجح هذا الأسلوب لجأوا إلى أسلوب الإكراه. قال عمر بن الخطاب: وإنه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه أن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا عنا في بيت فاطمة^(٤).

فبعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيت فاطمة، وقال له: إن أبوا فاقتلهم.

فأقبل - عمر بن الخطاب ومن معه - بقبسٍ من نار على أن يضرم عليهم الدار فلقيتهم فاطمة فقالت:

يا بن الخطاب أجتت لتحرق دارنا؟!!

قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة^(٥)

وفي أنساب الأشراف:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٢ - ٥.

(٢) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة ج١ ص١٤، تاريخ يعقوبي ج٢ ص١٢٤-١٢٥.

(٣) تاريخ يعقوبي ج٢ ص١٢٤.

(٤) مسند أحمد ج١ ص٥٥، الطبري ج٢ ص٤٦٦، ابن الأثير ج٢ ص١٢٤، ابن كثير

ج٥ ص٢٤٦.

(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ج٣ ص٦٤، وأبو الفداء ج١ ص١٥٦.

فتلقته فاطمة على الباب فقالت فاطمة:

يا ابن الخطاب أترأى محرقاً عليّ بابي؟!؟

قال نعم^(١).

وقد عدّ المؤرخون من الرجال الذين تعدوا على دار فاطمة لإحراقها:

- | | |
|-----------------------|---------------------------|
| ١ - عمر بن الخطاب | ٢ - خالد بن الوليد |
| ٣ - عبد الرحمن بن عوف | ٤ - ثابت بن قيس بن شماس |
| ٥ - زياد بن لبيد | ٦ - محمد بن مسلم |
| ٧ - زيد بن ثابت | ٨ - سلمة بن سلامة بن و غش |
| ٩ - سلمة بن أسلم | ١٠ - أسيد بن حضير |

قال اليعقوبي: فأتوا في جماعة حتى هجموا على الدار - إلى قوله وكُسر

سيفه - أي سيف علي ودخلوا الدار^(٢).

وقال الطبري: أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير

ورجال من المهاجرين، فخرج عليه الزبير مسلطاً بالسيف، فعثر فسقط

السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه^(٣).

ورأت فاطمة ما صنع بهما - أي بعلي والزبير - فقامت على باب

الحجرة وقالت: يا أبا بكر، ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله،

والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله^(٤).

ولهذا ولمنع فاطمة إرثها ومصائب أخرى، غضبت فاطمة، ووجدت

على أبي بكر فهجرته ولم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي ستة

(١) أنساب الأشراف ج ١ ص ٥٨٦، كنز العمال ج ٣ ص ١٤٠، الرياض النضرة ج ١ ص ١٦٧.

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٦.

(٣) الطبري ج ٢ ص ٤٤٣ - ٤٤٦، عبقرية عمر للعقاد ص ١٧٣.

(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٤٣، ح ٢ ص ٢ - ٥.

أشهر...! فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر^(١) - أي لم يحضر جنازتها ..

وفي رواية أنها قالت له:

والله لا دعون عليك في كل صلاة أصلها^(٢) .

ولهذا قال أبو بكر في مرض موته:

أما إنني لا آسي على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن، وددت أني تركتهن - إلى قوله: فأما الثلاث التي فعلتهن: فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء، وإن كانوا قد أغلقوه على الحرب^(٣) .

وفي اليعقوبي: وليتني لم أفتش بيت فاطمة بنت رسول الله وأدخله الرجال ولو كان أغلق على الحرب^(٤) .

وفي هذا يقول شاعر النيل حافظ ابراهيم:

وقولة لعلي قالها عمر أكرم بسماعها أعظم بملقها
حرقت دارك لا أبقي عليك بها إن لم تباع وبت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفص يفوه بها أمام فارس عدنان وحميها

ديوان حافظ ابراهيم ط. المصرية.

وقد تطور الأمر أكثر من ذلك، عندما هددوا علياً (ع) بالقتل، فقد أخرجوا علياً (ع) مكرهاً من بيته وذهبوا به إلى أبي بكر وقالوا له: بايع، فقال: إن أنا لم أفعل فمه؟

قالوا: إذن والله الذي لا إله إلا هو نضرب عنقك.

(١) البخاري ج٥ ص١٧٧، ج٤ ص٩٦.

(٢) الإمامة والسياسة ج١ ص٢٥.

(٣) الطبري ج٢ ص٦١٩، ومرجع الذهب ج١ ص٤١٤، والعقد الفريد ج٣ ص٦٩، وكنز

العمال ج٣ ص١٣٥، والإمامة والسياسة ج١ ص١٨ وتاريخ النهي ج١ ص٣٨٨.

(٤) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١١٥.

فقال: إذن تقتلون عبد الله وأخا رسول الله^(١).

فهذه الطريقة التي بدأت فيها الخلافة بالغلبة وانتهت بالإكراه والتهديد بالقتل، لا يمكن أن تكون مصداقاً لنظرية الشورى.

وعندما شعر أبو بكر وعمر بقبیح ما صنعوا، جاءوا للاعتذار من فاطمة، ولكن بعد فوات الأوان.

قالت لهم فاطمة: «أرأيتكما إن حدتكما حديثاً عن رسول الله

تعرفانه وتفعلان به؟

قالا: نعم؟

فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: (رضا فاطمة من

رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبّ فاطمة ابنتي فقد أحبني ومن

أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني)؟

قالا: نعم، سمعناه من رسول الله.

قالت: فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني

ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه.

وقالت وهي تخاطب أبا بكر: والله لأدعون الله عليك في كل صلاة

أصلها...»^(٢).

وهكذا لم يستحق أبو بكر خلافة المسلمين بالشورى، فإن الشورى

باطلة نظرياً، ولم يكن لها وجود في الواقع الخارجي، فإذا تجاوزنا وسلمنا

بأن أبا بكر أتى إلى الخلافة عن طريق الشورى، وأن الشورى هي الطريق

الوحيدة لذلك، فكيف حق له أن ينصب عمراً خليفة من بعده؟

وبذلك يكون أبو بكر وخلافته أمام محظورين:

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٩.

(٢) المصدر السابق.

الأول: أن تكون الشورى هي الطريق الذي جعله الله لتنصيب الخليفة فيكون أبو بكر عاصياً لأمر الله لمخالفته هذا الأمر وتنصيبه لعمر. الثاني: أن لا تكون الشورى أمراً إلهياً، فتكون خلافة أبي بكر غير شرعية، لأنها أتت بالشورى التي لم يأمر بها الله.

وبالتبع تكون خلافة عمر وعثمان غير شرعية، ما عدا الإمام علي (ع) فقد أجمعت الأمة جميعها على مبايعته بالخلافة بعد مقتل عثمان فضلاً عن النص على خلافته وإمامته من الله ورسوله، فإن كانت هناك شورى فهي لعلي (ع) وإن كان هناك تنصيب فهو لعلي (ع) أيضاً.. كما تواترت الأخبار في ذلك.

ولإتمام الفائدة نختم هذا البحث بهذه المناظرة:

قيل لعلي بن ميثم: لِمَ قعد علي (ع) عن قتالهم؟

قال: كما قعد هارون عن السامري وقد عبدوا العجل^(١).

كان كهارون حيث يقول: ﴿ابن أم إن القوم استضعفوني﴾ الأعراف

.١٥٠

وكنوح إذ قال: ﴿إني مغلوب فانتصر﴾ القمر ١٠.

وكلوط إذ قال: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ هود ٨٠.

وكموسى وهارون، إذ قال موسى: ﴿ربّ إني لا أملك إلا نفسي

وأخي﴾ المائدة ٢٥

وهذا المعنى قد أخذه من قول أمير المؤمنين لما اتصل به الخبر أنه لم

ينازع الأولين. فقال - عليه السلام - : لي بستة من الأنبياء أسوة أولهم خليل

الرحمن إذ قال: ﴿وأعزّت لكم وما تعبدون من دون الله﴾ مريم ٤٨.

(١) أي حرص على عدم تفريق الأمة والأعداء من حولها يتربصون بها الدوائر كما حرص

هارون على عدم تفريق بني إسرائيل ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ ٩٤

طه.

فإن قلتم: إنه اعتزلهم من غير مكروه فقد كفرتم.
وإن قلتم: إنه اعتزلهم لما رأى المكروه فالوصي أعذر.
وبلوط إذ قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.
فإن قلتم: إن لوطاً كانت له بهم قوة، فقد كفرتم، وإن قلتم: لم يكن
له بهم قوة، فالوصي أعذر.

ويوسف إذ قال: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾.
فإن قلتم: طلبَ السجنَ بغير مكروه يسخط الله، فقد كفرتم.
وإن قلتم: إنه دعى إلى ما يسخط الله فالوصي أعذر.
وبموسى إذ قال: ﴿فَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّيْتُمْ﴾ الشعراء ٢١
فإن قلتم: إنه فرّ من غير خوف فقد كفرتم.
وإن قلتم: فر منهم لسوء أرادوه به، فالوصي أعذر.
وبهارون إذ قال لأخيه: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونِي﴾.

فإن قلتم: لم يستضعفوه ولم يشرفوا على قتله فقد كفرتم.
وإن قلتم: استضعفوه وأشرفوا على قتله فلذلك سكت عنهم فالوصي
أعذر.

وبمحمد (ص) إذ هرب إلى الغار وخلفني على فراشه ووهبت مهجتي
لله.

فإن قلتم: إنه هرب من غير خوف أخافوه فقد كفرتم.
وإن قلتم: إنهم أخافوه فلم يسعه إلا الهرب إلى الغار فالوصي أعذر.
فقال الناس: صدقت يا أمير المؤمنين^(١).

(١) مناظرات في الإمامة، المناقب لابن شهرآشون ج ١ ص ٢٧٠.

ثالثاً: الصحابة وآية الانقلاب

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾ آل عمران/ ١٤٤

إن محور هذه الآية الكريمة يتحدث عن وفاة رسول الله (ص) وما يحدث بعده من انقلاب، وقد جمع هذا المحور في ثلاثة ألفاظ (وما محمد) (أفإن مات أو قُتل) (انقلبتم على أعقابكم)، للدخول في عمق هذه الآية وإلقاء الأضواء عليها بشيء من التفصيل، لا بد من طرح بعض الأسئلة المحفزة لاستخراج الفكرة ومحاولة الإجابة عليها.

لماذا لم يكتب الباري بقوله (وما محمد إلا رسول) ويعقبه مباشرة بقوله (أفإن مات أو قُتل) مع أن سياق الآية يستقيم بهذا، وإنما ذكر وبصيغة تأكيدية صفة الرسالة فيه وأنه رسول قد خلت من قبله الرسل؟

ما الفارق بين الموت والقتل، فحرف أو العاطف يفيد الافتراق بين المعطوف والمعطوف عليه فما الفرق بينهما؟ ولماذا هذا التردد من قبل الله تعالى وهو العالم بأن رسوله (ص) سيموت؟ ومن المخاطبون في قوله (انقلبتم)؟ وعلى ماذا انقلبوا؟ ما هي علاقة الانقلاب بوفاة الرسول (ص)؟

المقام مقام استقامة فلماذا استخدم لفظة (سيجزى الله الشاكرين) ولم يقل المستقيمين أو المسلمين أو المؤمنين؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة لا بد من ذكر مقدمتين هامتين:

أولاً: سبب النزول: ذكر أصحاب التفاسير أن سبب نزول هذه الآية كانت الهزيمة التي لحقت بالمسلمين بعد معركة أحد حيث أشاع المشركون أن رسول الله (ص) قتل في المعركة مما سبب حالة من الانهزام والتراجع والتشكيك عند بعض المسلمين. فأنزل الله تعالى هذه الآية معاتباً المسلمين على ذلك.

ثانياً: ما هو الأصل في الآيات؟ هل الأصل في الآيات القرآنية أنها صالحة لكل زمان إلا ما خرج بدليل؟ أم العكس؟

والمقصود بذلك أنها لو كانت صالحة لكل زمان فإننا نستطيع تعميم معنى الآية إلى غير زمان سبب نزولها، وإلا فإننا نقيّد بالسبب الذي نزلت فيه الآية، وشمولها إلى زمان غير زمانها هو الذي يحتاج إلى دليل.

اتفق علماء المسلمين سنة وشيعة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. إذ لو كان الأصل عدم جريان الآيات القرآنية في كل زمان لبطل العمل بالقرآن في الأزمنة التالية أو لتركنا معظم الآيات القرآنية في زاوية الجمود وعدم الصلاحية، وهذا لا يتماشى مع روح الإسلام ونهجه وتعاليمه وعموميته. هذا هو الدليل العقلي، ويؤيده من القرآن الكريم، جل الآيات التي تحث على التدبر والعمل بالقرآن الكريم وتوبخ على فعل العكس.

ولو سمحنا للرأي الثاني لما كان معنى لقوله (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) ﴿١﴾ إذ الآية تشير لمطلق القرآن ولم تخصصه بجزء يسير أو ببعضه بل كل الآيات نحاول أن نفهمها وننصت لها ونستخرج العبرة منها، كما أن الله أمرنا بالتدبر فيه ﴿٢﴾ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفاها ﴿٣﴾.

ويوبخ على الإيمان ببعض دون بعض ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾
﴿الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض﴾ ويقول تعالى: ﴿ولقد صرفنا
في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾ ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من
مدكر﴾ ﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾ ﴿إنا جعلناه قرآناً
عربياً لعلمكم تعقلون﴾.

فهذه الآيات تحفزنا على الالتزام بالقرآن كله لا بعضه.

وعلى كل لو التزمنا بالرأي الثاني فإن أحداً من المسلمين لا يرتضيه،
وعلى فرضه فإن الآية التي نحن بصدددها لها من الأدلة ما يثبت أنها ليست
محصورة بزمان نزولها فقط بل تمتد على حياة رسول الله (ص) وما بعده
واليك الأدلة:

إن ما شاع في معركة أحد هو قتل الرسول (ص)، والآية تتناول حالة
شيوع أو وقع موته (أفإن مات أو قتل..) ولو كانت مخصصة بزمان نزولها
فقط لقال تعالى (أفإن قتل) ولعل ذكر الموت للدلالة على أن ما وقع في
معركة أحد من انقلاب سيقع نظيره بعد ممات الرسول (ص).

والفائدة العملية لهذه المقدمة في بحثنا أننا لسنا ملزمين بدليل لتعميم
حكم آية الانقلاب إلى غير الواقعة التي نزلت فيها إذا ثبت الأصل الأول
وهو الحق كما رأيت، وعلى القول الثاني لا بد من دليل خاص لإثبات أن
الآية مخصصة بالواقعة التي من أجلها نزلت آية الانقلاب وأنها تمتد على
امتداد حياة رسول الله (ص) وما بعده، وعلى فرض صحة القول الثاني فإن
دليل سريان الآية على امتداد حياة رسول الله (ص) وبعده موجود ضمن
طيات ذات الآية، أين وكيف؟

أما أين ففي قوله تعالى (أفإن مات أو قُتِل..) وأما كيف لأن ما أُرِجف
به وشاع حول المدينة وفيها عند معركة أحد هو قتل رسول الله (ص) مما

سبب حالة الارتداد والانقلاب على الأعقاب فلو أراد الله تخصيص هذه الآية فقط بمعركة أحد لقال (أفإن قتل) ولكن شموله لحالة الموت أيضاً (أفإن مات أو قتل) موحية بشكل لا لبس فيه، أن ذات الحالة ستكرر عند وقوع موته حقيقة، وما التردد من قبل الله تعالى بحرف أو الذي يفيد الافتراق بين المعطوف والمعطوف عليه كما يجمع على ذلك أهل اللغة، وهو العالم بالغيب وكيفية موت نبيه صلى الله عليه وآله وسلم إلا لإرادته شمول الواقعتين، واقعة شيوع قتله في أحد وواقعة موته صلى الله عليه وآله وسلم ووفاته، وأما من نسب القتل إلى فعل البشر والموت إلى فعل الرب وأن قصد الله في ذكره هذا التفصيل في بطن الآية إنما هو واقعة أحد فقط، كل ما هنالك أنه قد تغير اللحاظ من فعل البشر إلى فعل الله؟ فغير دقيق إذ قال تعالى ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ فيجوز إذاً أسناد فعل القتل إليه سبحانه مع أن سياق الآية لا يساعد على هذا التفصيل إذ أن الله سبحانه وتعالى يتناول ويركز على التويخ والاستنكار على الانقلاب وليس ناظراً للتفصيل بين فعل العبد وفعل الرب.

فإن الله علق جواب الشرط وهو الانقلاب (انقلبتم) على فعلي الشرط وهو (أفإن مات أو قُتل) وهذا التعليق يدل على أن تركيزه واقع على حالة الانقلاب وأنها جاءت عند موته أو قتله، وإن إدخا' حرف الاستفهام على أداة الشرط التي تفيد التوكيد إنما هو للاستنكار والتويخ والاستهجان على هذه الحالة. ويستبعد جداً أن يفهم من الآية ما معناه: أفإن شاع عند سماع موت محمد صلى الله عليه وآله وسلم بفعلني وجعلت فعلي عبر قتل الكفار له بأيديهم انقلبتم على أعقابكم، إذ أن النظر الفوقي إلى الآية ككل وبهذا المعنى يخفف كثيراً من حالة تويخ الله لهم والذي ينبغي عدم التساهل بها في حدث كهذا ويشتت تركيز الآية ويجعل لها محاور عدة وهذا خلاف بيان أي حكيم فما بالك بحكيم الحكماء.

ويؤيد أن الآية الكريمة غير محصورة بهذه الواقعة ما سيأتيك إن شاء الله في تفصيلاتها الآتية مما يدفع أي شبهة أو شك في عدم محصوريتها وعموميتها إلى موت الرسول (ص) وبعده.

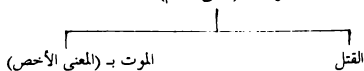
ثم اعلم أن للموت معنيين: عاماً والمقصود به قبض الروح ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾.

وهناك معنى خاصاً له يقابل القتل وهو الذي يموت حتف أنفه لفساد بنية حياته، وأي آية جاءت باللفظتين في آن واحد أي لفظ الموت والقتل فإن المقصود المعنى الخاص للموت، ويتأكد ذلك عند استخدام حرف (أو) الذي يفيد المفارقة بين المعطوف والمعطوف عليه ومثال ذلك ﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ ﴿ولو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾.

إذ لو كان في هذه الآيات الموت بمعناه الأعم فليس هناك مسوغ لاستخدام لفظة القتل إذ هو من ضمنه، وهذا خلاف البلاغة وهذا ما ينطبق على محل خلافنا، ومن هنا يثبت أن المقصود بالموت في آية الانقلاب هو المعنى الأخص الذي هو قسم القتل وليس المقسم له^(١).

لماذا ركز الله تعالى على صفة الرسالة في رسوله وأنه رسول قد خلت من قبله الرسل، وكان يكفيه قوله (وما محمد إلا رسول) ويعقبها مباشرة (أفإن مات أو قُتِل)؟

(١) الموت بـ (المعنى الأعم)



ولأول وهلة في الإجابة على هذا السؤال، كما ذهب إليه بعض المفسرين، إنما أراد الله أن يلفت المسلمين إلى حقيقة وهي أن محمداً (ص) غير مخلد، بل هو ماض وميت، شأنه شأن بقية الرسل الذين مضوا وماتوا. هذا المعنى ظاهر ولكنه ليس الوحيد، إذ لو كان مراده تثبيت صفة الموت له فقط لقال وما محمد إلا بشر قد خلت من قبله البشر، للتأكيد على الطابع البشري من الفناء وعدم الخلود، فهناك معان أبعد وأعمق من هذا استدعت أن تقدم صفة الرسالة وتؤكد عليها، وذلك :

أولاً: فكما أن الدين لم يكن معلقاً على حياة الرسل السابقين، كذلك فهو غير معلق على حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فكما مات الأنبياء السابقون واستمر الدين بعدهم، فكذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما سيموت أو يقتل سيستمر الدين من بعده.

ثانياً: وهو أعمقها غوراً وأثقبها نظرة وأشملها معنىً هو التأكيد على حقيقة تطابق السنن بين الأمم بعد موت رسلها فما حدث لتلك الأمم سيحدث لهذه الأمة حذو القذة بالقذة وطبق النعل بالنعل، يؤكد هذه الحقيقة القرآن والسنة والواقع، أما من القرآن فقوله تعالى: ﴿وتلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ فضمير (هم) راجع على (الرسل) ولو أراد به عيسى (ع) فقط لقال من بعده، ولا يقال أنه أراد به وعيسى عليه السلام على سبيل التفخيم، لأن موقع الضمير (هم) في (من بعدهم) مخل بالبلاغة والفصاحة أن قصد به التفخيم ثم على القول بالعدم، فإننا نقول إذا

دار الأمر بين استخدام اللفظ على نحو الحقيقة أو المجاز فإننا نتمسك بأصالة الحقيقة، وفي موردنا استخدام (هم) على نحو الحقيقة يرجع على (تلك الرسل) ومن بينهم رسول الله (ص) بدلالة قوله تعالى قبل هذه الآية ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ ومن ثم استطرده الباري مخاطباً ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾.

ثم إن تطابق السنن تدل عليها كثير من الروايات المشهورة الصحيحة المجمع عليها عند المسلمين كقوله (ص): «ستتبعون سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة وطبق النعل بالنعل حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» وقوله (ص): «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وكقوله: «افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى إلى اثنين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة اثنان وسبعون في النار وواحدة ناجية». بل وتدلل عليه كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ وكقوله تعالى ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق ياذنه﴾ ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

وإن لأكبر دلالة على تطابق السنن هو واقع الأصحاب بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث كفر بعضهم بعضاً وفسق كل

منهم الآخر ووصل الأمر إلى القتال فيما بينهم في حروب طاحنة راح ضحيتها أكثر من مائة ألف رُبة مسلمة. وهذا مصداق الآية ﴿... ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا...﴾.

وبعد هذا لا يمكن القول كيف يمكن للأصحاب أن ينقلبوا وهم الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم وقاتلوا أهليهم ووقفوا مع رسول الله (ص) في الشدة والرخاء ورأوا آياته ومعجزاته!! إذ يرد بالإضافة إلى ما مضى.

آ - إن ضمير المخاطبين في (انقلبتم) إنما هو موجه لهم بالذات، إذ لا يعقل أن يقصد به الكفار أو المنافقين وهم منقلبون في الأساس.

ب - إن العلم لا يشفع لصاحبه أن يستقيم، فكم من الناس يعلم أن الحق في ضفة، ولكن هواه يملِي عليه الضفة الأخرى فيتبعها، بل إن أكثر حالات البغي تأتي بعد العلم بالحق ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾ فكل شيء يَبِّن وواضح (البينات) ولكن اختلفوا واقتتلوا ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات﴾ ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾.

ج - إن التضحيات السابقة والصبر على البلاء لا يعصم الإنسان من الانحراف في المستقبل، وليست بأعظم من التضحيات والصبر على البلاء الذي صب على بني إسرائيل عندما قطع فرعون أرجلهم وأيديهم من خلاف فصبروا وصلبهم فصبروا واستحى نساءهم وأطفالهم وقتل رجالهم فصبروا على التمسك بدعوة موسى (ع) ورأوا وبشكل واضح معجزات موسى (ع)

الباهرات وكان من أعظمها انفلاق البحر فِرْقاً كل فِرْق كالطود العظيم، ولكن ما إن فارقهم موسى (ع) بضعة أيام حتى عبدوا فيها العجل، وكان طبيعة الإنسان الطغيان عندما يحس ويستشعر الكفاية والأمان ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ .

د - مهما ارتقى الإنسان في درجات الإيمان فإنه إن لم يكن معصوماً من قبل الله جاز عليه الانقلاب والكفر، وليس هناك مثل أعظم من يعلم بن باعورا ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ وهل كان أحد من الأصحاب وصل إلى إيمان هذا حيث كان يحمل الاسم الأعظم؟ وقد انخرق فما بالك بمن هو دونه؟

والسؤال هنا: على ماذا تم الانقلاب؟

بل بدورنا نسأل على ماذا عادة يتم الانقلاب؟

إن أماننا في الآية عناصر أولية من خلالها نستطيع التوصل للإجابة عبر التحليل والاستنتاج:

آ - إن للانقلاب علاقة مباشرة بوفاة الرسول (ص) ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ .

ب - الانقلاب دلالة على وجود أصل وقع عليه الانقلاب، أصل معروف لدى جميع المنقلبين عليه ولو لم يكن المنقلبون يعرفون ذلك الأصل لما قيل لهم ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ بل وإن ما وقع عليه الانقلاب كان ملتزماً به لفترة حتى كان الانقلاب.

ج - إن لهذا الأمر صلة وعلاقة مباشرة بالله والرسول (ص) وعليهما انقلبوا.

د - إن ضرر هذا الانقلاب يرجع على المنقلبين في الدنيا والآخرة ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾ ثم بين الله أن هذا الشكر مردود نفعه إلى ذات العبد وكذا يفهم منه أن عدم الشكر سيرجع بالضرر على العبد ذاته.

هـ - إن هذا الانقلاب مرتبط بسنن الأولين فعلى ما انقلب عليه الأولون انقلب الآخرون.

و - لم يقل تعالى وسيجزي المؤمنين والمسلمين، بل قال ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ مما يوحي بأن غير المنقلبين هم القلة ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾. ويؤيده قوله (انقلبتم) الذي يفيد العموم والكثرة ولو كان المنقلبون قلة لقال (انقلب بعضكم) ولما صح توبيخ الأكثرية.

ز - إن هذا الانقلاب متحقق وحادث لا محالة بدلالة جواب الشرط الذي يفيد التحقق عند تحقق الشرط، واستخدام صيغة الماضي (انقلبتم) التي تفيد التحقق لا محالة.

ح - إن الخطاب خاص بالمسلمين ومتوجه إليهم، ولم يُردِ الكافرين إذ هم منقلبون في الأصل، كما لم يُردْ بخصوص المنافقين فقط إذ هو خلاف

ظاهر الآية، ولو أراد بالخطاب فقط لقال (أظهرتم انقلابكم) بل ذات الانقلاب ووقوعه يحدث عند الوفاة مباشرة.

ولمعرفة ماهية هذا الانقلاب فعند التحليل والاستنتاج لا بد من مراعاة جميع هذه العناصر، وينبغي أن تكون النتيجة متوافقة معها تماماً وإلا فليست هي.

لقد كان رسول الله حاكماً على المسلمين وبعد وفاته حدث الانقلاب.. وبدورنا نسأل: بعد وفاة الحاكم، على ماذا يقع الانقلاب عادة؟! ما هو المورد الذي كان يمثل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صمام الأمان للأمة من الخلاف بحيث لو لم يكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم موجوداً لتفجر هذا النزاع والخلاف؟ وهل تطرق القرآن لهذا؟ القرآن لم يتطرق بشكل صريح لأمر كان عظيماً على الناس لم يقبله الكثيرون، وتخوف الرسول على أمته من تبليغهم إياه، ولكن كان أمر الله ﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾.

وبالقاء نظرة سريعة ومختصرة على الآية نستكشف:

١ - إن هذا الأمر الواجب تبليغه به يوازي تبليغ الرسالة، فإذا لم يبلغه فكأنما لم يبلغ الرسالة، وبالتالي فإن الكفر به كفر بالرسالة وإن الانقلاب عليه انقلاب على الرسالة.

٢ - إن هذا الأمر هو مرد خلاف عظيم بين الناس، بل إن الرسول خاف على نفسه من الناس ولذا طمأنه الله تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾.

٣ - هذا الأمر هو تمام الرسالة لأن مفهوم الآية أنه إذا بلغ هذا الأمر فقد بلغ الرسالة وأكملها ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي

ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴿ وهذا مطابق لآية الانقلاب الذي يوحى بأنه انقلاب على الدين كله.

٤ - ﴿يعصمك من الناس﴾ الغالبية العظمى من الناس كارهة لهذا الأمر الذي أمر الرسول بتبليغه؟

ما هو هذا الأمر الذي يريد تبليغه؟

إن هذا الأمر مرتبط أولاً بالانقلاب وذلك:

١ - لأن هذا الأمر مرتبط بالرسالة والانقلاب عليه انقلاب على الرسالة.

٢ - توجد فيه بوادر الانقلاب لعدم رضى الغالبية.

٣ - تحتم على الرسول تبليغه لدنو أجله «إني أوشك أن أدعى فأجيب» حتى لا يترك لهم مسوغاً للانقلاب ويقيم عليهم الحجة كاملة لأن الانقلاب مرتبط بوفاة الرسول (ص).

٤ - إن الأمر الذي يريد تبليغه هو الشيء الوحيد الذي يمكن الانقلاب عليه، إذ بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل الرسالة بفروعها المتعددة ولم يظهر في مفردة من مفرداتها علامة عدم الرضى من المسلمين إلا هذا الأمر الذي تخوف منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوعده الله بأن يعصمه من الناس.

٥ - إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يمثل فيه صمام الأمان فإذا مات انقلت الأمان وعمل الناس عكسه.

٦ - فلم يبقَ شيء يقع الانقلاب عليه سوى الخلافة المنصبة من قبل الله.

من هو الرجل الذي بلغ رسول الله (ص) بخلافته؟

تواترت الأخبار ونقلت مشات من مصادر المسلمين حادثة الغدير وتنصيب الإمام علي خليفة على المسلمين كما تقدم ذكرها.

ومن هذا ومن غيره من آلاف الأحاديث يتضح أن رسول الله (ص) نصب علياً خليفة وإماماً على الخلق، ولكن هذا الأمر لم يكن محل رضی من المسلمين، فما خرج رسول الله (ص) من هذه الدنيا حتى انقلبوا عليه وغضبوا منه حقه، ولم يثبت منهم إلا القليل كما قال تعالى في ذيل آية الانقلاب (.. وسيجزي الله الشاكرين) فيتضح منها:

أولاً: هؤلاء قلة بدلالة:

آ - انقلبتم التي تفيد العموم والغالبية.

ب - (وقليل من عبادي الشكور).

ثانياً: هذا الشكر قبل الكفر وهو الانقلاب ﴿فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ وهذا السبيل معروف بدلالة:

آ - هدايته إلى هذا السبيل ﴿إنا هديناه السبيل﴾.

ب - الانقلاب عليه لأن الآية التي سبقت تقول (وسيجزي الله الشاكرين) أي الذين اتبعوا بمفهوم هذه الآية السبيل، ويكون غيرهم كافرين لأنهم انقلبوا على السبيل.

ج - ألف ولام التعريف.

وهذا السبيل موضع بلاء ونعمة في نفس الوقت، بلاء يتلى به الناس ونعمة لمن سلكه، ولأن الذي يُشكر هو النعمة، وعادة يكون الانقلاب الذي يساوي الكفر هو الانقلاب على النعمة أي الكفر بها، ولما كانت ولاية علي نعمة ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾^(١) وقع عليها الانقلاب ولم يسلم إلا القليل، وما يؤكد ذلك حديث رسول الله (ص) قال: «بينما أنا قائم فإذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال هلم، فقلت: إلى

(١) كما تقدم إثبات أنها نزلت بعد تولية علي (ع) في غدیر خم.

أين؟ فقال: إلى النار والله، قلت ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أديبارهم القهقري، فلا أرى يخلص منهم إلا مثل حمل النعم، فيؤكد هذا الحديث على ما دلت عليه آية الانقلاب أن قليلين يصبحون شاكرين للنعمة، فقال (ص) فلا أرى يخلص منهم إلا مثل حمل النعم. فكما أن النعم الشاردة من القافلة قليلة العدد فكذا الأصحاب الناجون هم القلة.

وقال (ص): «إني فرطكم على الحوض من مرّ عليّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحراً سحراً لمن غير بعدي» .

وقول الرسول (ص) لأبي بكر حينما شهد الرسول الشهداء أهل الإيمان والجنة وقال : «أما هؤلاء فإني أشهد لهم. فقال أبو بكر: ونحن يا رسول الله قال: أما أنتم فلا أدري ماذا تحدثون بعدي» .



الفصل السابع

الثلاثي وتحريف الحقائق

- المؤرخون.
- المحدثون.
- الكتاب.

أولاً: المؤرخون

* دور التاريخ في استنهاض الأمة :

إن الأمم التي تتقدم هي الأمم التي تستفيد من عبر التاريخ، وتستخلص قمة التجارب في حاضرها، بعد أن تعي سنن التاريخ وقوانينه التي تقود الأمة نحو التحضر، بالإضافة إلى معرفة أسباب انحلال الأمم وتراجعها، فلم يخص الله قوماً بقانون دون قوم، بل هي سنة واحدة لا تتغير قال تعالى: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾. فالحياة قائمة على حقيقة واحدة وهي الصراع الدؤوب بين الحق والباطل وكل الأحداث التي تجري في تاريخ الإنسانية لا تخرج عن كونها واجهة من واجهات الصراع بين الحق والباطل، فيمكننا بهذه البصيرة أن نفحص في التاريخ ونجعله حيويًا يتفاعل وحياتنا اليومية، ويمكننا إدراك أعمق ما يمكن إدراكه في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ أمتنا الإسلامية التي تعيش أعنف التقسيمات المذهبية، ومن أجل ذلك لا بد أن نتجاوز إنفعالاتنا النفسية وانشداداتنا العاطفية ونحكم قواعدها وبصائرنا القرآنية، حتى نتمكن من القدرة الموضوعية على التحليل والنظر من سطح الأحداث إلى جوهرها، فنصل إلى رؤية واضحة وواقعية بدلاً عن الرؤية الخاطئة والمشوشة. فلنبداً كما لو أن القرآن نزل علينا من جديد، فنقرأ التاريخ من وحي قوله تعالى:

﴿اولم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشدّ منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

وبالعكس تماماً تجب الأمة الجامدة عاجزة عن فهم التاريخ وقوانينه وتجاربه فتفقد بذلك الرؤية والبصيرة التي تجعلها قادرة على استيعاب الحاضر والسير نحو المستقبل.

* السلطات وتحريف التاريخ :

إذن فكل سؤال أو استنكار في البحث التاريخي بداعي عدم إثارة الفتنة القديمة أو أي داعي آخر لا محل له، وإن دل فإنما يدل على جهل صاحبه، وفي الواقع إن كانت هناك فتنة فهي بسبب ما حدث في التاريخ من تزيف وتحريف، وإلا فالتاريخ بما هو، هو مرآة صافية تعكس الماضي للحاضر من غير خداع أو دجل، ولكن عندما سقط التاريخ في أيدي السياسات المنحرفة تذبذبت صورته وتبدلت أشكاله، ومن هنا تعددت الآراء واختلفت المذاهب، وإلا لو كان التاريخ سليماً لانكشف زيفها وعُرف باطلها.

وما تعانيه الأمة الإسلامية اليوم من فرقة وشتات وتمزق في الصفوف ما هو إلا نتاج طبيعي للانحرافات التي حدثت في التاريخ من تدليس المؤرخين وكنمهم للحقائق، فهم جزء لا يتجزأ من المخطط الذي استهدف مدرسة أهل البيت من أجل مصالح سياسية، فقد عمل هذا المخطط على كافة الأصعدة والمستويات ليُشكل تياراً آخر ذا مظهر إسلامي في قبال الإسلام الحقيقي الأصلي. وبما أن التاريخ شاهد عيان ينقل كل ما رأى فلا بد للمخطط أن يسكته أو يعمي عليه حتى لا يفضحه ويكشف حيلته، ومن هنا كان التاريخ تحت قبضة السياسة الحاكمة يدور معها حيثما دارت،

فأصبح المؤرخون تحت تهديد أو إغراء السلاطين ترتعش الريشة في أيديهم لتزييف الحقائق، إن السياسة التي اتبعها التيار الأموي ومن بعده العباسي كانت تستهدف من الأساس تشويه صورة أهل البيت (ع)، فكان مجرد التظاهر بالحب لعلي بن أبي طالب وأهل بيته كفيلاً بهدم الدار وقطع الرزق - حتى تتبع معاوية شيعة علي قائلاً: اقتلوهم على الشبهة والظنة - وحتى بات ذكر فضائلهم جريمة لا تغتفر، وللتعرف على المأساة التي لاقوها أئمة أهل البيت وشيعتهم في التاريخ ارجع إلى كتاب «مقاتل الطالبين» لأبي الفرج الأصفهاني.

فما بال المؤرخين، هل يتسنى لهم في تلك الظروف القاسية تدوين مناقب فضائل أهل البيت وذكر سيرتهم العطرة؟!

وهكذا أصبحت الأمة تتوارث جيلاً بعد جيل حقائق مشوهة، بل تطور الأمر إلى أكثر من ذلك عندما أصبح العلماء المتأخرون يبررون للسابقين وينقلون عنهم من غير تأمل أو تدبر، فتأصلت حالة العداء لأهل البيت وشيعتهم وحالة الجهل والغفلة في الآخرين، فليس غريباً من ابن كثير عندما يأتي لذكر جعفر بن محمد الصادق (ع) في حوادث مائة وثمان وأربعين هجرية لا يزيد على قوله: وفيه مات جعفر بن محمد الصادق ، فيذكر موته ولا يروق له ذكر شيء من حياته، والشواهد على تحريف المؤرخين كثيرة.. نكتفي بذكر نماذج منها:

◆ كيف أرخوا لتاريخ التشيع ؟

آ - فقد أرخ الطبري - أول مؤرخ في الإسلام - ومن نقل عنه من المؤرخين، أن مؤسس الشيعة هو يهودي، اسمه عبد الله بن سبأ من أهل صنعاء.

وأذكر أن أول ما سمعتُ بهذا الاسم كان من أحد أقاربنا وهو تابع
للوهابية، فكان يقول : الشيعة يهود يرجعون في الأصل إلى عبد الله بن سبأ
اليهودي، وبعد البحث في هذا الأمر، وجدتهم يضرّبون على نفس طبول
إحسان إلهي ظهير، وأنا أكتبُ هذا الكلام وبين يدي كتابه «الشيعة والتشيع»
وهو ينقل هذه الأكاذيب من الطبري وغيره من المؤرخين، وهنا ننقل عنه ما
نقله عن الطبري: (ولقد ذكره أقدم المؤرخين الطبري بقوله: «كان عبد الله
بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء أمه سوداء فأسلم زمان عثمان ثم تنقل في
بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام
فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر،
فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول: لَعَجِبُ مِمَّنْ يَزْعَمُ أَنَّ عَيْسَى يَرْجِعُ وَيَكْذِبُ
بأن محمداً يرجع وقد قال الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ
إِلَى مَعَادٍ﴾ فمحمّد أحق بالرجوع من عيسى، قال: فقبّل ذلك عنه ووضع
لهم الرّجعة فتكلموا فيها، ثم قال لهم بعد ذلك إنه كان ألف نبي ولكل نبي
وصي وكان علي وصي محمّد، ثم قال محمّد خاتم الأنبياء وعلي خاتم
الأوصياء، ثم قال بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله
عليه وسلم، ووثب على وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتناول أمر
الأمة، ثم قال لهم بعد ذلك إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول
الله صلى الله عليه وسلم فانهمضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدؤوا بالظعن
على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس،
وادعوهم إلى هذا الأمر. فبث دعائه وكتابه من كان استفسد في الأمصار
وكتابه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم،
ويكاتبتهم إخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصرٍ آخر بما
يصنعون فيقرّوه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم.. إلخ».

وبهذا ينسبون عقائد الشيعة وتاريخهم إلى عبد الله بن سبأ وبذلك جعلوا حواجز نفسية بين الباحثين والحقيقة، وعندها ساروا على منوال المؤرخين من غير بحث أو تدقيق، فنجد الكاتب أحمد أمين مثلاً في كتابه - فجر الإسلام - بعد أن ينقل قصة عبد الله بن سبأ ويرسلها إرسال المسلمات، يجد الطريق أمامه مفتوحاً لكيل التهم والأكاذيب على الشيعة فيقول ص ٢٦٩: «ولم يكتف غلاة الشيعة بهذا القدر في علي، ولم يقنعوا بأنه أفضل الخلق بعد النبي وأنه معصوم، بل ألّهوه فممنهم من قال: <حلّ في علي جزء إلهي، واتخذ بجسده فيه، وبه كان يعلم الغيب> ثم بعد ذلك ينقل خرافة ابن سبأ ويحلل فيها ثم يستخلص هذه النتيجة قائلاً: <حوالحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد.. ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية..> وهو يقول ذلك مرتجلاً من غير بحث أو تدقيق، بل كحاطب ليل لا يعي ما يقول، ولكن ليس اللوم عليه، فما جاء به هو نتاج لانحراف التاريخ والمؤرخين.

وهكذا كان التاريخ وكانت السبائية عاملاً مهماً في تزييف الحقائق وضلال الأمة، ولقد تصدى علماء الشيعة لفكرة السبائية وبخثوها بكل تجرد ودقة فلم تظهر أمامهم إلا قصة مفتعلة، ولقد أفرد لها العلامة مرتضى العسكري مجلدين سماهما - عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى - تتبع فيها رواية ابن سبأ في كل المصادر التاريخية، ولا يسعني المجال لسرد الأدلة التي تكشف حقيقتها فأكتفي هنا بإشارات:

- ترجع هذه الأكذوبة إلى راوٍ واحد وهو - سيف بن عمر - وهو مؤلف كتاب.. (الفتوح الكبيرة والردة) و(الجمل ومسيرة عائشة وعلي) ونقل عنهما الطبري في تاريخه موزعاً على حوادث السنين، وابن عساكر، والذهبي في تاريخه الكبير.

قول العلماء في سيف بن عمر :

- (١) قال يحيى بن معين «ت ٢٣٣ هـ»: ضعيف الحديث فلسٌ خير منه.
 - (٢) أبو داود «ت ٢٧٥ هـ»: ليس بشيء كذاب.
 - (٣) وقال النسائي صاحب الصحيح «ت ٣٠٣ هـ»: ضعيف ومتروك الحديث ليس بثقة ولا مأمون.
 - (٤) وقال ابن حاتم «ت ٣٢٧ هـ»: متروك الحديث.
 - (٥) وقال ابن عُدي «ت ٣٦٥ هـ»: يروي الموضوعات عن الأثبات، أتهم بالزندقة، وقال: قالوا كان يضع الحديث.
 - (٦) وقال الحاكم «ت ٤٠٥ هـ»: متروك، وقد أتهم بالزندقة.
 - (٧) وهأه الخطيب البغدادي «ت ٤٠٦ هـ»:
 - (٨) ونقل ابن عبد البر «ت ٤٦٣ هـ» عن ابن حبان أنه قال فيه: سيف متروك، وإنما ذكرنا حديثه للمعرفة ولم يعقب ابن عبد البر على هذا الحديث شيئاً.
 - (٩) وقال الفيروز آبادي، صاحب تواليف، وذكره مع غيره وقال عنهم: ضعفاء.
 - (١٠) وقال ابن حجر «ت ٨٥٢ هـ» بعد إيراد حديث ورد في سنده اسمه: فيه ضعفاء أشدهم سيف.
 - (١١) وقال صفى الدين «ت ٩٢٣ هـ»: ضعّفوه، روى له الترمذي فرد حديث. وهذا رأي العلماء في سيف بن عمر مدى العصور.
- فكيف بهذه البساطة يسترسل المؤرخون مع روايته؟! وكيف بنى عليها الباحثون آراءهم، وهذا بالإضافة للاختلافات التي وقعت في اسمه. هل هو ابن السوداء؟! أم عبد الله بن سبأ. والاختلاف الذي وقع في ظهوره بين

الروايات، هل ظهر في أيام عثمان كما يقول الطبري، أم كما يقول سعد بن عبد الله الأشعري في المقالات والفرق: أنه ظهر في أيام علي أو بعد موته!
ولماذا سكت عنه عثمان الذي لم يسكت حتى عن أكابر الصحابة
أمثال أبي ذر وعمار وابن مسعود!؟

بل هو في الواقع حلقة من مسلسل الوضع على الشيعة، كما قال طه حسين: ابن سبأ شخصٌ ادخره خصوم الشيعة للشيعة ولا وجود له في الخارج. وتستهدف هذه المحاولة تشويه عقائد الشيعة التي تنبع من القرآن والسنة، مثل الوصية والعصمة، فلم يجد أعداؤهم طريقاً إلا ربط هذه العقائد بجزر يهودي، يكون بطلها شخصاً خيالياً اسمه عبد الله بن سبأ فيُلقي اللوم بذلك عليه وعلى الذين أخذوا منه، وهذا بالإضافة إلى تعديل صورة الصحابة وتزيههم عن اللوم والعتاب، بما جرى بينهم من فرقة واختلاف انتهت بقتل عثمان، وحرب الجمل التي تعتبر أكبر فاجعة بعد حادثة السقيفة، حيث راح ضحيتها آلاف من الصحابة، وما هذه القصة المُفتعلة عن ابن سبأ إلا تغطية على تلك الفترة الزمنية الحرجة، فألقوا مسؤولية ما حدث على هذه الشخصية الوهمية وأسدلوا على ذلك الستار، وإلا من غير ذلك يكون الصحابة أنفسهم مسؤولين عما حدث، من انشقاق الأمة وتفرقهم إلى مذاهب ومعتقدات شتى ولكن هيهات، لا يُدفع الخطر عن النعمة إذ وارت رأسها في التراب فقد جاؤوا بعذر أقبح من ذنب. فكيف يتسنى لهذا الدخيل أن يعبث كل هذا العبث، حتى غير تاريخ الإسلام العقائدي، والصحابة شهود على ذلك!!!؟

نموذج آخر :

ب - هناك حذف تام لفضائل علي وأهل بيته بصورة متعمدة من كتب التاريخ، فهذا ابن هشام ناقل سيرة ابن إسحاق، يقول في مقدمة كتابه:

«وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب... وأشياء يشنع الحديث بها، وبعض يسوء الناس ذكره...».

مهدداً بذلك إلى كتم الحقائق ودفنها، فمن بين هذه الأشياء التي يسوء الناس ذكرها، خير دعوة الرسول لعبد المطلب عندما أمره الله ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فقد ذكرها الطبري بإسناده، قال رسول الله (ص): فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم، فأحجم القوم عنها جميعاً، وقال على عليه السلام: أنا يا نبي الله أكون وزيرك.. قال الرسول: إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا، قال فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع^(١).

فهل هذه الرواية مما يسوء الناس ذكرها؟! أو يشنع الحديث بها!؟

لا يعجبك ذكر الطبري لهذه الحادثة، فسرعان ما تراجع عن ذلك فروى في تفسيره هذه الحادثة مع تدليسها وتحريفها قال: فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى وكذا وكذا... ثم قال: إن هذا أخى وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا^(٢).

فماذا تعنى كذا وكذا؟!؟

أما ابن كثير في تاريخه عند ذكر هذه الحادثة فأعجبه ما صنعه الطبري في تفسيره فسار على خطته من غير حياء أو أمانة علمية، فقال: كذا وكذا...!^(٣).

فانظر إلى هذه الحادثة الواحدة التي تتناول فضيلة من فضائل أمير المؤمنين وأحقيته في الخلافة، انظر كيف فعل بها المؤرخون، فابن هشام لم

(١) الطبري بتلخيص - ط. الأرنؤى، مصر ج ٢ ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) تفسير الطبري. ط بلاق ج ١٩ ص ٧٢.

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٤٠.

يستطع أن يتحايل عليها فحذفها من الأساس، وأما الطبري وتبعه ابن كثير فزيّفاها وأبهما معناها.. فتأملوا.

ج - وإليك نموذجاً آخر من تحريفات المؤرخين للحقائق، فكما أنهم يخفون فضائل علي عليه السلام وأهل بيته، ففي المقابل يخفون كل ما يشين وينقص من حق الصحابة وبالخصوص الخلفاء، وإليك هذه الحادثة التي تجمع كلا الاتجاهين من إخفاء لفضائل علي عليه السلام وإخفاء لفضائح الخلفاء:

أخفى المؤرخون وأولهم الطبري، الرسائل التي جرت بين محمد بن أبي بكر - من شيعة أمير المؤمنين - و معاوية بن أبي سفيان. لأن فيها إثباتاً لوصاية الإمام علي عليه السلام وكشفاً لأمر الخلفاء، فاعتذر الطبري بعدما ذكر إسناد الرسالتين، بأن فيهما ما لا يتحمل العامة سماعه، ثم جاء من بعده ابن الأثير وفعل ما فعله الطبري، ثم سار على نهجهم ابن كثير فأشار إلى رسالة محمد بن أبي بكر، وحذف الرسالة وقال: «وفيها غلظه». وما فعله المؤرخون الثلاثة، هو من أبشع أنواع كتم الحقائق، فهو يكشف بكل وضوح عدم أمانتهم العلمية.

فماذا يقصدون من قولهم: «عدم احتمال العامة سماع ما فيهما؟

هل لأن العامة لا تبقى على عقيدتها بالخلفاء بعد سماع الكتائين؟ وإليك مختصراً من رسالة محمد بن أبي بكر إلى معاوية، ورد الأخير عليه، من كتاب - مروج الذهب للمسعودي - :

... من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر - ثم ذكر الرسول (ص) والثناء عليه..- وبعثه رسولاً ومبشراً ونذيراً، فكان أول من أجاب وأنا ب وآمن وصدق وأسلم وسلم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب: صدقه بالغيب المكتوم وآثره على كل حميم، ووقاه بنفسه كل هول، وحارب حربه وسالم سلمه... لا نظير له.. اتبعه، ولا مقارب له في فعله،

وقد رأيتك تُساميه وأنت أنت، وهو هو، أصدق الناس نية، وأفضل الناس ذرية، وخير الناس زوجة.... وأنت اللعين ابن اللعين، لم تنزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم الغواية وتجهدان في إطفاء نور الله، تجمعان على ذلك الجموع وتبدلان فيه المال، وتؤلبان عليه القبائل، وعلى ذلك مات أبوك، وعليه خلفته...

- ثم ذكر أنصار علي وأتباعه وقال: يرون الحق في اتباعه، والشقاء في خلافه، فكيف يالك الويل!، تُعدل أو تقرن نفسك بعلي وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووصيه وأبو ولده: أول الناس اتباعاً، وأقربهم به عهداً، يخبره بسر، ويطلع على أمره، وأنت عدوه وابن عدوه، فتمتع في دنياك ما استطعت بباطلك وليمدك ابن العاص في غوايتك، فكان أجلك قد انقضى وكيدك قد وهن ثم يتبين لمن تكون العاقبة العليا، واعلم أنك إنما تكايد ربك الذي أمّنت كيدَهُ ويثست من روحه، فهو لك بالمرصاد وأنت منه في غرور، والسلام على من اتبع الهدى^(١).

رسالة معاوية في الرد على محمد بن أبي بكر - باختصار -

«من معاوية بن صخر، إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر... - يتحدث عن رسالة محمد بن أبي بكر قائلاً:

ذكرت فيه ابن أبي طالب، وقديم سوابقه وقرابته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومواساته إياه في كل هول وخوف فكان احتجاجك عليّ وعيبك لي بفضل غيرك لا بفضلك، فأحمد رباً صرف هذا الفضل عنك وجعله لغيرك، فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازماً لنا مبروراً علينا، فلما اختار الله لنيبه عليه الصلاة والسلام ما عنده وأتم له ما

(١) مروج الذهب - للمسعودي - ج ٣ ص ٢٠، تحقيق محمد محي الدين، دار المعرفة بيروت.

وعده، وأظهر دعوته، وأبلج حجته، وقبضه الله إليه صلوات الله عليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزّه حقه، وخالفه على أمره، على ذلك اتفاقاً واتساقاً، ثم إنهما دعوه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما، فهما به الهموم وأرادا به العظيم، ثم إنه بايعهما وسلّم لهما، وأقاما لا يشركانه في أمرهما ولا يظلعانه على سرهما حتى قبضهما الله.. أبوك مهّد مهاده وبني لملكه وساده، فإن يك ما نحن فيه صواباً فأبوك استبد به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن ابن طالب، وسلّمنا إليه، ولكن رأينا أباك فعل ذلك به قبلنا فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك أو دع ذلك. والسلام على من أناب^(١).

فقد عرفتَ بذلك السر الذي منع الطبري وابن الأثير وابن كثير من نقل هذه لأنها تكشف واقع الصراع والخلاف الذي حدث بين المسلمين في أمر الخلافة، التي هي حق لعلي، فهذا معاوية يعترف بذلك ولكنه يعتذر بأن خلافته هي امتداد لخلافة أبي بكر، ويشنع بذلك على ابنه (محمد بن أبي بكر) حتى يسكته عن الكلام في هذا الأمر.

.. ولكن لا عليك يا معاوية فإن لم يسكت محمد بن أبي بكر ولم يستر أمرك فقد سكت عنها الطبري وابن الأثير وابن كثير.

والشواهد على ذلك كثيرة من تزييف المؤرخين وتحريفهم للحقائق، يطول بنا المجال باستقصائها، والمتبع في التاريخ يجد ذلك جلياً، ومن العجب أن المؤرخين لا يسترون ما فعلوه من التحريفات، فتجد إشارة واضحة على ما فعلوه، فمثلاً فيما حدث لأبي ذر من إهانات جرت له من سوء معاملة عثمان له، ففي هذا يقول الطبري: فقد ذُكر في سبب إشخاصه - أي أبي ذر - إياهُ منها - أي من الشام - أمورٌ كثيرة كرهتُ ذكراً أكثرها! وبهذه الصورة الواضحة نكتشف تحريف الطبري للحقيقة.

(١) المصدر السابق ص ٢١.

ثانياً: المُحدِّثون

عندما تقف أمام المؤامرات التي حيكت في الحديث، وتبديل حقائقه، تشعر بضرورة نظرية الشيعة، أي لا بد من حاكم وإمام معصوم يحفظ شرع الله ويثبت أركانه، فإن لم يكن معصوماً نزيهاً فسوف يُسخَّر الدين لخدمة أهدافه وسياساته ويُحرَّف الحديث لمصلحته، هذا إذا لم يحاربه ويمنع من كتابته ونشره، كما مرَّ عليك من فعل الخلفاء الثلاثة - أبي بكر، عمر، عثمان - الذين منعوا من رواية الحديث وأحرقوا ما عند المسلمين وحبسوا الصحابة بالمدينة حتى لا ينشروا الحديث في المناطق الأخرى، وقال الإمام علي عليه السلام في ذلك: «قد عملت الولاة قبلي أعمالاً خالفوا فيها رسول الله متعمدين بخلافه، ناقضين لعهد، مغيرين لسنته...».

وأنا لن أتناول هذه الفترة في هذا الفصل، وسأكتفي بالإشارات السابقة، وإنما سوف أتناول هنا عهد تدوين الحديث الذي يعتبر عند أهل السنة العصر الذهبي للحديث، مع الإشارة لما فعله معاوية من وضع الأحاديث وكتب فضائل أهل البيت.

◆ الحديث في عهد معاوية :

ويمكن أن نطوي فترة معاوية بما نقله المدائني في كتاب الأحداث، يقول: «كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة^(١) أن: «برئت

(١) هو العام الذي جمع فيه معاوية شيعته سنة ٤٢هـ وسماه أهل السنة والجماعة وبذلك اشتهر بعام الجماعة.

الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب - أي الإمام علي عليه السلام - وأهل بيته، فقامت الخطباء في كلِّ كورة، وعلى كلِّ منبرٍ يلعنون علياً ويبرأون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته. وكان أشد الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة ما بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سُميه، وضم إليه البصرة، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم إمام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كل حجر ومدبر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: أن لا يجيزوا لأحدٍ من شيعة علي وأهل بيته شهادة وكتب إليهم، أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه، وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا إليَّ بكل ما يروي رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحباء والقطايع، ويعظمهم في العرب منهم والموالي فكثرت ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدينا، فلبس يحمي أحد مروءٍ من الناس عاملاً من عمال معاوية، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفَّعه، فلبثوا بذلك حيناً.

ويضيف المدائني بقول: «ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية. فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحبُّ إليَّ وأقرُّ لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله».

ثم يواصل قوله: «فقرئت كتبه على الناس فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدَّ الناس في رواية ما يجري هذا المجري حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقى على معلمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع حتى روه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم، وخدمهم، وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله».

ويضيف: «ثم كتب إلى عماله نسخة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البينة أنه يجب علياً وأهل بيته، فاحموه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره. فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة، حتى أن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته، فيلقي إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يجدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة، ليكتمن عليهم، فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة. وكان أعظم الناس في ذلك بلية، القراء المرأؤون والمستضعفون الذين يظهرن الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولاتهم ويقدرن مجالسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين، الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها، وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها»^(١).

ويتضح لك من ذلك شدة المؤامرة التي حيكت لتزييف الحقائق إلى درجة أنهم أحلوا الكذب على رسول الله (ص)، وكل هذا يرجع للعداء الشديد الذي يحمله معاوية لعلي وشيعته، ولذلك جند معاوية كل إمكانياته

(١) تأملات في الصحيحين ص ٤٢-٤٤.

للقوف في وجه علي وشيعته، فكانت أول خطوة هي تعرية الإمام عليه السلام من كل فضيلة ومنقبة بل لعنه على المنابر لمدة ثمانين عاماً. والثانية هي تشكيل سياج ذي مظهر جميل خلّاب حول مجموعة من الصحابة حتى يكونوا رموزاً بدلاً من الإمام علي عليه السلام، فتحت تهديدات معاوية وإغراءاته انجرف لخدمته مجموعة من المنافقين يضعون الأحاديث كذباً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت ستار أنهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قال أبو جعفر الإسكافي: إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي تقتضي الطعن فيه، والبراءة منه وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلفوا ما أرضاه - منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عمرو بن الزبير...^(١) .

فهكذا باع هؤلاء القوم آخرتهم بدنيا معاوية، فهذا هو أبو هريرة كما يروي الأعمش. قال: لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة، جاء إلى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس، جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلته مراراً، وقال: يا أهل العراق أتزعمون أنني أكذب على الله وعلى رسوله، وأحرق نفسي بالنار؟! والله لقد سمعتُ رسول الله (ص) يقول: إن لكل نبي حراماً وإن حرمني بالمدينة ما بين عيرٍ إلى ثور^(٢)، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله، والملائكة والناس أجمعين، وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها. فلما بلغ معاوية قوله أجازته، وأكرمه، وولاه المدينة^(٣) .

(١) أبو هريرة - محمود أبو ربه - ص ٢٣٦.

(٢) قال ابن أبي الحديد في شرحه: الظاهر أنه غلط من الراوي، لأن ثور بمكة... والصواب ما بين عير واحد.

(٣) أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ٣٩٩.

وإليك سَمْرَةَ بنَ جندب نموذجاً آخر من عمال معاوية في وضع الأحاديث. جاء في شرح النهج لابن أبي الحديد: روى أن معاوية بذل لسمره بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾^(١). وأن الآية الثانية نزلت على ابن ملجم - قاتل علي بن أبي طالب - وهي قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾^(٢). فلم يقبل - أي سمره - فبذل - أي معاوية - له مائتي ألف درهم فلم يقبل أيضاً. فبذل له أربعمائة ألف درهم فقبل^(٣).

روى الطبري: سئل ابن سيرين، هل كان سمره قتل أحداً؟! فقال: وهل يحصى من قتل سمره بن جندب؟! استخلفه زياد على البصرة، وأتى الكوفة فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس. وروى أنه قتل في غداة واحدة سبعمائة وأربعين كلهم قد جمعوا القرآن^(٤).

فيا ترى هل يكون هؤلاء المقتولين غير شيعة علي عليه السلام؟!؟

وقال - أي الطبري - : مات زياد وعلى البصرة سمره بن جندب، فأغره معاوية أشهراً، ثم عزله فقال سمره: لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبني أبداً^(٥).

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠٧.

(٣) أحاديث أم المؤمنين ص ٤٠٠.

(٤) في حوادث سنة خمسين من تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٣٢، وابن الأثير ج ٣ ص ١٩٣.

(٥) في حوادث ٥٢ من تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٦٤، وابن الأثير ج ٣ ص ١٩٥.

أما المغيرة بن شعبة فقد صرح بهذه الضغوط التي سلطها عليه معاوية. روى الطبري عنه: «أن المغيرة بن شعبة قال لصعصعة بن صوحان العبدى - وكان المغيرة يومذاك أميراً على الكوفة من قبل معاوية - : إياك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمان عند أحد من الناس، وإياك أن يبلغني عنك أنك تذكر شيئاً من فضل علي علانية فإنك لست بذاك من فضل علي شيئاً أجهله. بل أنا أعلم بذلك، ولكن هذا السلطان - يقصد معاوية - قد ظهر وقد أخذنا بإظهار عيبه - أي علي - للناس، فنحن ندع كثيراً مما أمرنا به، ونذكر الشيء الذي لا نجد منه بدأ ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقية، فإن كنت ذاكرًا فضله فاذكره بينك وبين أصحابك، وفي منازلكم سرًا، وأما علانية في المسجد، فإن هذا لا يحتمله الخليفة لنا ولا يعذرنا فيه ..»^(١).

وهكذا استجاب لمعاوية جمعٌ من الصحابة والتابعين، ومن رفض قُتل، كالشهيد حجر بن عدي وميثم التمار وآخرين.

وبهذا ظهرت في تلك الفترة آلاف من الأحاديث المكذوبة التي تنسج فضائل وبطولات للصحابة وخاصة للخلفاء الثلاثة - أبي بكر، وعمر، وعثمان - ثم تناقل هذه الأحاديث جيل بعد جيل حتى دونت في المصادر المعتمدة .

وإليك بعض النماذج من الأحاديث المكذوبة، ومن أراد التوسع فليرجع إلى موسوعة الغدير للعلامة الأميني ج ٧، ٨، ٩.

١ - الشمس تتوسل بأبي بكر :

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «عُرِضَ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ حَتَّى الشَّمْسِ فَإِنِّي سَلَمْتُ عَلَيْهَا وَسَأَلْتُهَا عَنْ كَسُوفِهَا فَأَنْطَقَهَا اللَّهُ

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٠٨ في ذكر حوادث سنة ٤٣ هـ .

تعالى وقالت: لقد جعلني الله تعالى على عجلة تجري حيث يريد فأنظر إلى نفسي بعين العجب فتنزل بي العجلة فأقع في البحر فأرى شخصين أحدهما يقول: أحد، أحد، والآخر يقول: صدق صدق. قاتوسل بهما إلى الله تعالى فينقذني من الكسوف، فأقول يا رب من هما؟! فيقول: الذي يقول أحد، أحد هو حبيبي محمد (ص)، والذي يقول صدق، صدق هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه^(١).

٢ - أبو بكر في قاب قوسين :

بلغنا أن النبي (ص) لما كان قاب قوسين أو أدنى أخذته وحشة فسمع في حضرة الله تعالى صوت أبي بكر رضي الله عنه، فاطمأن قلبه واستأنس بصوت صاحبه^(٢).

٣ - أبو بكر ألف القرآن :

ما نزل في أبي بكر من القرآن كثير، نكتفي بألف القرآن: (آلم، ذلك الكتاب) فالألف: أبو بكر، واللام الله، والميم محمد^(٣). ولم يتركوا فضيلة كانت لنبي أو رسول إلا وجعلوا له منها نصيباً. وأما فضائل عمر فحدث ولا حرج، ونذكر منها ما كان له من ولاية تكوينية، وقد قال الرازي في تفسيره: وقعت الزلزلة في المدينة ف ضرب عمر الدرة على الأرض، وقال: اسكني بإذن الله. فسكنت وما حدثت الزلزلة في المدينة بعد ذلك!.

(١) الغدير ج ٧ ص ٢٨٨، نقلاً عن نزهة المجالس، ج ٢ ص ١٨٤.

(٢) الغدير ج ٧ ص ٢٩٣ نقلاً عن العبيدي المالكي في عمدة التحقيق ص ١٥٤، وقال: هذه كرامة للصديق انفرد بها وحده.

(٣) الغدير ج ٧، نقلاً عن عمدة التحقيق، العبيدي المالكي ص ١٣٤.

ونقل أيضاً : وقعت النار في بعض دور المدينة، فكتب عمر على خرقة : يا نار اسكني بإذن الله، فألقوها في النار فانطفأت في الحال !.

ب - رواية الحديث وتدليس الحقائق :

هناك فنون كثيرة ومتعددة لتزييف الحقائق وتحويلها عند كتاب الأحاديث، فطابع التعصب واضح في كتبهم، فحينما يتعرضون لأحاديث تتضمن فضيلة لعلي عليه السلام أو تمس وتكشف منقصة عند الخلفاء والصحابة، تمتد إليها أيديهم لتقلب حقيقتها، وإليك نماذج من هذه الفنون حتى تقف على الدور الخطير الذي لعبه المحدثون في تزوير الحقائق.

١- النموذج الأول :

لما أراد معاوية أن يأخذ البيعة ليزيد كان عبد الرحمن بن أبي بكر من أشد المعارضين لبيعة يزيد. خطب مروان في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكان والياً على الحجاز من قبل معاوية فقال: إن أمير المؤمنين قد اختاركم، فلم يأل، وقد استخلف لابنه يزيد بعده، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال: كذبت والله يا مروان! وكذب معاوية، ما الخيار أردتماه لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه، والذي قال لوالديه «أف لكما» الآية، فسمعت عائشة مقالته من وراء الحجاب، فقامت من وراء الحجاب وقالت: يا مروان، يا مروان! - فأنصت الناس، وأقبل مروان بوجهه- ، فقالت: أنت القائل لعبد الرحمن أنه نزل فيه القرآن، كذبت والله ما هو به ولكنه فلان بن فلان، ولكنه فضض من لعنه الله. وفي رواية، فقالت: كذب والله ما هو به،

ولكن رسول الله (ص) لعن أبا مروان، ومروان في صلبه فمروان فضض من لعنة الله عز وجل^(١).

ثم تعال وانظر كيف حرّف البخاري ما يشين بمعاوية ومروان:

«كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر (شيئاً) فقال: خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه «والذي قال لوالديه أفٍ لكما» أتعذري؟! فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فيه شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري»^(٢).

فحذف قول عبد الرحمن وأبدله بقول: قال (شيئاً) كما أبدل قول عائشة، كل هذا محافظة على صورة معاوية ومروان. وقد أورد هذه الحادثة ابن حجر في فتح الباري مفصلاً، فانظر إلى أي مدى بلغت النزاهة بالبخاري في نقل الحقائق.

٢ - النموذج الثاني :

حذف البخاري فتوى عمر بعدم الصلاة.

روى مسلم عن شعبه قال: حدثني الحكم عن زر عن سعيد بن عبد الرحمن عن أبيه: أن رجلاً أتى عمر فقال: إني أجنبت فلم أجد ماء. فقال: لا تصلي.

فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبتنا فلم نجد ماء فأما أنت فلم تصل. وأما أنا فتمعكت في التراب وصليت، فقال النبي

(١) تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٤٩ في ذكر حوادث سنة ٥٦ هـ.

(٢) البخاري ج ٣ ص ١٢٦ باب، والذي قال لوالديه من تفسير سورة الأحقاف.

(ص) إنما يكفيك أن تضرب بيدك الأرض ثم تنفخ ثم تمسح بهما وجهك وكفيك!.

فقال عمر: اتق الله يا عمار، فقال: إن شئت لم أحدث به^(١).

بما أن الحديث ظاهر في جهل عمر بأبسط الأحكام الشرعية الضرورية التي يعرفها كل مسلم (التيمم) والتي صرح بها القرآن وعلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيفيتها، ورغم ذلك يفتي عمر بعدم الصلاة، مما يدل على جهله أولاً، ويدل على عدم اهتمامه بالصلاة، بل عدم الصلاة في حالة كونه جنباً كما صرحت الرواية.

وأذكر في هذا المقام أن أحد الأصدقاء كان يناقشني في علم عمر، فقال لي: إن عمر كان يوافق القرآن قبل نزوله.

قلت له: هذه مجرد أخبار لا تمت إلى الواقع بصلة، وإلا كيف يوافق قبل نزوله وهو لم يوافق القرآن بعد أن نزل في حادثة التيمم وتحديد مهور النساء. وقد كان هذا الحديث أعنف صدمة لاقتني في بحثي عن شخصية عمر، لأنه يكشف تماماً عن وزنه العلمي والديني، ومما زاد استغرابي هو إصرار عمر على جهله بعد أن أخبره عمار بالحكم الشرعي في المسألة.

ثم انظر إلى البخاري الذي لم يرق له أن يروي هذه الفتوى التي لم يفتها حتى جهلاء السوق، فأخرج في صحيحه بنفس السند وبنفس المتن غير أنه أسقط الفتوى.

«جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إنني أجنبْتُ فلم أصب الماء. فقال عمار بن ياسر لعمر بن الخطاب: أما تذكر...»^(٢).

(١) صحيح مسلم باب التيمم ج ١.

(٢) صحيح البخاري ج ١ كتاب التيمم، باب التيمم، هل ينفخ فيها.

٣ - النموذج الثالث :

أخرج ابن حجر في فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج ١٧ ص ٣١ حديث: «إن رجلاً سأل عمرَ بن الخطاب عن قوله: (وفاكهة وأبا) ما الأب؟!»

قال عمر: نهينا عن التعمق والتكلف.

قال ابن حجر: أنه جاء في رواية أخرى عن ثابت عن أنس أن عمر قرأ: «وفاكهة وأباً» فقال ما الأب؟!، ثم قال: (ما كُلفنا) أو قال: (ما أمرنا بهذا).

ثم انظر ماذا فعل التعصب بالبخاري فهو يعمل قصارى جهده لينزه عمر والخلفاء من كل ما يلصق بهم فكيف يا ترى يروي هذا الحديث وهو يثبت جهل عمر بالقرآن، لأن ما سأل عنه في غاية البساطة لمن عرف القرآن وأسلوبه، واحتجاج عمر بعدم التكلف لا وجه له لأنه ليس مورداً من موارد التكلف، فالعذر أقبح من الذنب، وعندما سئل الإمام علي عليه السلام نفس هذا السؤال، قال الجواب في نفس الآية ﴿فَاكْهَةٌ وَأَبَا، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ الفاكهة متاعٌ لنا والأبواء متاعٌ للأنعام، وهو نوع من العشب. قال البخاري في صحيحه عن ثابت عن أنس قال: «كنا عند عمر فقال: نهينا عن التكلف»^(١).

إن هذا الحديث كغيره من عشرات الأحاديث التي كانت لا تنسجم مع معتقدات البخاري فاعتمد هذه الطريقة من اسقاطٍ وتبديلٍ وحذفٍ للخير كاملاً، كما فعل بحديث الثقلين «كتاب الله وعترتي..» الذي أخرجه مسلم والحاكم على شرطه، وغيره من الأحاديث الصحيحة التي لم يستطع

(١) صحيح البخاري ج ٩ كتاب الاعتصام باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعلم.

البخاري توجيهها وتحريفها، فتجنب تدوينها في كتابه، وهذا هو السبب الأساسي الذي جعل صحيح البخاري لدى الحكام أصح كتاب بعد كتاب الله ولا أعرف له سبباً غير هذا .

٤ - النموذج الرابع :

وإليك هذه الحادثة التي يظهر لك من خلالها إلى أي مدى يتعمد البخاري تحريف الحقائق، فقد روى علماء السنة وحفاظهم مثل الترمذي في صحيحه، والحاكم في مستدرکه وأحمد بن حنبل في مسنده، والنسائي في خصائصه والطبري في تفسيره، وجلال الدين السيوطي في تفسيره (الدر المنثور)، والمتقي الهندي في كنز العمال، وابن الأثير في تاريخه وغيرهم كثيرون، رروا :

«أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر رضي الله عنه وأمره بأن ينادي بهذه الكلمات وهي براءة من الله ورسوله..»، ثم أتبعهم علياً عليه السلام وأمره بأن ينادي بها هو. فقام علي عليه السلام في أيام التشريق فنادى: إن الله بريء من المشركين ورسوله، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان)، ورجع أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله نزل في شيء؟ قال: لا ولكن جبرائيل جاءني فقال لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك».

وهنا وقع البخاري في معضلة، فهذه الرواية تخالف تماماً مذهبه وعقيدته. فهي تثبت فضيلة لعلي عليه السلام وما أعظمها من فضيلة، وفي المقابل تنتقص أو لا تثبت شيئاً لأبي بكر، فكيف له أن يحور هذه الرواية إلى مصلحته وعقيدته، فيثبت بها منقبة لأبي بكر ولا شيء لعلي.

تعالوا، لكي ننظروا، كيف خرج البخاري بذكائه من هذه المحمصه.

أخرج البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن، باب قوله «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر».

قال: أخبرني حُميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، قال حميد بن عبد الرحمن، ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعلي بن أبي طالب عليه السلام وأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان^(١).

سوف أترك لك أيها القارئ مساحة للتعليق، لكي تنظر إلى هذا التشويه والتحريف، وكيف قضى البخاري على فضيلة علي بن أبي طالب عليه السلام وكيف أثبت لأبي بكر منقبه لم يحلم بها بعد أن عزله الله بوحى من عنده، فقال جبرائيل للرسول صلى الله عليه وآله وسلم: لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك. ثم انظر، كيف جعل الأمر في يد أبي بكر فأصبح هو الأمر والمرسل والمسير للأمر بحضرة رسول الله...! فسبحان مقلب الأحوال من حال إلى حال.

٥ - النموذج الخامس :

اشترك مسلم في صحيحه مع ابن هشام والطبري في حذف جزء من حديث يشين منزلة أبي بكر وعمر.

بعدما نقل ابن هشام أخبار غزوة بدر وتعرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لقافلة قريش التجارية، ذكر استشارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه وقال: «واتاه الخبر عن قريش بمسيرهم

(١) صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٠٢.

ليمنعوا غيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قریش: فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيراً ودعا له.

فيا ترى ماذا كان قول أبي بكر وعمر لرسول الله؟!.

وإذا كان حسناً فلماذا لم يذكره! ولماذا ذكر قول المقداد من دون

قوليهما!؟

ثم نرجع إلى مسلم لكي نرى هل وصل به الغدر أيضاً، ليفعل كما فعل ابن هشام والطبري. روى مسلم: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، شاور أصحابه حين بلغه إقبال أبي سفيان قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ثم تكلم عمر فأعرض عنه... ثم ذكر بقية الحديث»^(١).

وأيضاً لم يذكر مسلم ما قاله أبو بكر وعمر ولكنه كان أكثر صدقاً من ابن هشام والطبري، فقال: «أعرض رسول الله» ولم يقل «وأحسن». رغم أن ما فعله جنابة في حق الحديث. فمن المفترض أن يذكر قولهما، مما يدل على أن في الأمر نكاية. فلماذا أعرض رسول الله عن قولهما إذا كان حسناً!؟

يتضح لنا من الخبرين بعدما حصل فيهم التزوير الواضح أن هناك أمراً لا يليق بالشيخين لم يذكره ولكن أظهر الله نوره ولو كره الكافرون، فقد روي في كتاب المغازي للواقدي وإمتاع الأسماع للمقريزي. بعدما ذكر

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد، باب غزوة بدر ج ٣ ص.

الخبر: فقال عمر: يا رسول الله، إنها والله قريش وعزها والله ما ذلت مذ عزت والله ما آمنت مذ كفرت والله لا تسلم عزها أبداً، ولتقاتلنك فتأهب لذلك أهيته وأعد لذلك عدته.

ومن هنا نعرف سبب إعراض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنه، فهذا الكلام الذي قاله عمر لا يليق بصاحب رسول الله فكيف يدعي أن لقريش عزاً؟

وهل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقصد ذلتها؟

ولكن للأسف، هذه معرفة عمر للإسلام ومنهجه الحضاري.

وهكذا دائماً يخلط البخاري ومسلم الحق بالباطل، ويبدلان الأحاديث التي يشعران منها توهيناً وتنقيصاً لأبي بكر وعمر.



ثالثاً: الكُتَّاب

ودورهم في تحريف الحقائق

واصل دور المحدثين والمؤرخين من جاء بعدهم من كُتَّاب، بذلوا قصارى جهدهم لتزييف الحقائق وتشويه مذهب أهل البيت، بشتى أساليب الدعاية ونشر الأكاذيب، وقد نجح هؤلاء الكُتَّاب نجاحاً كبيراً في تعميق الجهل في نفوس أهل مذهبهم وتوسيع الفجوة بينهم وبين معرفة الحقيقة، فصوروا التشيع بأبشع وأقبح ما يكون من الصور، من جراء ما نسجوه من خرافات وأوهام، ولا أقول هذا مجرد افتراض، إنما عايشت هذا الجهل مدة من الزمن، وأحسست به أكثر عندما تفتحت بصيرتي وأنار الله قلبي بنور أهل البيت، فوجدت مجتمعهم يركد في ركاب من الجهل والافتراءات على الشيعة، فكلما أسأل عن الشيعة سواء كان المسؤول عالماً أو مثقفاً كان يجيبني بسلسلة من الأكاذيب على الشيعة فيقول مثلاً: إن الشيعة تدعي أن الإمام علياً عليه السلام هو الرسول ولكن جبرائيل أخطأ وأنزل الرسالة على محمد، أو أنهم يعبدون الإمام علياً... وغيرها من الأكاذيب التي لا تمت إلى الواقع بصلة، وأشدّ محنة من ذلك عندما يبادرك سؤال حائر:

هل الشيعة مسلمون ؟

وما هو الفرق بين الشيعة والشيوعية ؟

إن هذا الجهل بالتشيع، الذي تعيشه مجموعة كبيرة من الأمة الإسلامية، كان نتاجاً طبيعياً لمجهود هؤلاء الكتّاب، لفرض الجهل المطبق على أبناء هذه الأمة لكي لا يتعرفوا على مذهب التشيع، وهذا هو المخطط الذي بدأ قديماً ليتم مسيرته إلى اليوم، فتجد مئات من الكتب المسمومة ضد الشيعة في متناول يد الجميع، هذا إذا لم تكن توزع مجاناً من قبل الوهابية، ويفترض في هذا الجو المشحون ضد الشيعة أن يُسمح للكتاب الشيعي بالانتشار، حتى تكون المعادلة متكافئة، وهذا ما لم يحصل، فهذه هي المكتبات الإسلامية يكاد يندر فيها الكتاب الشيعي بخلاف المكتبات الشيعية سواء كانت تجارية أو في المعاهد العلمية فهي لا تخلو من كتب ومصادر السنة بجميع خطوطها واتجاهاتها .

والأدهى والأمر من كل ذلك، إذا وفرت لأحدهم كتاباً فإنه لا يقرؤه هذا إذا لم يحرقه بحجة أنه لا يجوز قراءة كتب الضلال ..

وأذكر كيف كان إمام المسجد في قريتنا يُصرح بكفري وضلالتي، ويمنع الجميع من الجلوس معي أو قراءة كتبي. أي منطلق هذا يسلب الإنسان حرية تفكيره ولكنها سياسة الجهل والتجهيل والحصار الفكري.

آ - بعض الكتب التي ألفت ضد الشيعة :

- (١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، للخضري.
- (٢) السنة والشيعة، لرشيد رضا، صاحب (المنار).
- (٣) الصراع بين الوثنية والإسلام، للقصيمي.
- (٤) فجر الإسلام وضحى الإسلام، لأحمد أمين.
- (٥) الوشعية في نقد الشيعة ، لموسى جار الله.
- (٦) الخطوط العريضة، لمحّب الدين الخطب.

٧) الشيعة والسنة - الشيعة والقرآن - الشيعة وأهل البيت - الشيعة والتشيع، احسان إلهي ظهير.

٨) منهاج السنة لابن تيمية.

٩) إبطال الباطل ، للفضل ابن روزبهان .

١٠) أصول مذهب الشيعة ، د. ناصر الغفاري.

١١) وجاء دور المجوس ، عبد الله محمد الغريب.

١٢) التحفة الإثنا عشرية، للدهلوي .

١٣) جولة في ربوع الشرق الأدنى، لمحمد ثابت المصري.

وغيرها من الكتب المغرضة، وقد ردَّ علماء الشيعة على هذه الكتب، وأمثالها بردود وافية ومفصلة.

وقد لاحظت اختلاف المنهجية بين النوعين من الكتب، فتجد كتب الشيعة تهدف إلى تأصيل وإثبات صحة مذهبها بالأدلة والبراهين، اعتماداً على مصادر ومراجع أهل السنة، من غير أن تتهجم على المذاهب الأخرى. أما الكتب التي تحاول الرد على الشيعة فإنها تهدف من الأساس ضرب المذهب الشيعي بأي طريقة كانت حتى ولو كانت بالتهم والافتراءات. والشواهد على ما قلناه كثيرة وسوف نتطرق لها أثناء عرضي لبعض النماذج.

ب - ومن الكتب الشيعية التي ردت وأصلت مذهبها :

١ - الشافي في الإمامة :

يتكون من أربعة مجلدات، أثبت فيه الشريف المرتضى >الإمامة كمبدأً ديني واجتماعي وسياسي، وأثبت بدليل النقل والعقل الصحيح أنها ضرورة دينية واجتماعية، وأن علياً عليه السلام هو الخليفة الحق المنصوص عليه بعد الرسول

صلى الله عليه وآله وسلم، وأن من عارض وعاند فقد عارض الحق والصالح العام. ذكر الشريف جميع الشبهات التي قيلت والتي يمكن أن تقال حول الإمامة، وأبطلها بمنطق العقل والحجة الدامغة^(١).

وهذا الكتاب بمثابة رد على كتاب «المغني» لعبد الجبار المعتزلي.

٢ - كتاب نهج الحق وكشف الصدق، للعلامة الحلبي :

وقد تناول فيه مجموعة من المسائل تنحصر في مسائل :

(١) الإدراك . (٢) النظر . (٣) صفات الله .

(٤) النبوة . (٥) الإمامة . (٦) المعاد .

(٧) أصول الفقه . (٨) فيما يتعلق بالفقه .

ويظهر لقارئ هذا الكتاب أن مؤلفه، كان باحثاً علمياً غير متعصب لرأيه، ولا منحاز لعقيدة ابتداء، ولم يبحث عن الدليل لعقيدته، بل جعل رأيه وعقيدته تابعين للقرآن وخاضعين للدليل.

وقد قام الفضل بن روزبهان الأشعري بنقد هذا الكتاب وسماه إبطال الباطل وإهمال كشف العاطل ولكنه لم يستخدم أسلوب العلامة الحلبي بل كان كثير التعرض والسب، ولكنه في الجملة كتاب يعتمد - نسبياً - الحجة والمناقشة العلمية. ولذلك دفع كثيراً من علماء الشيعة لرد عليه وتبيين مواضع الشبهة فيه .

٣ - إحقاق الحق - للسيد نور الله الحسيني التستري:

كتاب ضخم، ألفه صاحبه في الرد على الروزبهان في كتابه - إبطال الباطل -، وقد علق على هذا الكتاب أي - إحقاق الحق - آية الله شهاب الدين المرعشي النجفي، فبلغ عدد مجلداته خمسة وعشرين مجلداً من الحجم

(١) الشافي ص ١٩، من كلام المحقق.

الضخم، وقد بذل فيه صاحبه الجهد الواضح والشاق من تتبع الأدلة واستخراج الأحاديث والروايات من كتب أهل السنة. وحرى بهذا الكتاب أن يكون في متاحف المسلمين، لما يُعبر عن مجهود فردي جبار، تعجز عن القيام به لجنة مختصة.

٤ - ورد على روزبهان أيضاً، العلامة المظفر، في كتاب من ثلاثة مجلدات، اسمه - دلائل الصدق - وتطرق فيه أيضاً، للرد على كتاب منهاج السنة لابن تيمية، الذي كتبه رداً على العلامة الحلي في كتابه منهاج الكرامة، ولكنه لم يفصل - أي المظفر - في الرد عليه - أي الرد على ابن تيمية - وأشار في المقدمة بقوله: حولوا سفالة مطالبه وبذاءة لسان قلمه، وطول عباراته، وظهور نصبه وعداوته لنفس النبي الأمين وأبنائه الطاهرين لكان هو الأحق بالبحث معه^(١).

٥ - موسوعة الغدير، ١١ مجلداً للعلامة عبد الحسين الأميني:

وهو مجهود جبار بذل فيه مؤلفه، غاية الجهد والمشقة، أثبت فيه بكل الطرق والأدلة مذهب أهل البيت (ع)، ومما يزيد عجبك فيه، أن مؤلفه جمع فيه من المصادر التي بلغت ٩٤٠٠٠، مصدراً من كتب أهل السنة. وقد تعرض فيه للرد على بعض الكتب السننية التي تعرضت للشيععة، مثل:

- | | |
|-----------------------|-----------------------|
| ١ - العقد الفريد. | ٢ - والفرق بين الفرق. |
| ٣ - الملل والنحل. | ٤ - منهاج السنة. |
| ٥ - البداية والنهاية. | ٦ - المحصر. |
| ٧ - السنة والشيععة. | ٨ - الصراع. |

(١) دلائل الصدق ج ١ ص ٣.

- ٩- فجر الإسلام. ١٠ - ظهر الإسلام.
 ١١ - ضحى الإسلام. ١٢ - عقيدة الشيعة .
 ١٣ - الوشيعة .

وقد أحسن وأجاد في الرد عليهم بالحجج والأدلة الباهرة والبراهين الساطعة .

وقد تميز بالنقاش الموضوعي الذي لا يميل إلى التعصب والجدل.

٦ - وأيضاً من الموسوعات الضخمة، التي أثبتت مذهب التشيع، وردت على أعدائه، كتاب (عبقات الأنوار في إمامة الأئمة الأطهار) للسيد حامد حسين ابن السيد محمد قلي الهندي، ولم أحصل على نسخته الأصلية، وحصلتُ على ملخص له اسمه (خلاصة عبقات الأنوار) للمؤلف علي الحسيني الميلاني. يتكون من ١٠ مجلدات، وهو ردٌ على كتاب «التحفة الإثنا عشرية» لعبد العزيز الدهلوي، وهو نقد لعقائد الشيعة، وقد رد عليه مجموعة من علماء الشيعة بعدد من الكتب، منها كتاب «السيف المسلول علي مخربي دين الرسول» لأبي أحمد بن عبد النبي النيسابوري، وكتاب من أربع مجلدات، كل مجلد منها باسم للسيد دلدار علي التقى، وكتاب «النزهة الإثنا عشرية» للميرزا محمد الكشميري، وكتاب «الأجناد الإثنا عشرية المحمدية» للسيد محمد قلي وهو مجموعة من المجلدات الضخمة، وكتاب الوجيز في الأصول للشيخ سبحان علي خان الهندي، وكتاب الإمامة للسيد محمد بن السيد، وله ردٌ آخر بالفارسية سماه «البوارق الإلهية».

وغيرها من الكتب التي ردت على الدهلوي، ذكرها صاحب كتاب الذريعة، وكتاب أعيان الشيعة، ومن أعظم هذه الردود هو كتاب العبقات «وتجلى عظمة المؤلف ودقته في النظر، واحاطته بالعلوم، وتبعه للأقوال، وأمانته في النقل العلمي بقواعد البحث، في أساليبه في الرد على الإشكالات

أو النقد للاستدلالات، لقد قطع رحمه الله بأقوى الحجج وأمتن البراهين كافة الطرق والذرائع، ودفع جميع الشكوك والشبهات، حتى لم يبق للخصوم أي طعن في المذهب أو قدح في دليل أو تضعيف لحديث... إلا ودفعه بالتالي هي أحسن ورد عليه الرد الجميل بتحقيقات أنيقة وتدقيقات رشيقة واحتجاجات برهانية والزامات نبويه، واستدلالات علويّة، ونغوض رضوية، مستنداً في ذلك كله إلى كتب أهل السنة، ومستدلاً بأقوال أساطين علمائهم في مختلف العلوم والفنون، ولقد تناول كل كلمة جاءت في التحفة راداً عليها أو منتقداً لها^(١).

وقد ساعده على ذلك مكتبة أسرته الشهيرة التي فاقت ٣٠ ألف كتاب من مطبوع إلى مخطوط من مختلف المذاهب والفرق، ولم نجد - إلى يومنا هذا - كتاباً في الرد عليه، رغم أن كتاب التحفة، قد دارت حوله الردود. فأول من رد عليه السيد دلدار علي في كتابه الصوارم الإلهية وكتاب صارم الإسلام، فرد عليه رشيد الدين الدهلوي، تلميذ صاحب التحفة بكتاب - الشوكة العمرية - فرد عليه باقر علي بكتاب - الحملة الحيدرية - كما ردّ على التحفة الميرزا في كتابه «النزهة الإثنا عشرية» فرد عليه أحد السنة بكتاب «رجوم الشياطين»، فرد عليه السيد جعفر الموسوي بكتاب «معين الصادقين في رد رجوم الشياطين».

كما رد على التحفة أيضاً، السيد محمد قلي والد صاحب العباقيات بكتاب «الأجناد الإثنا عشرية المحمدية» فرد عليه محمد رشيد الدهلوي، فعاد السيد ورد عليه بكتاب «الأجوبة الفاخرة في الرد على الأشاعرة» حتى حسم هذا الأمر صاحب العباقيات، فلم يُرد عليه. وهذا كافٍ للدلالة على العجز.

(١) من كلام المحقق.

٧ - معالم المدرستين، للمرئضى العسكري.

وهو من الكتب المقارنة بين مدرسة أهل البيت ومدرسة الخلفاء، اعتمد صاحبه الموضوعية والنقاش العلمي الدقيق، وهو من ثلاثة أجزاء.

٨ - المراجعات، لعبد الحسين شرف الدين:

وهو مناظرة جرت بينه، وبين شيخ الأزهر سليم البشري، ويعتبر من المناظرات النادرة التي التزم فيها المتناظران الأسلوب الهادئ والحوار الأخلاقي، ولعبد الحسين كتب أخرى كثيرة في هذا المجال، من بينها النص والاجتهاد، والفصول المهمة في تأليف الأمة، والكلمة الغراء في تفضيل الزهراء، وكتاب «أبو هريره».

وهناك ردود متعددة من علماء الشيعة على كتب السنة مثل :

١- أجوبة مسائل جار الله لعبد الحسين شرف الدين الموسوي.

٢- مع الخطيب في خطوطه العريضة، للطف الله الصافي.

٣- شبهات حول الشيعة .

٤- كذبوا على الشيعة .

* علماء السنة ومثقفوها يتشيعون :

قد تمكنت مجموعة من نخبة السُّنة وعلمائها من كسر الأغلال وتعددي حواجز الكبت الإعلامي، لتفتح على العلوم والمعارف الأخرى وكان من بينها التشيع كمذهب له تاريخه ومعارفه وثقافته مما أدى إلى انجلاء سحاب التعتيم الداكن على سماء الحقيقة فلم يسعهم إلا إعلاء صرخة الحق وإعلان ولائهم لنهج أهل البيت (ع).

وقد ضم هذا الموكب آلافاً من أصحاب الفكر والأقلام الحرة قديماً وحديثاً، لا يسعنا المجال لذكرهم وإنما نكتفي بذكر نماذج منهم:

١- المحدث الجليل أبو النفر محمد بن مسعود بن عياش المعروف بالعياشي، كان من كبار علماء السنة قبل تشيعه، وهو يُعد من كبار علماء الشيعة الإمامية، له تفسيره المأثور (تفسير العياشي).

٢ - الشيخ محمد مرعي الأمين الأنطاكي، تخرج من الأزهر وتقلد منصب قاضي القضاة في حلب، وله مركزه العلمي والاجتماعي، وقد هداه الله تعالى للالتزام بمنهج أهل البيت (ع) وله كتاب مطبوع ومنتشر «لماذا اخترت مذهب الشيعة» وقد تشيع معه آلاف من أهالي حلب.

٣- الشيخ سليم البشري، وهو من علماء أهل السنة والجماعة، قد تزعمَ مشيخة الأزهر الشريف مرتين في حياته، وقد جرت بينه وبين عبد الحسين شرف الدين وهو من علماء الشيعة حوارات متعددة جمعت في كتاب يسمى بـ «المراجعات» وقد أسفر هذا الحوار الهادي عن تشيع الشيخ سليم البشري فقد صرَّحَ في أول محاوره أنه غير متعصب بقوله:

«وإنما أنا نشاد ضالة، وبِحاث عن حقيقة، فإن تبين الحق، فإن الحق أحق أن يُتبع، وإلا فأنا كما قال القائل:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف» (١)

وبعد الحوارات التي أفصحت عن علم الطرفين، وعظيم قدرهما وأخلاقهما وتجردهما للحقيقة، يصرح الشيخ سليم البشري في آخر المطاف بقوله: «حتى برح الخفاء، وصرح الحق عن محضه، وبان الصبح لذي عينين، والحمد لله على هدايته لدينه، والتوفيق لما دعا إليه من سبيله، وصلى الله عليه وآله وسلم» (٢).

(١) المراجعات ص ٥٩.

(٢) المصدر السابق ص ٤٢٤.

٤ - الشيخ محمود أبو رية، عالم وكاتب مصري له كثير من الكتب والإبداعات من بينها: «أضواء على السنة المحمدية»، وكتاب «أبو هريرة شيخ المضير». </p></div>

٥ - المحامي أحمد حسين يعقوب، وهو كاتب أردني متشيع له كتاب «نظرية عدالة الصحابة» وكتاب «الخطط السياسية لتوحيد الأمة الإسلامية».</p></div>

٦ - الدكتور التيجاني السماوي، وهو تونسي متشيع وله مجموعة من الكتب منها: «ثم اهتديت» و «لأكون مع الصادقين» و «فاسألوا أهل الذكر» و «الشيعة هم أهل السنة».</p></div>

٧ - الكاتب الصحفي السيد إدريس الحسيني من المغرب العربي، له «لقد شيعني الحسين» و «الخلافة المغتصبة» و«هكذا عرفت الشيعة» مخطوط.</p></div>

٨ - صائب عبد الحميد، له كتاب «منهج في الانتماء المذهبي».</p></div>

٩ - سعيد أيوب، له كتاب «عقيدة المسيح الدجال» يقول في بداية كتابه: «لقد وجدني داخل البحث أحاولُ إزالة الركام عن الحقائق، حتى تكون الحقيقة واضحة أمام العيون والعقول، ذلك الركام الذي وضعه أساتذة التعتيم على امتداد التاريخ البشري! وعندما أمسكتُ بالمعول الذي أزيل به شبك الاتواء، كانت عندي الأسباب الكافية لإنجاز هذا العمل»^(١). وله كتاب «معالم الفتن» يتكون من جزئين.</p></div>

١٠ - الكاتب المصري صالح الورداني له كتاب «الخدعة - رحلتي من السنة إلى الشيعة - حركة أهل البيت (ع) - الشيعة في مصر - عقائد السنة وعقائد الشيعة التقارب والتباعد».</p></div>

١١ - الكاتب المصري، محمد عبد الحفيظ، له كتاب «لماذا أنا جعفري».</p></div>

(١) عقيدة المسيح الدجال ص ٩.

- ٢٠٨ -

١٢ - الكاتب السوداني، الأستاذ السيد عبد المنعم محمد الحسن، وله كتاب «بنور فاطمة اهتديت».

١٣ - الشيخ عبد الله ناصر من كينيا، تشيع بعد أن كان من كبار مشايخ الوهابية وله كتب عديدة في هذا المجال منها: «الشيعة والقرآن»، «الشيعة والحديث»، «الشيعة والصحابة»، «الشيعة والتقية»، «الشيعة والإمامة».

١٤ - سماحة العالم والخطيب والمناظر السيد علي البدري، له خدمة واسعة في نشر مذهب أهل البيت (ع) بعد أن تشيع، فطاف العالم وهو يعقد المناظرات المتعددة وقد ضمنها كتاب ضخيم في طريقه إلى المطبعة تحت عنوان «أحسن المواهب في حقائق المذاهب».

١٥ - الكاتب السوري السيد ياسين المعيوف البدراني، له كتاباً تحت عنوان «يا ليت قومي يعلمون».

ج - نماذج من تحريفات الكُتَّاب :

وهي كثيرة يطول بنا المجال في سردها، فجلُّ الكتب التي ردت على الشيعة لم تقصد إلا التشويه والتزوير ونشر التهم والأكاذيب. هذا بالإضافة إلى اعتمادهم على الكتب السنية في رد المعتقدات الشيعية، وهذا غير منهجي في باب الاحتجاج والمناظرة .

يقول الشيخ المظفر في ذلك: «إعلم أنه لا يصح الاستدلال على خصم إلا بما هو حجة عليه، ولذا ترى المصنف رحمه الله وغيره - أي العلامة الحلي - إذا كتبوا في الاحتجاج على أهل السنة التزموا بذكر أخبارهم لا أخبارنا، والقوم لم يلتزموا بقاعدة البحث ولم يسلكوا طريق المناظرة»^(١). كما أنهم يعتمدون في الرد على التصوير المجمل لعقائد الشيعة من غير الرد المنطقي لكل جزئية من جزئيات المذهب، وهذا غير منصف في باب الأمانة

(١) دلائل الصدق ج ١ ، المقدمة .

العلمية، فتجد الدكتور ناصر الغفاري يقول في مقدمة كتابه «أصول مذهب الشيعة» ص ١٥: «.. لأن في جملة من العقائد ما يكفي لمعرفة حقيقتها بمجرد عرضها، ولهذا ذكر شيخ الإسلام، ابن تيمية أن تصور المذهب الباطل يكفي في بيان فساد، ولا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر». وإذا صح هذا فلا بد أن يكون المصور للعقيدة مؤمناً معتقداً بها، حتى يكون له الحرية الكافية في توضيح معتقداته، ومن الإجحاف أن يأتي طرفٌ دخيل ليصور عقائد غيره بأبشع الصور. وما يقول به ابن تيمية هو ضربٌ من سياسة التجهيل على أتباعه عندما يصور لهم المذاهب التي تخالفه بالصورة التي يريدها، ولو كان هذا كافٍ للحجة لكان ذلك الكافر الذي يعيش في أوروبا الحامل صورة مشوهة عن الإسلام بسبب تصوير المستشرقين وأعداء الدين، معذوراً في ذلك، ولكن هذا كلام ضعيف ومنهجية خاطئة لا تصلح للاستدلال، ومع الأسف هذا هو ديدنهم، وإليك بعض النماذج من التحريفات.

(١) كتاب، أصول مذهب الشيعة، د. ناصر عبد الله الغفاري، الذي هو عبارة عن رسالة دكتوراه، من جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ونال بها مرتبة الشرف الأولى

١ - من افتراءاته على الشيعة :

أ - قوله: «إذن فالشيعة تحارب السنة، لهذا فإن أهل السنة اختصوا بهذا الاسم لاتباعهم سنة المصطفى (ص)»^(١). ثم بعد ذلك يحاول أن يُخرِّج من تلك الروايات الشيعة التي توجب اتباع السنة. فيقول: «غير أن الدارس لنصوص الشيعة ورواياتها قد ينتهي إلى الحكم بأن الشيعة، تقول

(١) ج ١ ص ٣٠١.

بالسنة ظاهراً، وتكرها باطناً، إذ أن معظم رواياتهم وأقوالهم تتجه اتجاهاً
مجانفاً للسنة التي يعرفها المسلمون، في الفهم والتطبيق، وفي الأسانيد،
والمتون...^(١).

أما قوله: إن الشيعة تحارب السنة، فلا محل له، فكتب الحديث عند
الشيعة تفوق أضعافاً مضاعفة كتب أهل السنة، بل روايات الكافي وحدها
تزيد على روايات الصحاح الستة، هذا بالإضافة إلى العديد من الموسوعات
الضخمة في الحديث كبحار الأنوار الذي بلغ عدد مجلداته ١١٠ مجلد.
فإذا كان الشيعة يحاربون السنة فلماذا هذه الموسوعات الضخمة؟
أم ماذا يقصد بالسنة؟.

هل هي ما رواه أهل السنة في صحاحهم؟.

إذا كان نعم، فهذا حجة عليهم لا على الشيعة.

وقوله: «إن معظم رواياتهم وأقوالهم تتجه اتجاهاً مجانفاً...». هذا من
عجيب القول فإذا كانوا من الأصل يوافقون السنة في الأحاديث سنداً وامتناً
وتطبيقاً وفهماً لم يكن هناك داعٍ للاختلاف. فالشيعة يؤمنون بسنة رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم ويلتزمون بها، واحتكار أهل السنة لسنة رسول
الله هذا أمرٌ غير منصف.

ثم ثانياً: هل أنت وقومك محور الدين تقيس كل شيء بنفسك؟! أي
عدلٍ يحكم بذلك.

ب - تحريفه للحقائق في نقل النصوص المتبورة التي تغير المعنى، وهو
يقول في آخر مقدمته: «واهتمتُ بالنقل الحرفي في الغالب رعاية للموضوعية
وضرورة الدقة في النقل والعدو، وهذا ما يفرضه المنهج العلمي في نقل كلام
الخصوم».

(١) ج ١ ص ٣٠٧.

فهل التزم - حضرة الدكتور - بذلك؟

(١) ذكر في ص ٢٥٢ ج ٢، في كلامه عن رؤية الله حديثاً عن ابن بابويه القمي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) قال: قلت له: أخبرني عن الله عز وجل، هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟
قال: نعم .

وينقل هذه الرواية من كتاب التوحيد ص ١١٧ ولكن لم يذكر الرواية كاملة مما غير المعنى تماماً. وإليك الرواية كاملة ولك الحكم.
قال: قلت له: أخبرني عن الله عز وجل. هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟
قال: نعم، وقد رأوه قبل يوم القيامة .
فقلت : متى ؟

قال: حين قال لهم، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ. قالوا بلى». .
ثم سكت - أي الإمام - ساعة ثم قال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، أَلَسْتَ تراه في وقتك هذا؟
قال أبو بصير، فقلت له: جعلتُ فداك، فأحدث بهذا عنك.
فقال: لا ، فإنك إذا حدثت به. فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقول
ثم قدر أن ذلك تشبيه، كفر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون.

فترى كم هو الفارق بين المعنى الأول والثاني، بل المعنى الأول بمنطوق الرواية كاملة هو من قول المشبهين والملحدين.

ولماذا لم ينقل قول الإمام الباقر عندما سأله الخارجي، قال له يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟

قال: الله .

قال: رأيتَه ؟

قال: بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رآته القلوب بحقائق الإيمان، لا يُعرف بالقياس ولا يُدرك بالحواس، موصوف بالآيات، معروف بالدلالات ولا يجوز في حكمه، ذلك الله لا إله إلا هو»^(١).

(٢) ومن الشواهد أيضاً على بتر الرواية، كلامه في الكيفية لله. فينقل رواية من بحار الأنوار عن أبي عبد الله جعفر الصادق بأنه سُئل: «عن الله تبارك وتعالى، هل يُرى في الميعاد؟

فقال: سبحان الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً... إن الأبصار لا تدرك إلا ماله لون وكيفية، والله خالق الألوان والكيفية»^(٢).

ويقول تعقياً لذلك: «ويظهر أن الحجة التي احتج بها هؤلاء الذين وضعوا هذه الرواية على جعفر تتضمن نفي الوجود الحق، لأن ما لا كيفية له مطلقاً لا وجود له»^(٣). ونعلق على هذه القاعدة أولاً، ثم نذكر الشاهد في بتر الحديث.

قوله: «ما لا كيفية له مطلقاً لا وجود له».

وذكر هذه القاعدة - الغريبة من نوعها - نقضاً لحديث الإمام الصادق عليه السلام المتقدم. وحقيقة أن عقلاً لم يتنور برواية أهل البيت وترى على مرويات كعب الأخبار ووهب بن منبه لا يفهم أحاديث أهل البيت.

فماذا يعني بقوله: «مطلقاً». هل يعني ما لا كيفية له من مطلق

مقولات الكيف؟

وإذا كان يعني ذلك، نعم فالله سبحانه وتعالى خارج من مقولات الكيف. لا يحاط بأين أو جهة أو مكان. ومن يقول إن الله يكيف بهذه

(١) الاحتجاج ص ٣٢١.

(٢) ج ٢ ص ٥٥١.

(٣) نفس المصدر السابق.

المقولات المعروفة في الكيف فقد كفر، ووصف الله بأوصاف المادة، لأن الكيفية من لوازم الجسمية والمحدودية والله غير محدود وغير مادة، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه الكاتب، عندما تصور الله سبحانه وتعالى وكيف وكيف، وهذا يرجع إلى نزعة الحسية فلا يستطيع أن يفهم إلا في حدود الحس، ولذلك ينكر وجود كل موجود خارج عن اطار الكيف.

إما إذا كان يقصد كيفاً خارجاً عن مقولات الكيف المعروفة، فلا يسمى هذا كيفاً. فكلامه إذن لا وجه له.

ثم يذكر جزء من رواية ليؤيد بها كلامه ويثبت التناقض في روايات الشيعة، يقول: كما أن هذا يناقض ما رواه صاحب الكافي عن أبي عبد الله أنه: <... ولكن لا بد من إثبات أن له كيفية لا يستحقها غيره، ولا يشارك فيها ولا يحاط بها، ولا يعلمها غيره>^(١).

وإليك الرواية بتمامها لكي أثبت لك خلاف ما ادعاه :

<قال السائل: فقد حددته إذا أثبت وجوده، قال أبو عبد الله ~~عليه السلام~~: >لم أحده، ولكنني أثبتته، إذ لم تكن بين النفي والإثبات منزلة، قال السائل: فله أية وماهية؟ قال ~~عليه السلام~~: نعم لا يثبت الشيء إلا بأنيّة وماهية. قال السائل: فله كيف؟ قال: لا، لأن الكيفية جهة الصفة والإحاطة، ولكن لا بد من الخروج من جهة التعطيل والتشبيه، لأن من نفاه فقد أنكره ورفع ربوبيته وأبطله، ومن شبهه بغيره فقد أثبت بصفة المخلوقين المسموعين الذين لا يستحقون الربوبية ولكن لا بد من إثبات أن له كيفية لا يستحقها غيره، ولا يشارك فيها ولا يحاط بها ولا يعلمها غيره>^(٢).

(١) المصدر السابق .

(٢) الشافي في شرح الكافي ج ٢ ص ٦٢ .

اقرأ وتأمل المعنى الذي يستفاد من هذه الرواية، فإنه مغاير تماماً لما قاله: «ما لا كيفية له مطلقاً لا وجود له» فقول الإمام للسائل: «فله كيفية؟ قال: لا».

رداً على هذه القاعدة التي استدل عليها بالحديث وهو مبتور، فالكيفية التي يقصدها الكاتب ويعتقد بها هي الكيفية التي من عوارض الموضوع، وقد نزهه الإمام منها بجوابه للسائل: «لأن الكيفية جهة الصفة والإحاطة» وهذا لا يجري على الله سبحانه وتعالى وأما الكيفية التي قالها الإمام في آخر الحديث: «كيفية لا يستحقها غيره، ولا يشارك فيها.. فهذه الكيفية إن سُميت كيفية فهي ضربٌ من الجاز لقصور مفردات اللغة وما سُميت كيفية إلا من باب الاشتراك اللفظي، فاشترك اللفظ واختلف المعنى.

وقد روى هذه الرواية ابن بابويه القمي بنفس السند ونفس المتن: «... ولكن لا بد من إثبات ذات بلا كيفية لا يستحقها غيره ولا يشارك فيها ولا يحاط بها ولا يعلمها غيره»^(١).

فهذه الرواية ترفع الاشتباه وتبين تمام المقصود، وهي نفى كل كيفية، لأن إثباتها لله هو عين التشبيه بل المراد منها إثبات جميع صفاته الكمالية، وهي عين ذاته.

٢) إحسان إلهي ظهير :

وهو من أكثر الكتاب عداوةً للشيعة، وله في الرد عليهم مجموعة من الكتب بين يدي منها أربعة:

(١) الشيعة والسنة.

(٢) الشيعة وأهل البيت.

(١) التوحيد، للشيخ الصدوق ص ٢٤٧.

(٣) الشيعة والقرآن.

(٤) الشيعة والتشيع.

وقد استخدم كل طاقاته في الرد عليهم والتعرض لأفكارهم، ويا ليته كان نزيهاً أميناً حسن الخلق والأدب، فقد افترى على الشيعة ما يشيب منه الصغير ويهرم فيه الكبير، وأنا أدعو كل صاحب عقل صائب أن يقرأ كتبه، ثم يلاحظ، أولاً: أسلوبه، وثانياً: افتراءاته، وثالثاً: تزويره. بعد مراجعة كُتب الشيعة التي تتناول نفس الموضوع.

وأكتفي في هذا المقام، بذكر بعض الشواهد، لأن المقام لا يسمح بالرد والتفصيل، وقبل أن أتعرض لتزويره للحقائق، أشير إلى ملاحظتين سريعتين على منهجه في الطرح وأسلوبه في عرض الأفكار.

أ - الملاحظة الأولى: يركز منهجه على سرد معتقدات الشيعة بأسلوب مشوه، تحت عناوين منفرة. حتى يشكل حججاً بين القارئ وبين معتقدات الشيعة، ومن المفترض أن يتبع منهجاً سليماً في الرد بأن يذكر معتقدات الشيعة أولاً، ثم يذكر أدلتهم عليها وبعد ذلك يردّها بالدليل والبرهان، ثم يستدل على ما يعتقد به.

ومثال لذلك، يذكر في كتابه [الشيعة والسنة] ص ٥٣، تحت عنوان، مسألة البداء يقول: «وكان من الأفكار التي روجها اليهود، وعبد الله بن سبأ (أن الله يحصل له البداء) أي النسيان والجهل تعالى الله عما يقولون».

ثم يذكر روايات من كتب الشيعة حول البداء، من غير أن يذكر أدلة الشيعة على البداء من الكتاب وروايات البخاري ومسلم، وأقوال علماء السنة، ومن العقل، ومن غير أن يوضح مفهوم الشيعة للبداء. بل يعرفه من عنده بـ: «النسيان والجهل» ويبنى على هذا التعريف الخاطيء تفسيره لروايات الشيعة للبداء. وحاله هذا كحاله في مسألة التقيّه، فيذكر ص ١٢٧ تحت

عنوان «الشيعية والكذب». ويبدأ قوله: «الشيعية والكذب كأنهما لفظان مترادفان لا فرق بينهما، تلازما من أول يوم أسس فيه هذا المذهب وكون فيه، هذا فما كانت بدايته إلا من الكذب وبالكذب...».

ثم يبرهن على ذلك فيقول: «ولما كان التشيع وليد الكذب أعطوه صيغة التقديس والتعظيم وسموه بغير اسمه، واستعملوا له لفظة (التقية)..».

أسألكم - بالله - أيُّ منهجٍ هذا في المناقشة العلمية، تهجم وسخرية من غير فهم، فكيف جاز له أن يفسر التقية بالكذب؟، وقد استخدم القرآن هذا اللفظ قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً..﴾ آل عمران .٢٨

وبالمعنى في آية أخرى :

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ..﴾ النحل ١٠٦.

والتقية بمعنى إخفاء الإيمان وإظهار خلافه، إذا خاف الإنسان على نفسه وماله وعرضه، وهذا ما لا يخالف فيه أحد من المسلمين، لأن الذي يُكره لا يُحاسب فيما أكره عليه، بل أحياناً يجب عليه ذلك إذا تعلق الضرر بالآخرين، أو على مصلحة الرسالة والدين كما فعل مؤمن آل فرعون، وفي حالة الاضطرار يرتفع الحكم من الموضوع.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة ١٧٣.

ولم يرد إحسان ظهير من هذا إلا الخدعة والمكر بطريقة ذكية. فيفسر التقية بالكذب ويرسلها إرسال المسلمات، وعندما يثبت هذا في ذهن القارئ

بحشد له مجموعة من الروايات الشيعية التي تصرح بالتقية، فيضع القارئ في مكان (التقية) كلمة (الكذب)، فيخرج بمعان تجعله ينفر مما يقوله الشيعة. ولست هنا في مقام الرد أو إثبات ما يقوله الشيعة لأنه لم يكن أهلاً للمناقشة والأدلة ولم يذكر دليلاً واحداً مخالفاً حتى يرد عليه، وما يهمنا هنا هو بيان أسلوبه ومنهجه فقط.

ب - الملاحظة الثانية :

من غير المنطقي التهكم على عقائد الغير ومحاکمتها لأنها تخالف معتقداتك، ولكن مع الأسف هذا أسلوبه وأسلوب غيره من الكتاب - كل شيء يخالف ما قلناه. صلاتهم غير صلاتنا وصومهم غير صومنا وزكاتهم غير زكاتنا...

كأنما هم محور الدين وأئمة المسلمين، لا بد أن يدور كل شيء حول رحاهم، متجاوزين بذلك القاعدة التي تقول نحن مع الدليل نميل معه حيثما مال.

وهذا مخالف لمنهج القرآن في المباحثة والمناظرة العلمية، الذي يعترف بالطرفين، فيعلم الله رسوله، كيف يخاطب الكفار والمشركين. قال تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلی هُدىٰ أو فی ضلال مبین﴾ سبأ ٢٥.

فانظر هذا التعامل الأخلاقي النبيل، فلم يقل لهم إني على حق وأنتم على ضلال، بل قال إما نحن أو أنتم على حق أو على باطل.. فهذا هو منهج القرآن عندما طرح للجميع حرية المناقشة قائلاً: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.

فكان رسول الله (ص)، يسمع براهينهم ويردها بالتالي هي أحسن، وقد سجل القرآن نماذج كثيرة سواء كانت مع رسول الله (ص)، أو مع الأنبياء

السابقين، ففي قصص إبراهيم ونمرود، وموسى وفرعون، خير عبر، وقد أثبت الله سبحانه وتعالى حجج وبراهين الكافرين في قرآنه، وأعطاهم من القداسة ما أعطى غيرها من الآيات ولم يجوز لمسلم أن يمسه من غير وضوء. بناء على الفقه الشيعي.

أين إحسان.. ظهير، وأمثاله من هذا المنهج القرآني الأصيل، وهو يفتخر بنفسه وجماعته قائلاً: «قرأ القرآن الذين يتلونونه أثناء الليل وأثناء النهار»^(١).

فما فائدة من يقرأ القرآن ويتلوا آياته ولا يتدبرها، ويستخلص منها الرؤى والبصائر، التي تكشف له طريقه في الحياة، ويستنطقها كيفية التعامل مع الآخرين، الذين يخالفونه في العقيدة والمذهب، ولكن صدق الإمام علي عليه السلام حينما قال: «كم قارئ للقرآن والقرآن يلعنه».

آ - نماذج من تزويراته :

(١) نقل في كتابه الشيعة وأهل البيت ص ٤٠ نصاً للإمام علي عليه السلام من نهج البلاغة، مستدلاً على أن الإمام علي عليه السلام معترفٌ بالشورى وليس بالنص، وأن شورى المهاجرين والأنصار هي رضا الله، ولا تنعقد الإمامة بدونهم، هذا ما استخلصه من النص، وهو كما تعلم نقض كامل لما تقوله الشيعة، وإليك النص الذي استنتج منه ذلك: «إنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل، وسموه إماماً كان ذلك رضا الله، فإن خرج خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى».

(١) الشيعة والقرآن، ص ٧.

وبعد رجوعي إلى المصدر تبين لي أن الرجل غير أمين في نقله، فإنه اقتطع ما يعجبه من وسط الكلام وترك صدره وآخره، حتى يزيّف الحقيقة ويجرفها.

وإليك تمام النص الذي يتغير بتمامه كل المفهوم، ويتضح أن ما ذكره الإمام عليه السلام كان من باب ألزومهم بما ألزموا به أنفسهم، وهو عبارة عن خطاب من علي عليه السلام إلى معاوية :

«إنه بايعني القوم، الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان علي ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا.... ولعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هোক لتجدني أبرا الناس من دم عثمان، ولتعلمنّ أنني كنتُ في عزلة عنه، إلا أن تتجنّي فتجنّ ما بدا لك والسلام»^(١).

فاحتج أمير المؤمنين على معاوية بنفس ما يحتج به معاوية وأتباعه إلى اليوم بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، فألزمه علي عليه السلام بحجته - أي حجة معاوية نفسه -، فقال: إن كانت بيعة الخلفاء قبلي صحيحة فيبيعتي مثلهم، فقد بايعني الناس ولا طريق لمنكر بعد ذلك، فليس لشاهد البيعة أن يختار كما حدث في بيعة عمر بعدما عينه أبو بكر، فلم يكن لهم خيرة بعد تعيينه، ولا للغائب أن يرد ذلك، كما لم يتمكن الإمام عليه السلام من رد بيعة أبي بكر في السقيفة، لأنها كانت خفية، فهذه هي الشورى التي ادعيتموها، سواء كانت في إمرة أبي بكر أو عمر أو عثمان، فهي رضا لله كما تدعون، فلا يجوز أن يخرج منها خارج وإلا رد كما ردوا ما نعي الزكاة عندما امتنعوا عن دفعها إلى أبي بكر، لأنه لم يكن الخليفة الشرعي في نظرهم فليس

(١) نهج البلاغة، شرح محمد عبده ص ٢٢.

لك مناصب يا معاوية لأنه قد اجتمع الناس إلى مبايعتي. إلا أن تتجنى، فتجنّ ما بدا لك.

هذا هو المعنى الذي يُستفاد من جملة السياق، ولكنه لم يرق لهوى إلهي ظهير.

(٢) أورد في كتابه حديثاً من التفسير المنسوب إلى الحسن العسكري، يقول فيه: «إن رجلاً من يفيض آل محمد، وأصحابه الخيرين.. أو واحد منهم يعذبه الله عذاباً.. لو قسم على مثل عدد خلق الله لأهلكهم أجمعين»^(١).

ثم يقول: ولأجل ذلك قال جده الأكبر، علي بن موسى الملقب بالرضا - الإمام الثامن عند الشيعة - حينما سُئل: عن قول النبي صلى الله عليه وآله: أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم. وعن قوله عليه السلام: دعوا لي أصحابي: فقال عليه السلام: هذا صحيح»^(٢).

ويريد أن يستدل بذلك على أن نظرة أهل البيت للصحابة، كانت تعتبر عدالتهم جميعاً فلا يحق للشيعة الطعن أو الجرح في أحد منهم، وإلا يكونوا مخالفين لأقوال أئمتهم.

تأمل إلى هذا الكذب الصريح عندما أنقل إليك تمام النص :

«قال: حدثني أبي، قال سئل الرضا عليه السلام عن قول النبي (ص): أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم، وعن قوله: دعوا لي أصحابي، فقال عليه السلام: هذا صحيح يريد من لم يغير بعده ولم يبدل، قيل: وكيف يعلم أنهم قد غيروا أو بدلوا؟ قال: لما يروونه من أنه (ص) قال: ليزادن برجال من أصحابي يوم القيامة عن حوضي، كما تزداد غرائب الإبل عن الماء، فأقول: يارب أصحابي، أصحابي.

(١) الشيعة وأهل البيت، ص ٤١-٤٢.

(٢) الشيعة وأهل البيت. ص ٤١-٤٢.

فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؟ فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: بُعداً لهم وسحقاً لهم. فترى هذا لمن لم يغير ولم يبدل»^(١).

انظر ما فعلته الخيانة في نقل الحديث كيف غيرت مفهومه تماماً، ألم أقل لكم أنه كذاب!؟

وقول الإمام عليه السلام: «لما يروونه» أي ما يرويه محدثوهم وحفاظهم من أهل السنة والجماعة، وتصديقاً لقول الإمام عليه السلام، سوف أنقل لك بعض الروايات التي جاءت في البخاري ومسلم.

روى البخاري في تفسير سورة المائدة، باب أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك، وتفسير سورة الأنبياء كما رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحشر، وتفسير سورة طه: «وانه يجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح «وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم»، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم، مُدَّ فارقتهم».

وروى البخاري في كتاب الدعوات باب الحوض، وابن ماجه كتاب المناسك باب الخطبة يوم النحر، حديث رقم ٥٨٣٠، كما أورده أحمد في مسنده بطرق متعددة :

«ليردن عليّ ناس من أصحابي الحوض حتى إذا عرفتهم، اختلجوا دوني فأقول: أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك».

وفي صحيح مسلم: كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا، الحديث

٤٠: «ليردن عليّ الحوض رجالاً ممن صاحبني حتى إذا رأيتهم رفعوا لي

(١) عيون أخبار الرضا، ص ٨٥.

اختلفوا دوني، فلاقولن: أي ربُّ أصحابي، فليقالن لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

وروي البخاري - أيضاً - : «إني فرطكم على الحوض، من مر عليّ شرب، ومن شرب لم يظماً أبداً ليردن عليّ أقوام، أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم، فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحْقاً، سُحْقاً لمن غير بعدي».

ولولا الخوف من الخروج عن الموضوع، لوسعتُ في هذا المقام.

فيا إحسان، إذا امتدت يدك لتحرف ما جاء في أحاديث الشيعة، فإنك لا تستطيع أن تحرّف ما جاء في صحاحكم.

(٣) أورد في ص ٦٦، من نفس الكتاب، حديثاً للإمام علي عليه السلام من نهج البلاغة وإليك ما نقل: «دعوني، والتمسوا غيري، فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً». وعندما رجعت إلى مصدر النص، وجدتُ مكره وحيلته، حيث أخذ أول الكلام وآخره وترك ما بينهما، فتغير بذلك المعنى، وإليك تمام النص:

قال عندما أراداه الناس على البيعة، بعد قتل عثمان: «دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوة، وألواناً لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت. والمحنة قد تنكرت، واعلموا أنني إن أجبتكم ركبتمكم ما أعلم ولم أصنع إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً»^(١).

(١) نهج البلاغة ص ١٣٦، الخطبة رقم ٩٢.

فانظر إلى النص الذي حذفه، كيف ينقلب المعنى رأساً على عقب من دونه، فماذا تسمى هذا - يا إحسان -؟!، ومن هو الذي يكذب على أهل البيت؟!؟

ليس فقط من أنواع الكذب أن تقول قولاً وتنسبه إلى من لم يقله، وإنما من الكذب أيضاً أن تحرف مراد كلامه وتنسبه إليه.

سبحان الله قد عرف أمير المؤمنين عليه السلام أنهم لا يثبتون على هذه البيعة، وسوف يرتدون عليه ويقاتلونه في الجمل وصفين والنهروان، ويحتجون عليه بآلاف التبريرات، ولذلك أقام عليهم الحجة، وأخبرهم بمنهجه في الحكم، وهو الحق والحق مرّ صعب ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾.

وحدث ما قاله عليه السلام بالفعل، ولكن لم أكن أتوقع أن يستمر هذا الانقلاب والتبرير إلى يومنا هذا فيحرفون كلامه، لما فيه من كشف عن سوء نية وزيف من بايعه.

(٤) وأختم بهذا التزوير والتحريف الواضح، وأترك لك التعليق، وأكتفي به، لأنني لو جاريت هذا النسق من التزوير والتحريف لطال بنا المقام، وباختصار فإن الرجل لم يكن صادقاً حتى مع نفسه، وحمله على هذه الأفعال شدة عداوته لأهل البيت وشيعتهم، وإلا لماذا هذا التعسف الواضح؟ أيريد به أن يثبت للناس حقاً مضيئاً؟ وهو يتبع الباطل والتزوير وسيلةً وهدفاً؟!؟

أورد في كتابه، الشيعة وأهل البيت ص ٦٧: «والطبرسي أيضاً ينقل عن محمد الباقر، ما يقطع أن علياً كان مقراً بخلافته، ومعترفاً بإمامته، ومبايعاً له بإمارته، كما يذكر أن أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله لما أراد الخروج، انتقل رسول الله إلى الملاء الأعلى: فلما ورد الكتاب على أسامة، انصرف بمن معه حتى دخل المدينة فلما رأى اجتماع الخلق على أبي بكر، انطلق إلى علي بن

أبي طالب ﷺ فقال: ما هذا؟ قال علي ﷺ: هذا ما ترى، قال أسامة: فهل بايعته؟ فقال: نعم.

وقد نقل هذه الحادثة من كتاب الاحتجاج للطبرسي، وإليك تمام النص من المصدر:

«وروى عن الباقر عليه السلام، أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: أكتب إلى أسامة بن زيد. يقدم عليك، فإن في قدومه قطع الشيعة عنا. فكتب أبو بكر إليه:

من أبي بكر خليفة رسول الله (ص)، إلى أسامة بن زيد أما بعد:
فانظر إذا أتاك كتابي، فأقبل إليّ أنت ومن معك، فإن المسلمين قد اجتمعوا عليّ وولوني أمرهم، فلا تتخلفنّ، فتعصي ويأتيك مني ما تكره، والسلام.

قال: فكتب أسامة إليه جواب كتابه: «من أسامة بن زيد عامل رسول الله (ص) على غزوة الشام. أما بعد: فقد أتاني منك كتاب ينقض أوله آخره، ذكرت في أوله أنك خليفة رسول الله وذكرت في آخره أن المسلمين قد اجتمعوا عليك فولوك أمرهم ورضوك، فاعلم أنني ومن معي من جماعة المسلمين والأنصار فلا والله ما رضيناك ولا وليناك أمرنا، وانظر أن تدفع الحق إلى أهله، وتخليهم وإياه فإنهم أحق به منك، فقد علمت ما كان من قول رسول الله (ص) في علي يوم الغدير فما طال العهد فتنسى، انظر مركزك ولا تخالف فتعصي الله ورسوله (ص) ونعصي من استخلفه رسول الله عليك وعلى صاحبك ولم يهذلني حتى قبض رسول الله (ص) وإنك وصاحبك رجعتما، وعصيتما - يعني عمر - فأقمتما في المدينة بغير إذن».

فأراد أبو بكر، أن يخلعها من عنقه، قال: فقال له عمر: لا تفعل، قميص قمصك الله لا تخلعه فتندم، ولكن ألح عليه بالكتب والرسائل، ومُرُّ

فلاناً وفلاناً أن يكتبوا إلى أسامة أن لا يفرق جماعة المسلمين، وأن يدخل معهم فيما صنعوا. قال: فكتب إليه أبو بكر وكتب إليه الناس من المنافقين: أن إرضَ بما اجتمعنا عليه وإياك أن تشمل المسلمين فتنة من قبلك فإنهم حديثوا عهد بالكفر. قال: فلما وردت الكتب على أسامة انصرف بمن معه حتى دخل المدينة، فلما رأى اجتماع الخلق على أبي بكر انطلق إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له: ما هذا؟ قال له علي: هذا ما ترى، قال له أسامة: فهل بايعته؟ فقال: نعم يا أسامة، فقال: طائعاً أو مكرهاً؟ فقال: لا بل كارهاً. قال: فانطلق أسامة فدخل على أبي بكر وقال له: السلام عليك يا خليفة المسلمين، قال: فرد عليه أبو بكر وقال: السلام عليك أيها الأمير^(١).

ولا نقول له أكثر مما قاله عز وجل في محكم كتابه الكريم:
﴿انظر كيف يفزون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً﴾^(٢).

﴿فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣)

(٣) كتاب <تديد الظلام وتنية النيام إلى خطر التشيع على المسلمين والإسلام> لابن الجبهان :

لم أرَ كاتباً أكثر منه عداً لأهل البيت وشيعتهم، فقد شدَّ عزمه على التشيع بهم والافتراء عليهم من غير منهج في النقاش أو أسلوب في الحوار،

(١) الاحتجاج، للطبرسي ص ٨٧.

(٢) سورة النساء، الآية ٥٠.

(٣) سورة المائدة، الآية ١٣.

وكل ما عنده تكفير وتفسيق ومصادرة لآراء الآخرين، والذي يقرأ الكتاب سيجدني متساعماً جداً.

وقد ثبت لي أنه لا يريد من كتابه هذا إلا إثارة الفتنة بين الشيعة والسنة وتفريق صفوف المسلمين بشتى الوسائل والطرق، لكي يزدادوا بلاءً وضعفاً على ضعفهم، وكان من الأفضل أن يوجه كتابه إلى أعداء الإسلام والمسلمين دويلة (إسرائيل).

وبما أنه أتفه من أن يناقش لأنه لم يذكر دليلاً حتى يكون أهلاً لذلك، وإنما هو مجموعة من الأكاذيب والافتراءات على أهل البيت وشيعتهم، فينفي كل فضل جاء في حقهم وينكر الآيات الواضحة والأحاديث الدالة على وجوب التمسك بهم.

وإليك نماذج من أساليبه في كيفية تضعيف الأحاديث التي تذكر فضائل أهل البيت.

آ - بعد أن يورد مجموعة من الأحاديث يقول: «نورد عليها وعلى الأمساخ البشرية التي تشبثت بها»^(١).

١ - الحديث الأول: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل باب حطة من دخله كان آمناً».

«مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من تمسك بها نجا ومن تخلف عنها غرق».

.. يضعف هذا الحديث بأوهن ما يكون من الأدلة، فيقول أن هذا الحديث يستوجب أن النجاة والأمن في التمسك بأهل البيت، والهلاك والضياع في التخلف عنهم وهذا لا يجوز بمنطوق القرآن، لأن القرآن لا يشترط في النجاة إلا الإيمان بالله والعمل الصالح، ولا ينذر بالهلاك إلا على

(١) تبديد الظلام ص ٩٠.

الكفر واقتراف المعاصي، ولا توجد في كتاب الله آية واحدة تنقض قولنا هذا^(١).

أقول: ولكن ما علاقة قولك بهذا الحديث! فإثبات الشيء لا ينفي ما عداه.. هذا أولاً.

ثانياً: كل القرآن ينقض قولك، فهذا القرآن بين يديك يأمرنا بالتمسك بالأنبياء والرسل، ويحكم بكفر من لم يتمسك بهم ﴿ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾، كما يأمرنا بالتمسك بالأولياء: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾، فالأمر في هذه الآية واضح في الوجوب فيلزم التمسك بهم، وأوجب الله علينا أيضاً التمسك بالمؤمنين واتباع سبيلهم.

قال تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾^(٢).

فعدم التمسك بهم يعني الهلاك - ومع الأسف - لم يرجع الجبهان إلى كتاب الله حتى يرى كيف كان دخول الباب لبني إسرائيل غفراناً لذنوبهم. ﴿وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾^(٣).

لم يجهل الجبهان ذلك لكن شدة عداوته لأهل البيت حملته على ذلك، ونزيده غيظاً بقوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾^(٤). فقد جعل الله أجر رسالته في موالة أهل البيت.

(١) المصدر السابق ص ٩١.

(٢) سورة النساء، الآية ١١٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ٥٨.

(٤) سورة الشورى، الآية ٢٣.

ويضيف مستدلاً بقوله: لماذا نتبع أهل البيت، هل لهم علم لم يبلغه رسول الله (ص) للمسلمين عامة. إن اعتقاد ذلك، يعني اتهام النبي (ص) بالمحابة وكتمان الرسالة...

وما دام الدين قد اكتمل فما الذي محتاجه من أهل البيت.

انظر إلى سخافة الاستدلال، فإذا كان تبليغ أحكام الدين وتوضيحها لبعض الناس دون غيرهم محابة فلزم على رسول الله (ص) - وهو رسول لكل البشر - أن يبلغ نفسه كل البشر فرداً فرداً، أو على الأقل الذين في زمانه، وهذا ما لا يقول به عاقل كما أن هذا الأمر خارج عن نطاق التبليغ، فقد امتاز أهل البيت بصفات أهلتهم لقيادة الأمة، فمن الواضح اختلاف الناس في مدى فهمهم واستيعابهم، واختلافهم في درجات الإيمان، فقد بلغ رسول الله (ص) للكل ولكن أهل البيت كانوا أسبق الناس إيماناً وأكثرهم جهاداً وأفضلهم تقوى وورعاً، ولذلك طهرهم الله من الرجس في كتابه.. فما هذا الحقد الدفين يا ابن الجبهان!؟

أما أن اكتمال الدين ينفي حاجة المسلمين، فلماذا نحتاج إلى الصحابة والسلف الصالح لنقلدهم!؟..

وبهذه الأدلة السخيفة رد هذا الحديث.

٢ - الحديث الثاني: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي»

يقول: «محرّف، وصحته <كتاب الله وسنتي>، وعلى فرض أنه غير محرّف. فمن هم العترة المشار إليهم في هذا الحديث»^(١).

.. بهذه البساطة رد حديث <كتاب الله وعترتي>!

وقد مر البحث حوله في أول الكتاب.

من الواضح كما أقر علماء الأصول أن القضية لا تثبت موضوعها، فالحديث هنا في مقام إثبات مجمل القضية وهو وجوب التمسك بكتاب الله وعترة أهل البيت أما معرفة ما هو الكتاب، وما هي العترة، لا يُعرف من هذا الحديث، فيحتاج إلى دليل آخر خارج عنه، حتى يفصل المراد منهما.

فكيف يستشكل على الحديث بقوله: من هم أهل البيت!!؟

فهذا سؤال يفترض عليه أن يوجهه إلى رسول الله (ص) لأنه افترض صحة الحديث.

٣ - الحديث الثالث: «يا علي لا يجبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

يقول: موضوع ولا أساس له من الصحة، لأن محبة غير الله ورسوله لا تصلح معياراً للإيمان ولا مقياساً للعقيدة، لأن محبة الله ورسوله تستتبع حتماً محبة الصالحين ولا تنفصل عنها.

أولاً - لماذا يا ترى استثنى رسول الله (ص)، فإذا كان المعيار هو الاستتباع فحب الله يستتبع أيضاً حب رسوله وعباده الصالحين.

ثانياً - فإذا كان حب الله ورسوله يستتبع حب الصالحين، فأيضاً حب الصالحين يستتبع حب رسوله وحب الله، وهذا يثبت صحة الحديث لأن الحديث في بيان كيفية معرفة المنافق، وبما أن الذي يُظهر الإيمان بالله ورسوله لا يستطيع أن يعلن عن عدم حبه لله ورسوله وإلا لا يسمى منافقاً ولكن يستطيع أن يعلن بغضه لأي شخص آخر، وبما أن الإمام علياً عليه السلام من الصالحين بل من أصدق المصاديق فمن أبغضه يكون بالاستتباع يبغض الله ورسوله، فيشكل لنا هذا الحديث معياراً دقيقاً في معرفة المنافقين.

ثالثاً - وإذا كان عنوانك أن الحب والبغض ليس معياراً للإيمان ولا مقياساً للعقيدة فلماذا تكفر الشيعة، بسبب بغضهم لبعض الصحابة - علي حسب زعمك -؟!

ولماذا أنت تجهم وتحب السلف الصالح بما فيهم من بني أمية وبني العباس وتستبسل في الدفاع عنهم؟!

ألا ترجو من ذلك ثواباً؟!

فإذا كان، لا، فكلامك كله لغو وضياح للوقت.

٤ - الحديث الرابع : «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

يقول: إن صبغة الحديث تدل على تفاهته، وتفاهة من نسبه إلى رسول الله (ص) فإن النفور واضح بين كلمة «المدينة» وكلمة «العلم» ولا يوجد أي انسجام لا تلقى بين مفهومهما ولا بين منطوقهما، ولو قال «أنا بحر العلم وعلي شاطئه» لكان أليق.

ويستدل أيضاً: لماذا جعل رسول الله هذا العلم في مدينة وجعل مفاتيحه عند علي ولم يجعلها مشاعاً من غير أبواب، حتى يتيسر لكل الناس الدخول إليها من حيث شاءوا..

هذا مبلغ علمه وغاية استدلاله. أي منافاة، والحديث لم يكن بخصوص تعريف العلم حتى يقول: بحر.

وإنما أراد بيان الرابطة بينه وبين علي عليه السلام، فالحديث ناظر إلى مجمل العلاقة بينهما، فكان مثال المدينة أوضح لعدم التمكن من الدخول إليها إلا عن طريق الباب.

أما قوله: ولم يجعلها مشاعاً من غير أبواب...

الصحيحة والمتواترة عندكم، التي رواها البخاري ومسلم، لا يُحرك له ساكن..!

فهل عندكم الذبابة أكثر شرفاً من أهل بيت رسول الله (ص)؟!؟
«وحقاً يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»

ب - نماذج من افتراءاته على الشيعة :

١ - قال في ص ٤٩٤: «وزد على ذلك أن أذانهم يختلف عن أذاننا، وصلاتهم تختلف عن صلاتنا، وصيامهم يختلف عن صيامنا، وهم لا يعترفون بالزكاة ولا بمستحقيها».

٢ - يقول في ص ٤٩٥: «وأنهم لا يعذبون بكبيرة ولا صغيرة، وأن من سواهم مخلدون في النار، ثم إباحتهم إغارة فروج النساء، وإسقاطهم الجمعة والجماعة والحدود بحجة غيبة الإمام، وتسميتهم أمة محمد بالأمة الملعونة، واعتقادهم بأن لعن الصحابة وأمهات المؤمنين من أعظم القربات إلى الله».

٣ - ويذكر في ص ٢٢٢: «وقد لا يصدق القارئ الكريم أن نكاح الأم عندهم هو من البر بالوالدين، وأنه عندهم من أعظم القربات».

٤ - وفي ص : «يمد الشيعي إليك يده مصافحاً، ولكن ليسغلك عن اليد الأخرى التي امتدت إلى جيبيك».

٥ - وفي ص ٢٨: «كل من يولد في أيام عاشوراء فهو سيد، وكل من حملت به أمه في أيام عاشوراء فهو سيد حتى ولو كان حاملاً غير شرعي».

بل لم يقف عند ذلك، فقد امتد لسانه إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي تعتقد فيه مجموعة من

المسلمين، أنه إمامٌ معصوم، والمجموعة الأخرى تعتقد فيه أنه من جهابذة العلم والعلماء، وقد دان بفضله أئمة المذاهب الأربعة.

ولم يذكر لنا التاريخ أن أحداً قدح فيه، ولو كان من أشد أعدائه، إلى أن أتى ابن الجيهان قائللاً في حقه: «إن قول جعفر: [من أراد الدنيا لا ينصحك ومن أراد الآخرة لا يصحبك] قول من برع في أساليب المراوغة وأتقن فنون الدجل». ولكن إذا كان القول بأن الناس على دين ملوكهم صحيحاً فصحة القول بأنهم على دين أئمتهم من باب أولى، وبما أنكم نسخة مطابقة لأصل [جعفر] الذي تعترفون بأنه المؤسس الأكبر لكل معتقداتكم»^(١).

فانظر إلى أي مدى بلغ به النصب والعداء لأهل بيت الرسالة.

٨ - ولم يكن هذا المنهج من إبداعات الجيهان، فقد سبقه إليه أستاذه مؤسس الوهابية محمد بن عبد الوهاب، فقد جاء في رسالة «في الرد على الرافضة»: ص ٣٤: «إباحتهم نكاح المتعة، بل يجعلونها خيراً من سبعين نكاحاً دائماً، وقد جوز لهم شيخهم الغالي علي بن العالي، أن يتمتع إثنا عشر نفساً في ليلة واحدة بامرأة واحدة، وإذا جاء الولد منهم أقرعوا بينهم فمن خرجت قرعته كان الولد له».

٩ - ص ٤٤: «ومنها أن اليهود مسحوا قردة وخنزير، وقد نقل أنه وقع ذلك لبعض الرافضة في المدينة المنورة وغيرها، بل قد قيل أنهم تمسخ صورهم ووجوههم عند الموت، والله أعلم».

فهذا هو منهجهم في الرد على الشيعة، لا يخرج عن أساطير ألف ليلة وليلة وأحلام قمر الزمان وشهرزاد.

(١) ص ٢٠٦.

رابعاً - وأما افتراءات أحمد أمين في - ضحى الإسلام - فسوف
نضرب عنها صفحاً، خاصة بعدما بلغنا اعتذاره عما كتبه عن الشيعة،
ويذكر ذلك الإمام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء في كتابه - أصل
الشيعة وأصولها - ص ٧٢:

«ومن غريب الاتفاق أن أحمد أمين في العام الماضي ١٣٤٩هـ بعد
انتشار كتابه، ووقوف العديد من علماء النجف عليه - زار مدينة العلم -
النجف، وحظي بالتشرف بأعتاب تلك المدينة، في الوفد المصري المؤلف من
زهة ٣٠ بين مدرّس وتلميذ وزارنا بجماعته، ومكثوا هزيعاً من ليلة من ليالي
رمضان، في نادينا في محفل حاشد، فعاتبناه على تلك الهفوات، عتاباً خفيفاً،
وصفحنا عنه صفحاً جميلاً. وأردنا أن نمر عليه كراماً، ونقول له سلاماً،
وكان أقصى ما عنده من الاعتذار عدم الاطلاع وقلة المصادر، فقلنا: وهذا
أيضاً غير سديد، فإن من يريد أن يكتب عن موضوع يلزم عليه أولاً أن
يستحضر العدة الكافية ويستقصي الاستقصاء التام، وإلا فلا يجوز له الخوض
والتعرض له، وكيف أصبحت مكنتات الشيعة ومنها مكنتنا مشتملة على ما
يناهز ٥٠٠٠ مجلداً أكثرها من كتب علماء السنة وهي في بلدة كالنجف
فقيرة من كل شيء إلا من العلم والصلاح إن شاء الله، ومكنتات القاهرة ذات
العظمة والشأن خالية من كتب الشيعة إلا من شيء لا يذكر.

نعم، القوم لا علم لهم من الشيعة بشيء وهم يكتبون عنهم كل

شيء».



الفصل الثامن

المذاهب الأربعة تحت المجهر

- حركة الاختلاف بين المذاهب
- وقفة مع أئمة المذاهب الأربعة
- خاتمة
- نحة عن الفقه الشيعي
- مناظرة يوحنا مع علماء المذاهب الأربعة

المذاهب الأربعة تحت المهجر

لقد انعكست آثار السقيفة وتحويل الخلافة عن أهل البيت في كل المجالات والأصعدة فأثرت سلبياً في التاريخ وعلم الحديث. وغيرها من العلوم وظهرت آثارها الواضحة على الفقه الإسرنمي، فتعددت المدارس الفقهية، وتباينت عن بعضها.

وقد نقل التاريخ تعصب كل جماعة لمدرستهم الفقهية وما حصل بينهم من مشادات ونزاعات إلى درجة أن يكفر بعضهم البعض، وكشف لنا أيضاً دور السلطات الحاكمة وكيف كانت تتلاعب بدين المسلمين فالعالم الذي يوافق هواها يكون إماماً للمسلمين وتُلزم الناس بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بتقليده والاقتداء به.

وقد رست المرجعية الفقهية بعد ظروف وملابسات متعددة على أربع من مئات المجتهدين وهم: مالك، أبو حنيفة، الشافعي، أحمد بن حنبل، ثم حُرِّم الاجتهاد من بعدهم وأمرَ الجميع بتقليدهم، ويرجع ذلك إلى تاريخ ٦٤٥هـ عندما رأت السلطات الحاكمة أن مصلحتها تتطلب حصر الاجتهاد في المشايخ الأربعة، وقد تعصب مجموعة من العلماء لهذه الفكرة وأعلنوا تأييدهم لها، واعتبرت مجموعة أخرى أن هذا التصرف ما هو إلا كبت للحرية ومصادرةً للقدرات، وقد ألف ابن القيم فصلاً طويلاً في - إعلام الموقعين - استقصى فيه أدلة القائلين بوجود سد باب الاجتهاد وعطلها بالأدلة القوية، ورغم أن الرأي الذي يقول بوجود الوقوف على اجتهادات

الأئمة الأربعة مخالف للدين والعقل السليم إلا أنه كانت له الغلبة لتأييد السلطات لهذا الرأي الذي يضمن لها مصالحها.

يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي: حواني أستطيع أن أحكم بعد هذا بأن منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة، وبوسائل القهر والإغراء بالمال، ولا شك أن هذه الوسائل لو قُدرت لغير المذاهب الأربعة - التي نقلدها اليوم - لبقى جمهور يقلدها أيضاً ولكانت الآن مقبولة عند من ينكرها، فنحن إذاً في حل من التقييد بهذه المذاهب الأربعة التي فُرضت علينا بتلك الوسائل الفاسدة وفي حل من العود إلى الاجتهاد في أحكام ديننا، لأن منعه لم يكن إلا بطريق القهر، والإسلام لا يرضى إلا بما يحصل بطريق الرضا والشورى بين المسلمين. كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾^(١).

هذه هي الحقيقة المرة التي يصل لها الباحث المنصف في تاريخ المذاهب الأربعة فبأي حق فُرضَ على المسلمين التعبد بأحدهم، وبأي دليل مُنَع العلماء من الاجتهاد ولماذا اختير هؤلاء الأربعة دون غيرهم؟! مع وجود علماء أكثر منهم علماء وفضلاً. مثل :

(١) سفيان الثوري :

ولد سنة ٦٥ هـ، وله مذهب خاص ولكن لم يطل العمل به لقلته أتباعه، وعدم مؤازرة السلطة له. وهو أحد تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام، وخريج مدرسته، ويعتبر من الفقهاء الذين تُشَدُّ لهم الرحال في طلب العلم، وقد روى عنه عشرون ألفاً.

وأراد المنصور قتله فلم يتمكن وهرب حتى توفى متوارياً منه سنة ١٦١ هـ فبقي مذهبه معمولاً به إلى القرن الرابع.

(١) ميزان الاجتهاد ص ١٤.

(٢) سفيان بن عيينة :

عالم وفقه ثابت أخذ العلم عن الصادق عليه السلام، والزهرري وابن دينار وغيرهم. وقال الشافعي في حقه ما رأيتُ أحداً فيه من آلة الفتيا ما في سفيان وما رأيتُ أكفاً منه على الفتيا، وله مذهب يُعمل به انقراض في القرن الرابع.

(٣) الأوزاعي :

لقد كان الأوزاعي من العلماء، وقد انتشر مذهبه في الشام، وعمل أهلها بمذهبه مدة من الزمن، ولقد كان الأوزاعي محترماً مقرباً من قِبَل السُلطة، فقد كان من المؤيدين لها، فانخذته لذلك رمزاً دينياً، وعندما جاء العباسيون قربوه لمكانته من أهل الشام، فكان المنصور يعظمه ويراسله لما عرف منه الانحراف عن آل محمد صلوات الله عليهم، ولكن رغم ذلك فقد انقراض مذهب الأوزاعي عندما عُنِيَ محمد بن عثمان - الشافعي - قاضياً على دمشق، فحكم بمذهب الشافعية وعمل على فرضه ونشره في الشام، حتى تحول الشاميون إلى شوافع سنة ٣٠٢ هـ.

إلى غيرهم من عشرات المجتهدين أمثال: ابن جرير الطبري، وداود ابن علي الظاهري، والليث بن سعيد والأعمش والشعبي. وآخرين..

فلماذا بقيت هذه المذاهب الأربعة وانتشرت دون غيرها؟!

أكان أمتها أعلم الناس في عهدهم؟!

أم اجتمع عليهم رضا الناس فجعلوهم أئمتهم؟

كل هذا لم يكن متوفراً للمذاهب الأربعة، فناهيك عن التاريخ الذي يثبت وجود علماء كانوا أعلم منهم، فالعقل وحده يحكم بانتفاء هذا الشرط لأن تحديد الأعلمية من الصعوبة بمكان، كما أن انتشار هذه المذاهب واشتهار أئمتها لم يكن في ظروف وأجواء تحكمها الحرية والنزاهة العلمية، بل يظهر للمتبع لتاريخها أنها فرضت على المسلمين في حين غرة من أمرهم، أما

اجتماع الناس عليهم ورضاهم بهم فلم يكن له أثر في التاريخ الإسلامي، بل على العكس تماماً، فقد تعصب كل أناس لمذهبهم وطعن بعضهم في معتقدات البعض حتى نتج من ذلك نزاعات دموية راح ضحيتها الآلاف من المسلمين، فأصبحوا أعداء متخاصمين، وعاملوا بعضهم معاملة الخارجين عن الدين حتى قال محمد بن موسى الحنفي - قاضي دمشق - المتوفي سنة ٥٠٦ هـ: لو كان لي من الأمر شيء لأخذت من الشافعية الجزية. ويقول أبو حامد الطوسي المتوفي سنة ٥٦٧ هـ: لو كان لي أمر لوضعت على الحنابلة الجزية. فكثرت الحوادث التي وقعت بين الحنفية والحنابلة، وبين الحنابلة والشافعية. فقام خطباء الحنفية يلعنون الحنابل والشوافع على المنابر، والحنابل يحرقون مسجداً للشافعية بمرور، وشبت نار الفتنة والعصبية بين الحنفية والشافعية في نيسابور فحُرقت الأسواق والمدارس، وكثُر القتل في الشافعية، ثم يسرف الشافعية في أخذ الثأر منهم وذلك سنة ٥٥٤ هـ ومثل ذلك حدث بين الشافعية والحنابلة حتى تضطر السلطة إلى حل النزاع بالقوة وذلك في سنة ٧١٦ هـ^(١).

وكان الحنابلة يَحْلُون بأعمالهم بالأمن ويهرجون في بغداد، ويستظهرون بالعميان على الشافعية، الذين كانوا يأوون إلى المساجد، فإذا مرَّ بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيضربونه^(٢).

وتجتمع بقية المذاهب على الحنابلة غضباً من أعمال ابن تيمية، ونودي في دمشق وغيرها: من كان على دين ابن تيمية حُلَّ ماله ودمه. بمعنى أنهم يعاملونهم معاملة الكفرة، وفي المقابل نجد الشيخ ابن حاتم الحنبلي يقول: «من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم»^(٣).

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٧٦، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ص ١٩٠.

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩.

(٣) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٣٧٥.

فهو يكفر جميع المسلمين ما عدا الحنابلة، وعكسه الشيخ أبو بكر المغربي - الواعظ في جوامع بغداد - ذهب إلى تكفير الحنابلة أجمع^(١) .

وغيرها من الحوادث التي يدمى لها القلب، فقد بلغ بهم التعصب إلى قتل العلماء والفقهاء غدرًا بالسم. وهذا الفقيه - أبو منصور - المتوفي سنة ٥٦٧ هـ قتله الحنابلة بالسم تعصباً عليه، قال ابن الجوزي: إن الحنابلة دسوا إليه امرأة جاءت إليه بصحن حلاوة، وقالت: هذا يا سيدي من غزلي، فأكل هو وامراته وولده وولد له صغير فاصبحوا موتى، وكان من علماء الشافعية المبرزين^(٢) . وكثير من أمثالهم من العلماء الذين قتلوا بسيف التعصب.

وهكذا تعصب كل أناس لأئمتهم إلى درجة أنهم وضعوا في فضلهم أحاديث ونسبوا إلى رسول الله كذباً وزوراً، فأخرجتهم عن حدود المعقول والاتزان وذلك مثل ما نسبوه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن آدم افتخر بي وأنا افتخر برجل من أمتي اسمه النعمان، وبصورة أخرى: الأنبياء يفتخرون بي، وأنا افتخر بأبي حنيفة من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني»^(٣)، وقد أخذهم الغلو في أبي حنيفة إلى أن ذكروا في فضائله «الله خصَّ أبا حنيفة بالشرعية والكرامة، ومن كرامته أن الخضر عليه السلام كان يجيء إليه كل يوم وقت الصبح. ويتعلم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين، فلما توفي أبو حنيفة دعا الخضر ربه فقال: يا رب إن كان لي عندك منزلة فأذن لأبي حنيفة حتى يعلمني من القبر على عادته حتى أعلم الناس شريعة محمد على الكمال ليحصل لي الطريق، فأجابه ربه إلى ذلك. وتمت للخضر

(١) راجع شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٢) طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٨٤ .

(٣) الباقوت في الوعظ، لأبي فرج علي بن الجوزي ص ٤٨ .

دراسته على أبي حنيفة وهو في قبره في مدة خمسة وعشرين سنة، إلى آخر ما في هذه الأسطورة التي تتلى في مجالس الحنفية في الهند ومساجدهم^(١).

وادعت المالكية لإمامهم أموراً، منها: أنه مكتوبٌ على فخذه بقلم القدرة مالك حجة الله في أرضه، وأنه يحضر الأموات من أصحابه في قبورهم ويُنحي الملكين عن الميت، ولا يدعهما بحاسبانه على أعماله^(٢).
وقد ذُكرَ أنه: ألقى كتابه الموطأ في الماء ولم يتبل.

وقال الحنابلة في إمامهم: «أحمد بن حنبل إمامنا فمن لم يرض فهو مبتدع». فكل المسلمين مبتدعون على حسب هذه القاعدة.

ويقولون أنه ما قام بأمر الإسلام أحدٌ بعد رسول الله كما قام به أحمد بن حنبل ولا أبو بكر الصديق مثله، وأن الله جل وعلا كان يزور قبره، كما روى ابن الجوزي في مناقب أحمد ص ٤٥٤ قال: «حدثني أبو بكر بن مكارم ابن أبي يعلى الحرابي - وكان شيخاً صالحاً - قال: كان قد جاء في بعض السنين مطراً كثيراً جداً قبل دخول رمضان بأيام فتمت ليلة في رمضان فرأيت في منامي كأنني قد جئت على عادتي إلى قبر الإمام أحمد بن حنبل أزوره فرأيت قبره قد التصق بالأرض مقدار سافٍ - أي صفٍ من الطين أو اللبن - أو سافين فقلت: إنما تمَّ هذا على قبر الإمام أحمد من كثرة الغيث فسمعت من القبر وهو يقول: لا بل هذا من هيبة الحقِّ عزَّ وجلَّ قد زارني فسألته عن سر زيارته إياي في كلِّ عام فقال عزَّ وجلَّ: يا أحمد لأنك نصرت كلامي فهو يُنشر ويُتلى في المحاريب. فأقبلتُ على لحده أُقبِّله ثم قلت: يا سيدي ما السر في أنه لا يقبَّل قبرٌ إلا بقبرك؟ فقال لي: يا بُنيِّ ليس هذا كرامة لي ولكن هذا كرامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن معي شعرات من

(١) المرجع السابق، ص ٤٨.

(٢) مشارق الأنوار للعدوي ص ٨٨.

شعره صلى الله عليه وسلم ألا ومن يحبني يزورني في شهر رمضان. قال ذلك مرتين».

وغير ذلك من المناقب التي تدل على التعصب والغلو الفاحش وقد ظهر هذا التعصب بوضوح في أشعارهم.

قال شاعر الحنفية :

غدا مذهب النعمان خير المذاهب

كذا القمر الوضاح خير الكواكب

مذاهب أهل الفقه عندي تقلصت

وأين عن الرواسي نسج العناكب

ويقول شاعر الشافعية :

مثل الشافعي في العلماء مثل البدر في نجوم السماء

قل لمن قاسه بنعمان جهلاً أيقاس الضيأ بالظلماء

ويقول شاعر المالكية :

إذا ذكروا كتب العلوم فحبي

هل بكتب الموطأ من تصانيف مالك

فشد به كف الصيانه تهدي

فمن حاد عنه هالك في الهوالك

ويقول الحنبلي :

سبرت شرائع العلماء طراً فلم أرَ كاعتقاد الحنبلي

فكن من أهله سرأً وجهراً تكن أبداً على النهج السوي

ويقول آخر :

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

وهكذا كل واحد يجر النار إلى قرصه، ويتعصب لإمامه، ويفتخر بمذهبه ويتبرى من المذاهب الأخرى، حتى قيل: «إن من يصير حنيفياً يُخلع عليه، ومن يصير شافعيّاً يُعزّر»^(١). وقد وصف السبكي، في طبقات الشافعية بقوله: «فهذا أبو سعيد المتوفي سنة ٥٦٢ هـ كان حنفي المذهب، وتحول شافعيّاً، فلقي عناء وامتحن لذلك، وهذا السمعاني لما انتقل من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي لاقى محناً وتعصباً، وقامت الحروب على ساق، وأضرمت نيران الفتنة بين الفريقين، فكانت تملأ ما بين خراسان والعراق واضطرب أهل مرو لذلك اضطراباً فظيعاً، وفُتحت باب المشاقة، وتعلق أهل الرأي بأهل الحديث وساروا إلى باب السلطان... إلى آخر ما وصفه»^(٢).

ومثل هذه الحوادث كثيرة لا تحصى، وما ذكرناه كافٍ كمنادج وأمثلة لحركة الاختلاف والتعصب بين المذاهب الأربعة، حتى أصبح التكتم بالمذهب لازماً. يقول أبو بكر محمد بن عبد الباقي المتوفي سنة ٥٣٥ هـ في ذلك - وكان حنبلياً - يصف حالة التكتم بقوله :

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة

سن وما استطعت ومذهب

فعلى الثلاثة تبلى بثلاثة

بمكفر وبجاسد ومكذب

وقد صورّ الزمخشري الخلاف وشدة التطاحن بين المذاهب بقوله :

(١) الدين الخالص ج ٣ ص ٣٥٥.

(٢) طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٢.

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به
وأكتمه كتمانته لي أسلم
فإن حنفياً قلت قالوا بأنني
أبيح الطلى وهو الشراب المحرم
وإن شافعيّاً قلت قالوا بأنني
أبيح نكاح البنت والبنت تحرّم
وإن مالكيّاً قلت قالوا بأنني
أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم
وإن قلت من أهل الحديث وحزبه
يقولون تيس ليس يدري ويفهم^(١)



(١) الكشاف للزغشري ج ٢ ص ٤٩٨.

وقفه مع أئمة المذاهب الأربعة

إن البحث عن تاريخ أئمة المذاهب الأربعة من الصعوبة بمكان، لأن أخبارهم إما منقولة عن المتعصبين لهم الغالين فيهم، وإما عن طريق أعدائهم المتحاملين عليهم، وبين هذين الخططين المتعارضين يصعب الخروج برؤية مجردة نزيهة .

يقول أحمد أمين: كما أن العصبية المذهبية حملت بعض الأتباع لكل مذهب أن يضعوا الأخبار لإعلاء شأن إمامهم، ومن هذا الباب ما روه من الأحاديث بتبشير النبي صلى الله عليه وسلم لكل إمام من مثل ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أهل العراق: إن الله وضع خزائن علمه فيهم، ومثل: يكون في الأمة رجل يقال له النعمان بن ثابت ويكنى بأبي حنيفة يُحيي الله على يديه سنتي في الإسلام.. الخ. حتى لقد زعموا أن أبا حنيفة بشرت به التوراة، وكذلك فعل بعض الشافعية بالشافعي والمالكية في مالك، وما كان أغناهم عن ذلك. ومن أجل ذلك صُعِبَ على الباحث معرفة التاريخ الصحيح لكل إمام، فقد كان كلما أتى جيل زاد في فضائل إمامه^(١).

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ١ ص ٢٨٥.

ولقد حظي أبو حنيفة وحده من هذه الفضائل بمجموعة من الكتب، نذكر منها على سبيل المثال: «عقود المرجان في مناقب أبي حنيفة النعمان»، لأبي جعفر الطحاوي . و «مناقب أبي حنيفة» للخوارزمي. و «البستان في مناقب النعمان» للشيخ محي الدين عبد القادر بن أبي الوفاء، و «شقائق النعمان في مناقب النعمان» للزمخشري.. وغيرها وهذا إن دل إنما يدل على درجة الغلو والتعصب لأبي حنيفة، والتنازع والمشادة حول المذاهب وأئمتها، وإلا ما هو الداعي لكتابة كل هذه الكتب، التي لم يُحظ بمثلها الخلفاء الراشدون!؟.

ومن بين هذين الخططين المتناقضين بين الغلو والتحامل، نحاول أن نستكشف رؤية مجردة لتاريخ المذاهب والملابسات التي انتشرت فيها.

(١) الإمام أبو حنيفة

✽ نشأة أبي حنيفة :

هو النعمان بن ثابت ، ولد سنة ٨٠ هـ في خلافة عبد الملك بن مروان، وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ، وقد نشأ في الكوفة في عهد الحجاج، وكانت الكوفة إحدى مدن العراق العظيمة، التي نشأت بها حلقات العلم، وكانت الأهواء المتضادة والآراء المتضاربة في السياسة والعلم وأصول العقائد آنذاك تدعو إلى الدهشة، وفي هذه الأجواء نبغ أبو حنيفة في علم الكلام والجدل وناظر فيه، ثم انتقل إلى حلقة الفقه حتى اختص به، وقد تتلمذ على يد حماد بن أبي سليمان المتوفى سنة ١٢٠ هـ وكان من أنبغ تلاميذه، وقد انفرد أبو حنيفة بعد وفاة حماد فعلا بصيته واشتهر اسمه، وقد درس أيضاً على مشايخ عصره، وحضر عند عطاء بن رباح في مكة، وعلى نافع مولى

ابن عمر في المدينة وآخرين، وكان أكثر ملازمة لحمد بن سليمان، وقد روى عن أهل البيت مثل الإمام محمد الباقر وابنه الصادق عليهما السلام.

❖ فقه أبي حنيفة :

لم يُعرف لأبي حنيفة فقه خاص إلا عن طريق تلامذته، فلم يكتب فقهاً بنفسه ولم يدون شيئاً من آرائه، وكان لأبي حنيفة تلاميذ كثيرون، ولكن الذين حملوا مذهبه ونشروه أربعة وهم: أبو يوسف وزفر ومحمد بن الحسن الشيباني والحسن بن زياد اللؤلؤي.

وقد لعب أبو يوسف وهو يعقوب بن ابراهيم دوراً كبيراً في نشر المذهب الحنفي، فقد حظي بالقبول عند خلفاء بني العباس، وولي رئاسة القضاء في عهد المهدي والهادي والرشيد، ونال عند الرشيد حظاً مكيناً، فاستغل أبو يوسف هذا المنصب فعمل على نشر المذهب الحنفي في الأقطار، على أيدي القضاة الذي كان يعينهم من أصحابه، فكان نفوذ المذهب الحنفي يستمد من نفوذ سلطته، قال ابن عبد البر في ذلك، > كان أبو يوسف قاضي القضاة قضى لثلاثة من الخلفاء، وليّ القضاء في بعض أيام المهدي ثم للهادي ثم للرشيد، وكان الرشيد يكرّمه ويجله، وكان عنده حظياً مكيناً، لذلك كانت له اليد الطولى في نشر ذكر أبي حنيفة وإعلاء شأنه، لما أوتى من قوة السلطان وسلطان القوة <^(١).

وقد شارك تلميذ أبي حنيفة، محمد بن الحسن الشيباني في نشر مذهب أبي حنيفة بتأليفاته التي أصبحت المرجع الأول لفقه أبي حنيفة، رغم أنه تتلمذ أيضاً على الثوري والأوزاعي ومالك، وأدخل الحديث في فقه أهل الرأي.

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص ٥٠.

أما زُفر ابن الهذيل وهو من أقدم أصحاب أبي حنيفة فقد نشر مذهب أبي حنيفة بلسانه، وتولى القضاء في زمن أبي حنيفة في البصرة، وقد كان شديد القياس، حتى هجاه أحمد بن المعدل المالكي بقوله:

إن كنتَ كذاباً بما حدثتني فعليك إثم أبي حنيفة أو زفر
المائلين إلى القياس تعمداً والراغبين عن التمسك بالخبر

وكان القياس أكثر ما يعاب على أبي حنيفة وأصحابه، وقد ذُكرَ في العقد الفريد ص ٤٠٨ أن مساوراً قال في أبي حنيفة:

كنا من الدين قبل اليوم في سعة
حتى بُلينا بأصحاب المقاييس
قاموا من السوق إذ قامت مكاسبهم
فاستعملوا الرأي بعد الجهد والبؤس

فلقية أبو حنيفة فقال: هجوتنا يا مساور، نحن نرضيك. فوصله بدراهم فقال مساور:

إذا ما الناس يوماً قايسونا
أئيناهم بمقياس صحيح
إذا سمع الفقيه بها وعامها
فأجابه أصحاب الحديث :

إذا ذوالرأي خاصم عن قياس
أئيناهم بقول الله فيها
وجاء ببدعةٍ هينةٍ سخيفه
وآثارٍ مبرزةٍ شريفه

ومن الغريب في الحال أن العلماء الذين أصلوا المذهب الحنفي ودونوه لم يكونوا مقلدين لأبي حنيفة في آرائه، وإنما كانوا علماء مستقلين يوافقون أستاذهم أبا حنيفة أحياناً ويخالفونه أحياناً، ولذلك نجد كتبَ الحنفية تورِد أقوال أربعة في المسألة الواحدة. لأبي حنيفة قول، ولأبي يوسف قول، ولمحمد قول، ولزفر قول.

يقول العلامة الخضري: «وقد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المختلفة أقوالاً للإمام رجع عنها، ولكن هذه غفلةٌ شديدة عن تاريخ هؤلاء الأئمة، بل عما ذُكر في كتبهم، فإن أبا يوسف يحكي في كتاب (الخراج) رأي أبي حنيفة، ثم يذكر رأيه مصرحاً بأنه يخالفه، ويبين سبب الخلاف، وكذلك يفعل في كتاب أبي حنيفة وابن أبي ليلى، فإنه أحياناً يقول برأي ابن أبي ليلى بعد ذكر الرأيين، ومحمد رحمه الله يحكي في كتبه أقوال الإمام، وأقوال أبي يوسف، وأقواله مصرحاً بالخلاف، على أنه لو كان كما قالوا لم يكن ما رجع عنه من الآراء مذهباً .

ومن الثابت أن أبا يوسف، ومحمد رجعا عن آراء رآها الإمام، لما اطلعوا على ما عند أهل الحجاز من الحديث، فالحقق تاريخياً أن أئمة الحنفية الذين ذكروا بعد أبي حنيفة، رحمه الله، ليسوا مقلدين له^(١).

الخلاصة، أن المذهب الحنفي اتسع وانتشر بمجهود أصحابه، وقد ساعدهم على ذلك السُلطة التي كان يمتلكها أبو يوسف، فيكون المذهب الحنفي من تأسيس مجموعة من الفقهاء كل واحد مستقل بنفسه وليس من إمام واحد وهو أبو حنيفة . ومحاولة الحنفية بإرجاع الجميع إليه أمر غير وجيه.

(١) الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي ص ٢٧٥.

● طعون على أبي حنيفة:

كان هناك غير المغالين فيه طرفاً آخر من معاصريه من العلماء العدول الذين رموه بالزندقة، والخروج عن الجادة، ووصفوه بفساد العقيدة والخروج عن نظام الدين، ومخالفة الكتاب والسنة، وطعنوا في دينه وجرّدوه عن الإيمان^(١).

اجتمع سفيان الثوري وشريك وحسن بن صالح وابن أبي ليلى، فبعثوا إلى أبي حنيفة فقالوا: ما تقول في رجل قتل أباه ونكح أمه وشرب الخمر في رأس أبيه؟

فقال: مؤمن، فقال ابن أبي ليلى: لا قبلت لك شهادةً أبداً.
وقال له سفيان الثوري: لا كلمتك أبداً^(٢).

وحدّث إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة أنه قال: ما رأيتُ أحداً أجزأ على الله من أبي حنيفة، وعنه أيضاً: كان أبو حنيفة يضرب لحديث رسول الله الأمثال فيبرره بعلمه^(٣).

وحكّي عن أبي يوسف، قيل له: أكان أبو حنيفة مرجئياً؟

قال: نعم، قيل: كان جهمياً؟ قال: نعم، قيل: أين أنت منه؟ قال: إنما كان أبو حنيفة مدرساً، فما كان من قوله حسناً قبلناه وما كان قبيحاً تركناه عليه^(٤).

فهذا رأيُ أقرب المقربين إليه، تلميذه والناشر مذهبه، فما بال الآخرين..!

(١) أبو حنيفة، لمحمد أبو زهرة ص ٥.

(٢) أبو حنيفة، لمحمد أبو زهرة ص ٥.

(٣) الخطيب ج ١٣ ص ٣٧٤.

(٤) الانتقاء لابن عبد البر ص ١٤٨.

وعن الوليد بن مسلم قال: قال لي مالك بن أنس: أذكر أبو حنيفة في بلادكم؟ قلت: نعم، قال: لا ينبغي لبلادكم أن تُسكن^(١).

وقال الأوزاعي: إننا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى، كلنا يرى، ولكننا ننقم عليه أنه يجهل الحديث عن النبي (ص)، فيخالفه إلى غيره^(٢).

قال ابن عبد البر: وممن طعنَ عليه وجرحه، محمد بن اسماعيل البخاري، فقال في كتابه (الضعفاء والمتروكون): أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، قال نعيم بن حماد: حدثنا يحيى بن سعيد ومعاذ بن معاذ سمعنا سفيان الثوري يقول:

استيبَ أبو حنيفة من الكفر مرتين. وقال نعيم الفزاري: كنتُ عند سفيان بن عيينة، فجاء نعي أبي حنيفة، فقال: ... كان يهدم الإسلام عروة عروة، وما ولد في الإسلام مولود أشر منه، هذا ما ذكره البخاري^(٣).

وقال ابن الجارود في كتابه (الضعفاء والمتروكون): النعمان بن ثابت جل حديثه وهم.

وعن وكيع بن الجراح أنه قال: وجدتُ أبا حنيفة خالفَ مائتي حديث عن رسول الله.

وقيل لابن المبارك: كان الناس يقولون أنك تذهب إلى قول أبي حنيفة، قال: ليس كل ما يقول الناس يُصيرونَ فيه، كنا نأتيه زماناً ونحن لا نعرفه، فلما عرفناه^(٤).

(١) الخطيب ج ٣ ص ٣٧٤.

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٦٣.

(٣) الانتقاء لابن عبد البر ص ١٥٠.

(٤) المصدر السابق.

ومن الواضح أن هذه الآراء قد تميزت بالموضوعية، فلم تكن سباً وشتماً وخروجاً عن حد المعقول بل هي إشكالات علمية على أبي حنيفة، وقد تغاضينا في هذا المقام عن تهريجات أعدائه وعن مغالاة أتباعه، واكتفينا بآراء العلماء فيه، وهي كافية في قدح شخصيته، فكيف تسنى له أن يكون إماماً، وفي الأمة من هو أجدر منه، فقهاً وعلماً وعدالة؟! ولكنها السياسة، وما أدراك ما السياسة.

❁ أبو حنيفة والإمام الصادق عليه السلام :

كان أبو حنيفة كثير الجدل قوي المناظرة، وقد أراد المنصور، أن يستغله في ضرب الإمام الصادق عليه السلام، الذي انتشر ذكره وعلا صيته، وكان يصعب على المنصور أن يرى في الكوفة ومكة والمدينة وقم حلقات علمية هي أشبه شيء بفروع لمدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ولذلك اضطر المنصور لطلب الإمام عليه السلام من المدينة إلى الكوفة وطلب من أبي حنيفة أن يهيء من مهمات المسائل، فيسأل الإمام بها في مجلس عام لكي يخرج الإمام الصادق عليه السلام ويحط من منزلته.

قال أبو حنيفة: ما رأيتُ أفتق من جعفر بن محمد الصادق، لما أقدمه المنصور بعث إليَّ فقال: يا أبا حنيفة، إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيء له من المسائل الشداد، فهياتُ له أربعين مسألة.

ثم بعثُ إليَّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته، فدخلتُ عليه، وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرتُ به، دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلمتُ عليه، وأوماً إليَّ فجلستُ ثم التفتَ إليه فقال: يا أبا عبد الله، هذا أبو حنيفة.

قال جعفر: نعم، قد أتانا، كأنه كره ما يقول فيه قومه أنه إذا رأى الرجل عرفه، ثم التفت المنصور إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائك، فجعلتُ ألقى فيُجيبني، فيقول: أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا، فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا جميعاً حتى أتيت على الأربعين مسألة، ثم قال أبو حنيفة: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس^(١)..

وكان الإمام الصادق عليه السلام ينهى أبا حنيفة عن القياس ويشدد الإنكار عليه، ويقول: بلغني أنك تقيس الدين برأيك، لا تفعل فإن أول من قاس إبليس^(٢).

وقال له: يا أبا حنيفة، ما تقول في محرم كسر رباعية ظبي؟! قال: يا ابن رسول الله ما أعلم فيه. فقال: أنت تتدهأى ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية، وهو ثني أبداً^(٣).

وحدّثنا أبو نعيم: إن أبا حنيفة وعبد الله بن أبي شبرمة وابن أبي ليلى دخلوا على جعفر بن محمد الصادق، فقال لابن أبي ليلى: من هذا الذي معك؟

قال: هذا رجل له بصر ونفاذ في الدين.

قال: لعله يقيس أمر الدين برأيه؟

قال: نعم.

فقال جعفر لأبي حنيفة: ما اسمك؟

قال: نعمان.

(١) مناقب أبي حنيفة، للموفق ج ١ ص ١٣٧، تذكرة الحفاظ للنهي ج ١ ص ١٥٧.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٢٨.

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٢، شذرات الذهب ج ١ ص ٢٢٠.

قال: ما أراك تُحسن شيئاً، ثم جعل يوجه إليه أسئلة فكان جواب أبي حنيفة عدم الجواب عنها.

فأجابه الإمام عنها.

ثم قال: يا نعمان حدثني أبي عن جدي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس.

قال الله تعالى له: اسجدْ لآدم. فقال: أنا خيرٌ منه، خلقتني من نار وخلقته من طين، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس، لأنه من أتباعه بالقياس.

يقول الفخر الرازي: «العجب أن أبا حنيفة كان تعويله على القياس، وخصومه يذمونه بسبب كثرة القياسات، ولم يُنقل عنه ولا عن أحد من أصحابه أنه صنف في إثبات القياس ورقة، ولا أنه ذكر في تقريره شبهة، فضلاً عن حجة، ولا أنه أجاب عن دلائل خصومه في إنكار القياس، بل أول من قال في هذه المسألة وأورد فيها الدلائل هو الشافعي»^(١).

ومن أجل ذلك نجد الإمام الصادق عليه السلام يوجه الأمة إلى الطرق الصحيحة في استنباط الأحكام الشرعية، وخاصة بعدما تفتش القياس والعمل به كمصدر من مصادر التشريع، فتخرج من مدرسته آلاف العلماء المجتهدين. وكان من بينهم أبو حنيفة الذي انقطع له طوال عامين قضاهما بالمدينة، وفيها يقول: لولا العامان لهلك النعمان.

وكان لا يخاطب صاحب المجلس إلا بقول: «جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله»^(٢).

(١) الإمام الصادق، لعبد الحلیم الجندي هامش ص ١٨٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٢.

ويعلق عبد الحليم الجندي لتلميذة أبي حنيفة على الإمام الصادق عليه السلام

بقوله:

«ولئن كان مجداً لمالك أن يكون أكبر أسياف الشافعي، أو مجداً للشافعي أن يكون أكبر أساتذة ابن حنبل، أو مجداً يتلمذاً أن يتلمذاً لشيخيهما هذين، إن التلميذة للإمام الصادق قد سربلت بالمجد فقه المذاهب الأربعة لأهل السنة، أما الإمام الصادق فمجده لا يقبل الزيادة أو النقصان. فالإمام مبلغ للناس كافة، علم جده عليه الصلاة والسلام. والإمامة مرتبته وتلميذة أئمة السنة له تشرف منهم لمقاربة صاحب المرتبة»^(١).

فحقاً إن مجالسة الإمام الصادق عليه السلام شرفٌ يفتخر به، فهو عالم أهل البيت ومعدن الحكمة. قد اعترف بفضل الأعداء، قال المنصور: هذا الشجي المعترض في حلقي أعلم أهل زمانه. وإنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا.

وليس الأمر هو الاعتراف بفضل، أو التشرف بمجالسته، فحسب إنما هو التسليم له والإنصياع لأمره لأن طاعته فرضٌ من الله على كل مسلم، كما هو ثابت بمحدث الثقلين «كتاب الله وعترتي أهل بيتي» ومع الأسف لم يكن أبو حنيفة من أهل التسليم له فانفرد بنفسه يفتي برأيه ويقيس في الدين، ويخالف بذلك أحاديث رسول الله (ص) التي لم يقبل منها سوى سبعة عشر حديثاً..!

وأختم هذا المقام بمناظرة جرت بين الإمام الصادق عليه السلام وأبي حنيفة

عندما جاء إليه أبو حنيفة :

قال له الصادق عليه السلام: من أنت؟

- أبو حنيفة.

- مفتي أهل العراق؟

(١) المصدر السابق ص ١٦٣.

- نعم.
- بِمَ تفتيهم؟
- بكتاب الله.
- وإنك لعالم بكتاب الله؟.. ناسخة ومنسوخة؟.. محكمه ومتشابهه؟
- نعم.
- فأخبرني عن قول الله عز وجل: «وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين». أي موضع هو؟
- هو ما بين مكة والمدينة.
- فالتفت الإمام يميناً وشمالاً.
- ناشدتكم بالله.. هل تسيرون بين مكة والمدينة ولا تأمنون على دمائكم من القتل؟ وعلى أموالكم من السرقة؟
- «وبصوت واحد قال الحاضرون: اللهم نعم»
- والتفت الإمام عليه السلام إلى أبي حنيفة هذه المرة:
- ويحك يا أبا حنيفة!.. إن الله لا يقول إلا حقاً.
- فسكت أبو حنيفة لحظات، ثم تراجع عن قوله السابق:
- ليس لي علم بكتاب الله.
- وطرح مبرراً جديداً:
- إنما أنا صاحب قياس.
- قال الإمام عليه السلام:
- انظر في قياسك، إن كنت مقيساً.
- أيهما أعظم عند الله: القتل؟.. أو الزنا؟
- بل القتل.

- فكيف رضي في القتل شاهدين، ولم يرض في الزنا إلا بأربعة؟

أيقاس لك هذا؟

- قال: لا.

- حسناً:

الصلاة أفضل أم الصوم؟

- بل الصلاة أفضل.

- فيجب على قولك على الحائض قضاء ما فاتها من الصلاة في حالة

حيضها. دون الصيام، وقد أوجب الله تعالى عليها قضاء الصوم

دون الصلاة. وأعرض عن هذا أيضاً.

- البول أقدر أم المنى؟

- البول أقدر.

- يجب على قياسك أن يجب الغسل من البول، دون المنى، وقد

أوجب الله تعالى الغسل من المنى دون البول.

أيقاس لك ذلك؟

فسكت أبو حنيفة، وقال:

إنما أنا صاحب رأي.

وسرعان ما سأله الإمام:

- فما ترى في رجل كان له عبد، فتزوج وزوج عبده في ليلة واحدة،

فدخلوا بامراتيهما في ليلة واحدة، ثم سافرا وجعلوا امرأتيهما في

بيت واحد، وولدتا غلامين.. فسقط البيت عليهم فقتل المرأتين

وبقي الغلامان، أيهما في رأيك المالك وأيهما المملوك؟.. وأيهما

الوارث وأيهما الموروث.

وللمرة الثالثة، تراجع أبو حنيفة عن قوله: إنه صاحب رأي، وأعلن بعد لحظات صمت وتفكير وحيرة وخجل:

إنما أنا صاحب حدود.

فقال الإمام:

- فما ترى في رجل أعمى، فقأ عين صحيح، وأقطع قطعاً يد رجل كيف يقام عليهما الحد؟

حاول أبو حنيفة أن يجيب عن أسئلة الإمام حتى يحصل على تبرير لتربعه على عرش الفتيا، في العراق، ولكنه فشل ثم قال بتحسر:

- لا علم لي... لا علم لي

- ... لولا أن يقال دخل على ابن رسول الله، فلم يسأله عن شيء ما سألتك عن شيء.. فقس إن كنت مقيساً.

- لا.. لا أتكلم بالرأي والقياس في دين الله بعد هذا المجلس.

ولكن الإمام عليه السلام ابتسم قائلاً:

كلا.. كلا.. إن حبّ الرئاسة غير تاركك.. كما لم يترك من قبلك.

(ب) الإمام مالك بن أنس :

هو أبو عبد الله، مالك بن أنس بن مالك، ولد في المدينة سنة ٩٣هـ على أحد الأقوال وتوفي سنة ١٧٩هـ على أحد الأقوال، وقد ازدهر عهد مالك بالعلم وأصبحت المدينة يؤمها طلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية، وامتازت مدرسة المدينة بالتمسك بالحديث ومحاربة مدرسة الرأي بالكوفة برئاسة أبي حنيفة، مما أحدث بينهما خلافاً وتنازعاُ خرج عن حد العلم والموضوعية.

وكان في قبال هذه المدارس، مدرسة الإمام الصادق عليه السلام التي كانت تضح بالعلماء والوفود من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، الذين كانوا يتحिनون الفرص للقاء أئمة أهل البيت (ع) وكان الصادق عليه السلام أقلهم مضايقة من قبل السلطات. وقد انتمى مالك إلى مدرسته مدة من الزمن وأخذ عنه الحديث، فيعتبر من أكبر شيوخ مالك، ثم تتلمذ مالك على يد عدد من المشايخ، أمثال: عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام، وزيد بن أسلم، وسعيد المقبري وأبي حازم، وصفوان بن سليم، وغيرهم، وقد اختص مالك بملازمة والأخذ من وهب بن هرمز، ونافع مولى بن عمر، وابن شهاب الزهري، وربيعة الرأي، وأبو الزناد، وقد تقدم مالك حتى تزعم مدرسة الحديث، ولكن سرعان ما تدخلت السياسة، لكي تنتصر لمدرسة الرأي، وتسخط على أهل الحديث، ولذلك كان مالك بن أنس عرضة لضغوط الدولة حتى منعه من الحديث وضرب بالسياط لأجل فتوى أفتاها لم توافق هوى الدولة، وذلك في زمن ولاية جعفر بن سليمان سنة ١٤٦ هـ فإنه جرد مالكاً ومدته وضربه بالسياط حتى انخلعت كتفاه.

قال إبراهيم بن حماد: كنتُ أنظرُ إلى مالكٍ إذا أقيم من مجلسه حمل يده اليمنى أو يده اليسرى بالأخرى.

ومن الغريب والمثير جداً أنه بعد زمن قليل أصبح مالك مقدماً في الدولة، منوطاً بالعباية، وصل إلى مرحلة كان يتهبب منه الأمراء، فالسؤال الذي يطرح نفسه أي شيء حصل عند مالك حتى ترضى عنه الدولة وترفعه هذه المكانة؟

فهل كانت الدولة تبغضه لرأي معين تنازل عنه مالك؟

أم ثبت على ما يراه وتحملته الدولة وتنازلت له؟

أم هناك شيء آخر؟

وهذا السؤال الحائر، والاستفهام الذي يعترض من يدرس تاريخ الإمام مالك فيلاحظ تبدل العلاقة بينه وبين الدولة، من حالة ضغط وغضب إلى أن أخذ مالك والمنصور يتبادلان العواطف والثناء.

فالمنصور يقول لمالك: أنت والله أقل الناس وأعلم، لئن بغيت لأكتبن قولك كما تُكتب المصاحف، ولأبعثنَّ به إلى الآفاق فأحملهم عليه.

ومن هنا كانت انطلاقة مذهب الإمام مالك عندما أصبح رضاء للسلطان، وإلا فإن المسألة ليست علماً وعدمه بل ملكٌ وسلطان ودعاية وإعلام، وحمل الناس بالرضا أو بالقهر على تقليد المذهب، وهذا هو الذي دعى ربيعة الراي - أستاذ مالك وأكثر منه علماً - أن يقول: أما علمتم أن مثقالاً من دولة خير حمل علم^(١).

وعندما حصل مالك من السلطان هذا الرضا، أخذ يقول: وجدتُ المنصور أعلم بكتاب الله وسنة رسوله وآثار من مضى.

سيحان الله!، أي علم للمنصور، حتى يكون أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله (ص)؟!!

ولكنه التزلف، والتقرب إلى الملك والسلطان.

وأما الدليل على أن مالكا كان منزوياً عن السلطان؟! لم يحدثنا التاريخ أنه وقف بجرأة أمام المنصور، يخالفه في أمر أو يعترض طريقه، كما فعل عبد الله بن مرزوق عندما التقى بأبي جعفر في الطواف، وقد تحذى الناس عنه، فقال له عبد الله: من جعلك أحق بهذا البيت من الناس تحول بينه وبينهم وتنجيهم منه؟!!

فنظر أبو جعفر في وجهه فعرفه. فقال: يا عبد الله بن مرزوق، من جراك على هذا، ومن أقدمك عليه؟

(١) طبقات الفقهاء لأبي اسحاق.

فقال عبد الله: وما تصنع بي؟ أيديك ضرر أو نفع؟ والله ما أخاف
ضرك ولا أرجو نفعك، حتى يكون الله عز وجل يأذن لك في.
قال المنصور: إنك أحللتَ بنفسك وأهلكتها.

فقال عبد الله: اللهم إن كان بيد أبي جعفر ضري، فلا تدع من الضر
شيئاً إلا أنزلته علي، وإن كان بيده منفعتي، فاقطع عني كل منفعة منه، أنت
يا رب بيدك كل شيء، وأنت مليك كل شيء.

فأمر به أبو جعفر، فحمله إلى بغداد، فسجنه بها ثم أطلقه^(١).
ولذلك نجد مالكاً بعداً عن الإمام الصادق عليه السلام، لانه لا يتفق مع آرائه
من مجانبية السلطان والابتعاد عنه.

وأنا - في نظري - أن السبب الأساسي في غضب السلطة أولاً على
مالك لأنها رأت منه تودداً للإمام الصادق عليه السلام، والشبهة التي كانت تدور
في ذلك الوقت، أن العرب يريدون أن يثأروا لأهل البيت، ولذلك نجد أن
السلطة قربت الموالي ونصرت أبا حنيفة في الكوفة، وعندما انتفى هذا الأمر
لم تجد السلطة طريقاً إلا أن تلمع شخصية مالك وتطرحة كرمز ديني للدولة،
حتى يصدق عليها اسم الدولة الإسلامية، وخاصة أن العباسيين ثاروا على
الأمويين بحجة أنهم بعدوا عن الدين، ولهذا نجد أن المرسوم الملكي صرح
بصلاحيات لمالك لم تكن معهودة عند عالم من قبل: «إن رابك ريب من
عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد من عمال الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك
أو سوء أو شر في الرعية. فاكتب إليّ بذلك أنزلُ بهم ما يستحقون».

فعظمت بذلك منزلة مالك، فأخذ الولاة يهابونه هيبة المنصور، كما
حدّث الشافعي عندما قديم المدينة يحملُ كتاباً لوالها من والي مكة، ويطلب
منه أن يوصله إلى مالك، فقال الوالي: يا فتى إن المشي من جوف المدينة إلى

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٥٦.

جوف مكة حافياً راجلاً أهون عليّ من المشي إلى باب مالك، فلست أرى
الذلة حتى أقف على باب داره^(١).

وعندما جاء المهدي بعد المنصور عظمت مكانة مالك وازدادَ قرباً إلى
السُّلطة، فكان المهدي يحله ويحترمه ويصله بهدايا جزيلة، وعطاء وافر،
ويظهر للناس شأنه وعلو منزلته وعندما جاء الرشيد لم يغير في الموازين
فاحتفظ للمالك بمكانة وعظمه غاية التعظيم، فوقعت هيبة مالك في النفوس.
هكذا السياسة.

ترفعُ مَنْ تُريدُ أن ترفعه، وتُنسي ذكر مَنْ تريدُ له ذلك. وبعد ذلك ما
هو المانع الذي يحول بين مذهب مالك من الانتشار بعد أن أصبح رضاءً
للدولة؟!.

لك الله يا سيدي، جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

يعرفون أن الحق لك وعندك، ولا تجوز الإمامة لغيرك.

أو لم يقل مالك: «ما رأيت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب
بشر أفضل من جعفر الصادق، فضلاً وعلماً وعبادة وورعاً»^(٢).

ومع ظهور فضله، لم يلق عليه السلام وشيعته إلا الضغط والإرهاب والقتل
والتشريد، والذي يشهدُ به تاريخ الشيعة من وفاة رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم وطوال تاريخهم.

ولكنني أتساءل، كما يتساءل صاحب كتاب «الإمام الصادق معلم
الإنسان»، عندما قال: «إنني لا أتساءل لماذا ظل المسلمون ممزقين إلى سنة
وشيعة، لا: وإنما أتساءل بدهشة: كيف استطاع الشيعة الصمود حتى
اليوم، رغم كل الظروف القاهرة العصبية، التي مروا بها في ظل الإرهاب

(١) معجم الأدباء ج ١١ ص ٢٧٥.

(٢) ابن شهر آشوب، مناقب الإمام الصادق - الإمام الصادق معلم الإنسان ص ٢٤.

الفكري والجسدي؟.. ورغم كل محاولات طمس معالم الحق وتمزيق الإسلام!؟^(١).

وإلا ، أوليس من الظلم تقديم كل المذاهب على مذهب جعفر بن محمد عليه السلام؟! بل، من المؤسف جداً أنه غير معروف إلى الآن حتى في أوساط المثقفين من طبقات المجتمع.

وأذكر يوماً ، أن أستاذنا في الجامعة كان يدرسنا الفقه المالكي فاعترض عليه مجموعة من الطلبة قائلين: لماذا لا تُدرسنا الفقه على المذاهب الأربعة؟ قال: أنا مالكي، وأهل السودان كلهم مالكية، ومن كان منكم غير مالكي أنا مستعد أن أدرسه مذهبه بصورة خاصة، قلت له: أنا غير مالكي أتدرسني مذهبي؟، قال: نعم، وما مذهبك؟ أشافعي أنت؟ قلتُ: لا.

قال: حنفي أنت؟

قلت: لا .

قال: حنبلي أنت ؟

قلتُ: لا .

ظهرت الحيرة والاندحاشة على وجهه. وقال:

- إذن مَنْ تقلد؟! -

قلتُ: جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

قال: ومَنْ جعفر؟! -

قلتُ: أستاذ مالك وأبي حنيفة، ومن ذرية أهل البيت، اشتهر مذهبه باسم المذهب الجعفري.

قال: ما سمعتُ بهذا المذهب من قبل.

(١) الإمام الصادق معلم الإنسان ص ٥٢ .

قلتُ : نحن الشيعة .

قال: أعوذ بالله من الشيعة...

وخرج !

فمن كان له حظ وإعلام وسلطان بلغ الثريا، فمالك نفسه لم يكن طامعاً في هذه المرتبة لأنه يعلم أن هناك كثيرين أجدر منه بهذه المكانة. ولكن السلطة تريده مرجعاً عاماً في الفتوى ، وقد أمره المنصور بوضع كتاب يحمل الناسَ عليه بالقهر، فامتنع مالك فقال المنصور: ضعه فما أحد اليوم أعلم منك^(١)، فوضع الموطأ، ونادى منادي السلطان أيام الحج: أن لا يفتي إلا مالك.

* انتشار المذهب المالكي :

انتشر المذهب المالكي بواسطة القضاة والملوك، ففي الأندلس - حمل ملكها الناسَ على تقليد مذهب مالك، لما بلغه كلامٌ من مالك في مدحه عندما سأل عن سيرة الملك في الأندلس فذكر له عنها ما أعجبه فقال: نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بِمَلِكِكُمْ. فلما بلغ قوله إلى الملك حملَ الناسَ على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعي فاتبعه الناس خضوعاً لسلطته - فالناس على دين ملوكهم - .

وكذلك انتشر في أفريقيا بواسطة القضاة سحنون. يقول المقرئزي: ولما ولي المعز ابن باديس حمل جميع أهل أفريقيا على التمسك بمذهب مالك وترك ما عداه، فرجع أهل أفريقيا وأهل الأندلس كلهم إلى مذهبه، رغبة فيما عند السلطان، وحرصاً على طلب الدنيا إذ كان القضاء والإفتاء في جميع تلك المدن لا يكون إلا لمن تسمى بمذهب مالك، فاضطرت العامة إلى

(١) شرح الموطأ للزرقاني ج ١ ص ٨.

أحكامهم وفتاويهم، ففشا هذا المذهب هناك وحظي بالقبول لا بحسب مؤهلاته ومقوماته الروحية، وإنما سار على حسب نظام القوة التي خضع الناس لها بدون تبصر^(١).

وكذلك انتشر في المغرب عندما تولى علي بن يوسف بن تاشفين، في دولة بني تاشفين فعظم الفقهاء وقربهم، وكان لا يقرب إلا من كان مالكيًا، فتنافس الناس في تحصيل المذهب المالكي فنُفقت في زمانه كتب المذهب وعملوا بها وتركوا ما سواها حتى قلَّ اهتمام الناس بكتاب الله وسنة نبيه . هكذا لعبت السياسة في دين المسلمين فأصبحت هي التي تتحكم في اعتقاداتهم وتسيّر عباداتهم، فتوارث الناس المذاهب المفروضة وسلموا بها من غير جدال أو نقاش، وكان الأجدد أن يستقل كل جيل في معرفة ذلك ولا يقلد ويطيع طاعة عمياء.

قال ابن حزم: مذهبان انتشرا في مبدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة فإنه لما ولي أبو يوسف القضاء كان لا يولي قاضياً إلا من أصحابه المنتسبين إليه وإلى مذهبه.

والثاني: مذهب مالك عندنا في الأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبولاً في القضاء، فكان لا يولي قاضياً في أقطار الأندلس إلا بمشاورته واختياره ولا يسير إلا بأصحابه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم^(٢).

* طعون على مالك:

تجاوزت في هذا المقام، أقوال المتعصبين له، وتركت ما عندهم من فضائل ما أنزل الله بها من سلطان، لأنها ليست ميزاناً واقعياً لمعرفة شخصية

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ١ ص ١٦٦.

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١١٦.

مالك، وإليك نموذجاً منها: «إن القيسي رأى النبي (ص) يمشي في طريق وأبو بكر خلفه وعمر خلف أبي بكر ومالك بن أنس خلف عمر وسحنون^(١) خلف مالك»^(٢).

.. ومئات من أمثالها.. وهي قضايا تافهة وفضائل مصطنعة ليست جديرة بالنقاش.

واكتفيتُ هنا بكلمات العلماء وبعض المعاصرين لمالك، وهي آراء حرة لا تعدو أن تكون مجرد مؤاخذات علمية.

قال الشافعي: الليث أفتقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به، وقال سعيد بن أيوب: لو أن الليث ومالك اجتمعا لكان مالك عند الليث أبكم ولباع الليث مالكا في من يريد^(٣).

وسأل علي بن المديني يحيى بن سعيد: أيما أحب إليك رأي مالك أو رأي سفيان؟

قال: رأي سفيان لا يشك في هذا.

وقال: سفيان فوق مالك في كل شيء.

وقال يحيى بن معين: سمعتُ يحيى بن سعيد يقول سفيان أحب إليَّ من مالك في كل شيء^(٤).

وقال سفيان الثوري: ليس له حفظ يعني مالكا.

وقال ابن عبد البر: تكلم ابن ذويب في مالك بن أنس بكلام فيه جفاء وخشونة، كرهتُ ذكرها^(٥).

(١) هو القاضي المالكي الذي نشر منهج مالك في الأندلس.

(٢) مناقب مالك للزاوي ص ١٧، ص ١٨.

(٣) الرحمة الغيبية، لابن حجر ص ٦.

(٤) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٦٤.

(٥) جامع فضائل العلم ج ٢ ص ١٥٨.

وتكلم في مالك إبراهيم بن سعد، وكان يدعو عليه، وكذلك تكلم فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن أبي يحيى، ومحمد بن إسحاق الواقدي، وابن أبي الزناد، وعابوا أشياء من مذهبه.

وقال سلمة بن سليمان لابن المبارك: وضعت شيئاً في رأي أبي حنيفة ولم تضع في رأي مالك؟
قال: لم أره عالماً^(١).

وقال ابن عبد البر في مالك: أنهم عابوا أشياء من مذهبه، وعن عبد الله بن إدريس قال: قدم علينا محمد بن إسحاق فذكرنا له شيئاً عن مالك، فقال: هاتوا علمه، وقال يحيى بن صالح: قال لي ابن أكرم: قد رأيت مالكاً وسمعت منه ورافقت محمد بن الحسن، فأيهما كان أفضه؟ فقلت: محمد بن الحسن فيما يأخذه لنفسه أفضه من مالك^(٢).

وكان أبو محمد بن أبي حاتم يقول: عن أبي زرعة عن يحيى بن بكير أنه قال: الليث أفضه من مالك، إلا أنه كانت الخطوة لمالك^(٣).
وقال أحمد بن حنبل: كان ابن أبي ذؤيب يشبه سعيد بن المسيب، وكان أفضل من مالك، إلا أن مالكاً أشد تنقية للرجال منه^(٤).

ومن كل هذه الأقوال يمكننا القول: بأنه ليس هناك أفضلية لمالك على غيره من العلماء، وليست له ميزة تؤهله للمرجعية الفقهية، ولكن السياسة لا تنظر للمؤهلات الموضوعية، فلها ميزانها الخاص الذي تقيم به على أساس

(١) المصدر السابق.

(٢) الخطيب البغدادي ج ٢ ص ١٧٥.

(٣) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ١ ص ٤٩٨.

(٤) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٧٦.

موازينها السياسية ومصالحها، فالفقيه الذي لا يتعارض مع سياستها هو الفقيه الذي يجب على المسلمين تقليده والافتداء به.

ج - الإمام الشافعي :

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع. ولد سنة ١٥٠ هـ وقيل في اليوم الذي مات به أبو حنيفة. واختلف في مكان ولادته بين غرة وعسقلان واليمن وقولاً شاذ متروك بمكة، وتوفي في مصر سنة ٢٠٤ هـ.

هاجر مع أمه وهو صغير إلى مكة، وفيها التحق بالكتاب فحفظ القرآن الكريم، وتعلم الكتابة وبعدها خرج إلى البادية ولازم هذيلاً ٢٠ سنة على ما حدث به ابن كثير في البداية والنهاية وسبع عشرة سنة كما حدث هو عن نفسه في معجم البلدان، فاكسب فصاحة هذيل وفي طوال هذه المدة لم يكن للشافعي توجه علمي وفقهي حيث لم يتوجه إليه إلا في العقد الثالث من عمره، وإذا كان بقاؤه في البادية ٢٠ سنة فيكون طلبه للفقهِ في العقد الرابع، أي بعد أن تجاوز الثلاثين سنة.

تتلمذ الشافعي على شيوخ من مكة والمدينة واليمن وبغداد، وأول من تلقى الشافعي منه العلم هو مسلم بن خالد المخزومي المعروف بالزنجي، وكان ممن لا يُعتمد عليه في الحديث، فقد ضَعَفه وطعن فيه كثيرٌ من الحفاظ، كأبي داود وأبي حاتم، والنسائي^(١).

ثم درس على سعيد بن سالم القداح، وقد أتهم بأنه من المرجئة، وأخذ عن سفيان بن عيينة تلميذ الإمام الصادق عليه السلام، وهو أحد أصحاب المذاهب البائدة، كما أخذ من مالك بن أنس في المدينة.. وآخرين، وقد ذكر ابن

(١) تهذيب التهذيب ج ص.

حجر منهم ثمانين.. وفيه ضربٌ من المبالغة، وقد أنكر الرازي تعصباً منه، أخذ الشافعي من محمد بن الحسن الشيباني، القاضي، تلميذ أبي حنيفة، ولا مجال لتعصبه فقد اعترف الشافعي بأخذ العلم منه.

أما تلاميذ الشافعي فمنهم العراقي ومنهم المصري، وقد شكّلوا فيما بعد العامل الرئيسي في نشر مذهبه، فمن العراق: خالد اليماني الكلبي، أبو ثور البغدادي الذي يُعد صاحب مذهب منفرد كان له مقلدون إلى القرن الثاني، وتوفى سنة ٢٤٠هـ. والحسن بن محمد بن محمد بن الصّبّاح الزعفراني، والحسن بن علي الكرايسي، وأحمد بن عبد العزيز البغدادي، وأبو عبد الرحمن أحمد بن محمد الأشعري، كان يشبه الشافعي ويوصف به لأنه انتصر للمذهب ودافع عن أصحابه لمكائنه من السلطان وعلو منزلته في الدولة فكان له جاه عظيم. ومن تلاميذه أحمد بن حنبل، رغم إدعاء الحنابلة بأن الشافعي كان يحدّث عن أحمد وتلمذ عليه كما جاء في طبقات الحنابلة.

أما تلاميذه في مصر، فقد كانوا أكثر تأثيراً في نشر مذهبه، وتأليف الكتب ومن أشهرهم، يوسف بن يعقوب البويطي وهو خليفة الشافعي في الدرس ومن أكبر الدعاة له.

فكان يدني الغرباء ويعرفهم فضل الشافعي، حتى كثر أتباعه وانتشر مذهبه فحسده بن أبي الليث الحنفي وأخرجه من مصر فمات في السجن ببغداد.

ومن تلاميذه: إسماعيل بن يحيى المزني، أبو إبراهيم المصري، له تصانيف في المذهب الشافعي ساعدت في نشر المذهب، مثل الجامع الكبير، الجامع الصغير، والمثبور...

والدارس لتاريخ الشافعي يجد أن تلاميذه وأصحابه هم الذين ساندوه ونشروا مذهبه.

وهناك اختلافٌ بين مدرسة الشافعي في العراق، ومدرسته في مصر، تستدعي التأمل، فقد عُرف عن الشافعي أنه عدلٌ عن فتاويه في العراق، وعرفت بالمذهب القديم وهو الذي أخذه تلاميذه في العراق، ومن كتب المذهب القديم، الأمالي ومجمع الكافي، فعند هجرته إلى مصر حرّم الأخذ بمذهبه القديم بعد أن انتشر وعملَ به العوام.. فهل رجع عنها لأنها كانت باطلة؟! أم أن اجتهاده كان ناقصاً في بغداد واكتمل في مصر؟!!

ثم ما هو الضمان بصحة مذهبه الجديد في مصر؟!!

وهل لو طال به العمر يعدل عنه؟!.. فلذلك تجدد قولين في المسألة الواحدة في الفقه الشافعي، كما جاء في كتاب الأم، وقد يُعتبر هذا التردد والاختلاف ناتجاً من عدم الجزم وهو نقصٌ في الاجتهاد والعلم.

وقد أكد هذا المعنى قول البيزاز: > كان الشافعي رحمه الله بالعراق يُصنف الكتب وأصحاب محمد - أي الشيباني - يكثرون عليه أقاويله بالحجج ويضعفون أقواله وقد ضيقوا عليه، وأصحاب الحديث لا يلتفتون إلى قوله، ويرمون بالاعتزال فلما لم يقدّم له بالعراق سوق خرج إلى مصر، ولم يكن بها فقيه معلوم فقام له بها سوق^(١)...

واختلف هذا الوضع عندما هاجر إلى مصر لأن الشافعي عُرفَ بأنه تلميذ مالك وناصر مذهبه والمدافع عنه، وهذا هو العامل الذي هيا له النجاح في مصر، وذلك أن الطابع العام كان مالكيّاً، بالإضافة إلى أنه قديمٌ إلى مصر بتوصية من خليفة العصر إلى أمير مصر فوجد بذلك العناية الكافية في مصر وخاصة من أصحاب مالك فأخذ بعد ذلك بنشر مذهبه الجديد.

ولكن ما برح الشافعي كثيراً حتى أخذ يؤلف الكتب في الرد على مالك، ومعارضة أقواله، ويقول الربيع في ذلك: سمعتُ الشافعي يقول:

(١) المناقب للبيزاز/ج٢ ص١٥٣.

قدمتُ مصر ولا أعرف أن مالكا يخالف من أحاديثه إلا ستة عشرة حديثاً، فنظرت، فإذا هو يقول بالأصل ويدع الفرع ويقول بالفرع ويدع الأصل. وقال أبو عمر: وتكلم في مالك أيضاً فيما ذكره الساجي في كتاب العلل، عبد العزيز بن أبي سلمى، وعبد الرحمن بن زيد، وعابوا أشياء من مذهبه إلى أن يقول وتحامل عليه الشافعي، وبعض أصحاب أبي حنيفة في شيء من رأيه حسداً لموضع إمامته^(١).

فضاق المالكية به ذرعاً، وتربصوا به حتى قتلوه، وقد نصَّ ابن حجر على أنهم ضربوه بمفتاح حديد فمات^(٢)، وذكر قصيدة أبي حيان في مدح الشافعي :

ولما أتى مصر انبرى بالأذى له

أناسٌ طورا كشحاً على بغضه طيا

أتى ناقداً ما حصَّله وهادماً

لما أصَّلوا إذ كان بنيانهم وهيا

فدسوا عليه عندما انفردوا به

شقياً لهم شلَّ الإله له اليديا

فشَّق بمفتاح الحديد جبينه

فراح قتيلاً لا بواكٍ ولا نعيًا

فذهب الشافعي ضحية التعصب المذهبي من المالكية.

ورغم كل ذلك كانت مصر البذرة الأولى التي انتشر منها مذهب الشافعي، بفضل أصحابه وتلامذته، ولولاهم لكان حال المذاهب

(١) جامع بيان العلم وفضله.

(٢) توالي التأسيس ص ٨٦.

المنقرضة، كما انتشر في الشام التي كانت يغلبُ عليها مذهب الأوزاعي. وبعدما ولي القضاء فيها محمد بن عثمان الدمشقي الشافعي عمل على نشر مذهب الشافعي في الشام وانقرضَ بعد ذلك المذهب الأوزاعي وتمت الغلبة لمذهب الشافعي أيام الدولة الأيوبية فكان ملوكهم شوافع، مما ساعد على تمكين المذهب، وعندما جاءت بعدهم دولة المماليك في مصر لم تنقص من حظوة المذهب الشافعي، فقد كان كل ملوكها شوافعَ إلا سيف الدين فقد كان حنفياً ولكنه لم يؤثر في انتشار مذهب الشافعي.

وبهذه الطريقة علا اسم الشافعي بواسطة الملوك والسلاطين ولولا ذلك لكان مذهبه نسياً منسياً.

* طعون على الشافعي :

كان لكل إمام خطان متضادان، الغالون والمبغضون، كما تقدم ذكره..

ولا يمكن والحال هذا القيام بتقييم دقيق لحال الشافعي، وقد وصفه المغالون بصفات، فجعلوه بدرجة من الكمال، بحيث يمتنع لأي مخلوق الوصول إليها، وفي المقابل وضع المبغضون فيه أحاديث نزلوه بها إلى درجة إبليس.

روى أحمد بن عبد الله الجوياري عن عبد بن معدان عن أنس عن النبي (ص): يكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس أضر على أمتي من إبليس، ويكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي^(١).

وهذا مما لا يختلف فيه اثنان بأنه موضوع.

(١) اللآلي المصنوعة، للسيوطي ج ١ ص ٢١٧.

وفي المقابل يروي ابن عبد البر بسنده عن سويد بن سعيد قال: «كنا عند سفيان بن عيينة في مكة، فجاء رجل ينعى الشافعي ويقول: إنه مات، فقال سفيان: إن مات محمد بن إدريس فقد مات أفضل أهل زمانه»^(١).

وهذا أيضاً خبرٌ مكذوب لأن وفاة سفيان كانت سنة ١٩٨ هـ أي قبل وفاة الشافعي بست سنوات.

ولكن رغم هذا فقد توجهت الطعون على الشافعي فرموه بالاعتزال مرة وبالتشيع مرة أخرى وأنه يروي عن الكذابين وأنه قليل الحديث.

وسئل يحيى بن معين: الشافعي كان يكذب؟

قال: لا أحب حديثه ولا أذكره.

وروي الخطيب عن يحيى بن معين أنه قال: الشافعي ليس بثقة...

وهناك طعون لا قيمة لها، ولست في مقام الترجيح والتقييم، وما أثارني هو تهمة الشافعي بالتشيع، وتعد هذه التهمة من أخطر الاتهامات في تلك العصور التي كان فيها العلويون والشيعة تبنى عليهم الأعمدة ويقتلون شر قتلة حتى أصبح التظاهر بالعداء لعلي عليه السلام وأولاده وشيعته أمراً رائجاً... وللتوسع راجع الكتب التاريخية مثل، مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الأصفهاني، حتى تتعرف على نوع قليل من أنواع التعذيب لأهل البيت وشيعتهم، وبذلك انقسم الناس إلى قسمين قسمٌ صبرَ وضحى وتمسك بولائه لأهل البيت، وهم الأقلية، وقسم وهو السواد الأعظم خضع وباع دينه بدنيا والسلطين، وقد صدق الإمام الحسين عليه السلام عندما قال: الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معاشهم، فإذا ما محصوا بالبلاء قلَّ الديانون.

(١) الانتقاء ص ٧٠.

وفي هذا الجو المظلم أظهر الشافعي حبه لأهل البيت، وكان مجرد الحب لهم تهمة بالتشيع، وفي الواقع لم يكن الشافعي شيعياً، أي موالياً لأئمة أهل البيت ومتابعاً لخطاهم ولكنه مجرد الحب الذي يعلق على فطرة كل إنسان، ولذلك قال الشافعي:

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الذكر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

مستنداً في ذلك على قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾^(١).

وهي آية صريحة في وجوب حب أهل البيت (ع)، وقد كنت أعجب كيف يجعل الله أجر رسالته في حب أهل البيت؟! ولم يتضح لي هذا الأمر إلا بعدما عرفت كم هي قيمة الابتلاء في حب أهل البيت والتمسك بهم.. وهذا الشافعي نموذج أمامك فما أن أظهر حبه لأهل البيت حتى اتهموه بالترفض، قال الشافعي:

قالوا: ترفضت، قلت: كلا ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت دون شك خير إمام وخير هاد
إن كان حب الوصي رفضاً فإنني أرفض العباد

وعندما ظهر منه حبه لعلي عليه السلام، هجاه بعض الشعراء:

يموت الشافعي وليس يدري عليّ ربه أم ربه الله
والشافعي في هذا الجو المشحون ضد أهل البيت وشيعتهم، لم يتوان في الجهر بالحب لهم حتى أنشد يقول:

(١) الشورى، ٢٣.

يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً إذ افاض الحجيج إلى منى فيضاً كملتظم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

كما كان الشافعي يسمي الذين خرجوا على علي عليه السلام وقاتلوه، أهل البغي. مما ثبت عليه تهمة التشيع التي كانت كابوساً في صدور السلطة. ولكن بعد الدراسة والتقييم يظهر لنا أن تشيع الشافعي كان تشيعاً بالنسبة إلى مجتمعه الذي غرق في العداة لأهل البيت عليهم السلام تبعاً لملوكهم ولذلك أتهم بالتشيع، وإذا جردنا ذلك المجتمع من تبعية السلطة وسياستها فلا نجد أحداً ييغض أهل البيت ما عدا الخوارج ومن حذا حذوهم، فحب أهل البيت لا يخلو منه قلب مسلم غير مستسلم فيكون الشافعي بذاك محباً لأهل البيت وليس بشيعي، والفرق شاسع لأن كل من يحب القيم والمبادئ يحب أهل البيت الذين تجسدت فيهم هذه المبادئ، حتى ولو كان غير مسلم، والشواهد على ذلك كثيرة، يكفيها منها أن الكاتب المسيحي جورج جورداق، ألف موسوعةً من خمس مجلدات في الإمام علي عليه السلام يصفه فيها بأعظم ما يوصف،.. ويكتب آخر في السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء -عليها السلام- كتاباً يسميه «فاطمة وتر في غمد»، وهو سليمان كتاني صاحب كتاب «الإمام علي نبراس ومراس»، كما أن أطول قصيدة في العالم والتي تتكون من خمسة آلاف بيت ألفها مسيحي في حق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وثاني قصيدة تتكون من ثلاثة آلاف بيت أيضاً هي لمسيحي في فضل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وثالث قصيدة من ألف بيت لمسيحي في الإمام علي عليه السلام... وكل هذا لا يكفي لتشييعهم، فمجرد الحب لا يكفي وإنما الحب الحقيقي هو الموالة والاتباع والانقطاع التام إليهم لأخذ الدين ومعالم الإسلام كما يقول الشاعر:

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

د - الإمام أحمد بن حنبل :

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال، ولد سنة ١٦٤هـ في بغداد على الأشهر ومرو على الأضعف، وقد نشأ أحمد يتيماً في حجر أمه، وتوجه إلى العلم وهو ابن خمسة عشر عاماً.. أي سنة ١٧٩هـ، فدرس علم الحديث بعد تعلم قراءة القرآن واللغة، وأول شيخ تلقى عليه العلم هو هشام بن بشير السلمي، المتوفى سنة ١٨٣هـ، وقد صاحبه أحمد ثلاث سنوات أو أكثر، وقد رحل إلى مكة لطلب الحديث والكوفة والبصرة والمدينة واليمن والشام والعراق وتلمذ فيها على مجموعة من العلماء، لا حاجة لذكرهم، أهمهم الشافعي، ومن الغريب من الحنابلة أنهم جعلوا الشافعي تلميذاً لأحمد.

وله تلامذة كثيرون أشهرهم أحمد بن محمد بن هاني المعروف بالأثرم المتوفى سنة ٢٦١هـ، وصالح بن أحمد بن حنبل وهو أكبر وأولاده، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، المتوفى سنة ٢٩٠هـ، روى الحديث عن أبيه.

❖ من كتب أحمد وآثاره :

لم يصنف أحمد كتاباً في الفقه يعد أصلاً يؤخذ منه مذهبه الفقهي، وإنما له كتب عدت من الموضوعات الفقهية، مثل المناسك الكبيرة، والمناسك الصغير، ورسالة صغيرة في الصلاة، ولكنها لا تتعدى أن تكون كتب حديث وإن كان في موضوعاتها ما تناوله بالبسط والشرح^(١).

(١) أحمد بن حنبل، لأبي زهرة ص ١٩٨.

ومن المعروف عنه أنه يكره وضع الكتب التي تشمل التفريع والرأي، فقد قال يوماً لعثمان بن سعيد: لا تنظر إلى ما في كتب أبي عبيد ولا فيما وضع إسحاق ولا فيما وضع سفيان ولا الشافعي ولا مالك وعليك بالأصل. ومن أشهر تأليفاته في الحديث مسنده - يشمل أربعين ألف حديث تكرر منها عشرة آلاف -، وقد وثق أحمد مسنده، فعندما سُئل عن حديث قال: «انظر فإن كان في المسند وإلا فليس بحجة» وقد طعن فيه كثير من الحفاظ ولم يوثقوا كل ما فيه، بل صرحوا بوجود روايات موضوعة وليس هنا مقام البحث في هذا الأمر.

❖ محنة أحمد بن حنبل :

إن أظهر منعطف في تاريخ أحمد بن حنبل هي المحنة التي لاقاها بسبب القول بعدم خلق القرآن، وقد بدأت محنته في زمن المأمون الذي كان يأخذ الناس بالعنف للقول بخلق القرآن، وقد كان المأمون متكلماً عالمياً فأرسل منشوره إلى كل ولاته يأمرهم بامتحان الناس بخلق القرآن، جاء فيه: «إن خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين وإقامته والعمل بالحق في الرعية، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة مما لا نظر له ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده، والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه، وواجب سبيله، وقصور عن أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفونه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكير والتذكر، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وما

أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين على أنه - أي القرآن قديم أزلي لم يخلقه الله ويخترعه...»^(١).

ومن هنا بدأت محنة خلق القرآن، ولم يقع ابن حنبل في فخ الامتحان والتعذيب إلا في عهد المعتصم، لوفاة المأمون قبل امتحانه. وقد كان المعتصم شديداً في امتحان الناس والتنكيل بهم، وعندما جاء دور أحمد بن حنبل، فقد أقسم أنه لا يقتله بالسيف وإنما سيضربه ضرباً بعد ضرب... ويزجه في مكان مظلم لا يرى فيه النور، وبقي أحمد ثلاثة أيام يؤتسى به كل يوم للمناظرة، عسى أن يرضخ لحكم السلطة ولكنه تمسك بقوله ورفض. فلما يش المعتصم منه أمر بضربه بالسياط، وضرب ٣٨ سوطاً، ولم يدم بعد ذلك تعذيب ابن حنبل فقد أطلق المعتصم سراحه وهذا ما يشير العجب والغرابة، هل هذا كاف في أن يصنع من أحمد بطلاً تاريخياً وقد شهد التاريخ أناساً أكثر منه تعديماً وصبراً؟! ثم لماذا لم يدم تعذيبه؟! هل خضع وقال بمقالة السلطان؟

وقد ذكر بعضهم أن العامة قد اجتمعوا على دار السلطان، وهموا بالهجوم، فأمر المعتصم بإطلاقه... وهذا لا يستقيم وتاريخ المعتصم الذي عُرف بالقوة وصلابة الإرادة، وعظمت دولته، فلا يؤثر فيها استنكار العامة، ثم أي عامة هذه، هل هم أتباع أحمد؟! لم يكن أحمد مشهوراً ومعروفاً قبل المحنة حتى يكون له عوام، وإذا كانوا أتباعه فقد حرم أحمد عليهم الخروج على السلطان..! فهذا السبب غير مقنع.

ويظهر أن سبب ذلك أن أحمد أجاب الخليفة وقال بمقالته، فأطلق سراحه كما ذكر الجاحظ في رسالته مخاطباً أهل الحديث بعد أن ذكر المحنة

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ٢ ص ٤٥٣.

والامتحان: حوقد كان صاحبكم هذا - أي أحمد بن حنبل - يقول: لا تقية إلا في دار الشرك، فلو كان ما أقر به من خلق القرآن، كان منه على وجه التقية، فلقد أعملها في دار الإسلام وقد كذّب نفسه، وإن كان ما أقر به على الصحة والحقيقة فلستم منه وليس منكم، على أنه لم ير سيفاً مشهوراً، ولا ضرب ضرباً كثيراً، ولا ضرب إلا ثلاثين سوطاً مقطوعة الثمار مشبعة الأطراف، حتى أفصح بالإقرار مراراً، ولا كان في مجلس ضيق ولا كانت حاله مؤيسة، ولا كان مثقلاً بالحديد، ولا خُلِعَ قلبه بشدة الوعيد ولقد كان منازع بألین الكلام ويجيب بأغلظ الجواب ويرزنون ويخف ويحلمون ويطيش^(١)...

ويؤيد ذلك ما ذكره اليعقوبي في تاريخه من قول الجاحظ بإقرار أحمد ابن حنبل بأن القرآن مخلوق، قال: دوامتن المعتصم أحمد بن حنبل في خلق القرآن، فقال أحمد: أنا رجل علمت علماً ولم أعلم فيه بهذا فأحضر له الفقهاء وناظره عبد الرحمن بن إسحاق، وغيره.. فامتنع أن يقول أن القرآن مخلوق، فضرب عدة سياط، فقال إسحاق بن ابراهيم: ولني يا أمير المؤمنين مناظرته، فقال: شأنك به، فقال إسحاق: هذا العلم الذي علمته نزل به عليك ملك أو علمته من الرجال!؟

فقال أحمد: بل علمته من الرجال.

فقال إسحاق: شيئاً بعد شيء أو جملة؟

قال: علمته شيئاً بعد شيء.

قال إسحاق: فبقي عليك شيء لم تعلمه.

قال أحمد: بقي عليّ شيء لم أعلمه.

(١) مقدمة كتاب - أحمد بن حنبل والحنة ص ١٤، نقلاً عن هامش الكامل ج ٣ ص ١٣١ -

قال إسحاق: فهذا مما لم تعلمه، وعلمكه أمير المؤمنين.

قال أحمد: فإني أقول بقول أمير المؤمنين.

قال إسحاق: في خلق القرآن؟

قال أحمد: في خلق القرآن.

فأشهد عليه وخلع عليه وأطلقه إلى منزله^(١).

وتكون هذه الضجة مفتعلة أكثر من الواقع، وقد صنع منها الحنابلة

أساطير وأوهاماً حتى تكون دعاية وإعلاماً بطرح إمامة أحمد بن حنبل، وإلا

إذا حوكت. هذه المسألة على أرض الواقع، لم يكن ابن حنبل بطلها.

❖ أبطال لم تسلط عليهم الأضواء :

(١) أحمد بن نصر الخزاعي، المقتول سنة ٢٣١هـ، وهو من تلاميذ

مالك بن أنس وروى عنه ابن معين ومحمد بن يوسف، وكان من أهل العلم،

وقد امتحنه الواثق وسأله: ما تقول في القرآن؟

قال: كلام الله ليس بمخلوق، فحمله أن يقول أنه مخلوق فأبى وسأله

عن رؤية الله يوم القيامة، فقال بها. وروى الحديث في ذلك فقال الواثق:

ويحك، هل يُرى كما يُرى المحدود المتجسم ويجويه مكان، ويحصره الناظر،

إنما كفرت بربِّ هذه صفته، ولما أصرَّ أحمد الخزاعي على رأيه، دعى الخليفة

السيف المسمى الصمصامة، وقال: إني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي

يعبد رباً لا نعبد، ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها، ثم مشى إليه بنفسه

فضرب عنقه، وأمر به وحمل رأسه إلى بغداد، فنصب بالجانب الشرقي أياماً،

ثم بالجانب الغربي أياماً، ولما صُلب كتب الواثق ورقة وعلقت في رأسه:

(١) تاريخ يعقوبي ج ١ ص ١٩٨.

هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك، دعاه عبد الله الإمام هارون - وهو
الوائق - إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه فأبى إلا المعاندة فَعَجَلَ اللهُ به
إلى ناره^(١).

(٢) يوسف بن يحيى البويطي، كما تقدم من تلاميذ الشافعي وخليفته
على حلقة درسه، حُمل من مصر إلى بغداد مثقلاً بأربعين رطلاً من الحديد،
وامتحن فأبى أن يقول أن القرآن مخلوق، وقال: والله لأموتن في حديدي هذا
حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه مات في هذا الشأن قوم في حديدهم،
ولئن دخلت عليه - يعني الواثق - لأصدقن، ومضى على امتناعه حتى مات
بسجنه سنة ٢٣٢هـ.

.. وآخرون لا يتسع المجال لذكرهم كانوا أكثر جموداً وإصراراً من
أحمد، ومن الظلم أن يُخصَّ أحمد بن حنبل بهذه المحنة وأن تكون أعظم
بطولاته، رغم أنه كان غير ذلك تماماً كما عرفت خضوعه وإقراره
للمعتصم.

❖ أحمد في عهد المتوكل :

عندما جاء المتوكل إلى سُدة الحكم، قرَّبَ أهل الحديث ونكَّلَ
بالمعتزلة، بعكس ما كان في عهد المأمون والمعتصم والوائق، وامتحنهم بخلق
القرآن، فمن قال منهم بخلق القرآن عُذِّبَ وقُتِل، فوجد أهل الحديث بغيتهم
وارتفع بذلك صيتهم، وتبوأوا المكانة الرفيعة، وانتقموا من المعتزلة شر انتقام.
قال أحمد أمين: «فأراد الخليفة المتوكل أن يحتضن الرأي العام وأن
يكتسب تأييده، فأبطل قوله بخلق القرآن، وأبطل الامتحانات والمحاکمات،
ونصر المحدثين»^(٢).

(١) طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٧٠.

(٢) ظهر الإسلام ج ٤ ص ٨.

وقد كان النصيب الأكبر في القرب من المتوكل هو لأحمد بن حنبل، لأنه هو البقية من محنة القرآن بعد أن قُتل أبطاله. وكان المتوكل يوصي الأمراء باحترام أحمد وتقديره، ويصله بصلات سنه ويعطف عليه ورتب له في كل شهر أربعة آلاف درهم^(١). فعلا نجم أحمد وازدحم الناس على بابهِ وتهافت رجال الدولة وأعيانها عليه، وكان أحمد في المقابل يذهب إلى صحة خلافة المتوكل وإمامته ولزوم طاعته، وكان يؤيد الدولة ويشد أزرها، وهذا ليس بغريب من أحمد فإنه يرى طاعة الحاكم أيّاً كان براً أو فاجراً.

قال أحمد في إحدى رسائله: السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين، البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فأجمع الناس عليه ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف وسُمي أمير المؤمنين، والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة، البر والفاجر، وإقامة الحدود إلى الأئمة وليس لأحد أن يطعن عليهم أو ينازعهم، ودفع الصدقات إليهم جائز من دفعها إليهم أجزاء عنه، براً كان أو فاجراً. وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل من ولي جائزة إمامته ومن أعادها فهو مبتدع تارك للآثار مخالف للسنة.

ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وكان الناس قد اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأي وجه من الوجوه، أكان بالرضا أو الغلبة، فقد شق الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية^(٢).

ويقول أبو زهرة في نفس الكتاب ص ٣٢١: حول أحمد رأي يتلاقى فيه مع سائر الفقهاء وهو جواز إمامة من تغلب من رضيه الناس، وأقام الحكم

(١) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص ٢٣٩.

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية، لأبي زهرة ج ٢ ص ٣٢٢.

الصالح بينهم، بل إنه يرى أكثر من ذلك، إن من تغلب وإن كان فاجراً تجب طاعته حتى لا تكون الفتنة.

فلذلك نجد أتباعه من السلفية والوهابية يحكمون على الحسين بن علي عليهما السلام بأنه باغٍ ويجب على يزيد قتله لخروجه على إمام زمانه، وقد سمعته بأذني من أحدهم وهو يناقشني مدافعاً دفاعاً مستميتاً عن يزيد، قال: الحسين خرج على إمام زمانه ويجب أن يقتل، فانظر إلى أي مدى يأخذ الإنسان التقليد الأعمى لأسلافه، فما قيمة أحمد بن حنبل في قبال الحسين عليه السلام، حتى أقول بمقاتته وأعمل بفتواه وأرمي الحسين بالظلم والبغي؟!.

إذا تجردنا من هذا التقليد الأعمى، وتدبرنا آيات القرآن لكان خيراً وأقرب للحق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ﴾ مرد ١١٣. وقال: ﴿وَلَا تَطْعَمَنَّا مِنْ غُفْلَانَا قَلْبُهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرطَانًا﴾ الكهف ٢٨. وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَطْعَمُ الْمَكِيدِينَ﴾ القلم ٨. وقال: ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ الشعراء ١٥١.

.. ولكنهم تركوا القرآن وراء ظهورهم، واحتجوا بروايات وضعها الظلمة من حكام بني أمية، حتى يخضعوا الناس لسלטانهم، وقد رد أهل البيت هذه الأحاديث بأحاديث صادقة وموافقة للقرآن ولروح الإسلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «من أحب بقاء الظالمين فقد أحب أن يُعصى الله». هذا فوق كونه حديثاً فهو دليل عقلي متين، حيث من يرى الاستسلام للظالم وطاعته ولا يخرج عليه فقد أحب بقاء معصية الله. قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ.. الظالمون.. الفاسقون﴾ المائدة ٤٤-٤٥-٤٧.

بالإضافة إلى الآيات والروايات الدالة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلذلك عندما أراد الحسين عليه السلام الخروج على طاغية زمانه يزيد قال:

«أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيري»^(١).

ولكن ماذا نقول لأناس تركوا أئمة أهل البيت وأبدلوهم بأئمة مصطنعين لم يأمر الله بطاعتهم، قال تعالى: ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل﴾ * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴿ الأحزاب ٦٧-٦٨.

فما أعظم هذه الجريمة في حق الأمة الإسلامية، التي ارتكبتها حكام الأمويين بوضع هذه الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل ما أعظم ذنب هذه الفتوى التي أفتى بها أحمد بن حنبل، وكم هي محبطة لجيل الثورة الإسلامية الذين يرفضون الظلم والاستبداد في هذا العصر الذي اتصف بالوعي والنهضة الشاملة، التي لا يمكن أن تقف في طريقها إحصاءات علماء البلاط والسلطة. فإن كان هناك جرماً ارتكبه مجموعة من الشباب الذين انضموا تحت رايات شيوعية وغير إسلامية، فالجرم الأكبر ارتكبه علماء السوء.

❖ الفقه عند أحمد بن حنبل :

من المعروف عن ابن حنبل أنه رجل حديث ولم يكن فقيهاً، فقد جمع أتباعه بعض آرائه المتفرقة المنسوبة له وجعلوا منها مذهباً فقيهاً، ولذلك نجد

(١) تاريخ الطبري ج ٤، حوادث سنة ٦١ هـ ص ٣٠٤.

المجموعة الفقهية التي نسبت إلى أحمد مختلفة متضاربة، بالإضافة إلى اختلافهم في تفسير مراده من بعض الكلمات التي لا يُفهم منها الحكم الشرعي في المسألة مثل قوله: «لا ينبغي». فهل هي تُحمل على الحرمة أو الكراهة، وكذلك قوله: يعجبني أو لا يعجبني .. أو أكره، أو لا أحب.

كما أن أحمد نفسه لم يدع أنه من أهل الفقه والفقاهة، بل كان يتحرز من الفتيا ويفر منها. قال الخطيب بإسناده: «كنت عند أحمد بن حنبل، فسأله رجل عن مسألة في الحلال والحرام، فقال له أحمد: سل عافاك الله غيرنا، قال: إنما نريد جوابك يا أبا عبد الله، قال: سل عافاك الله غيرنا، سل الفقهاء، سل أبا ثور»^(١). فلا يحسب نفسه بذلك من الفقهاء.

وقال المروزي: سمعتُ أحمدَ يقول: أما الحديث فقد استرحنا منه وأما المسائل فقد عزمتُ إن سألتني أحد عن شيء أن لا أجيب^(٢).

وذكر الخطيب بالإسناد أنه قدم أحمد بن حرب (الزاهد النيسابوري) من مكة، فقال لي أحمد بن حنبل: من هذا الخراساني الذي قدم؟ قلت: من زهده كذا وكذا.

فقال: لا ينبغي لمن يدعي ما يدعيه - يعني الزهد - أن يدخل نفسه بالفتيا^(٣).

.. فهذا هو ديدنه لا يتدخل في الفتيا، بل يراها لا تنسجم مع الزهد. فكيف يكون لمثل هذا فقه أو مذهب يُقلد في الأمور العبادية؟! وقال أبو بكر الأشرم - تلميذ أحمد بن حنبل - : كنتُ أحفظ الفقه والاختلاف فلما صحبت أحمد تركتُ كل ذلك.

(١) تاريخ بغداد، ج ٢ ص ٦٦.

(٢) مناقب أحمد ص ٧٥.

(٣) تاريخ بغداد ج ٤ ص ١١٩.

وقال أحمد بن حنبل: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام^(١).
... أي بصريح العبارة: لا تُفتَ حتى ولو كان في يدك حديث، إلا
إذا كان لك إمام تعتمد عليه في هذه الفتوى.

كما أنه لا يرى الترجيح بين أقوال الصحابة، إذا اختلفوا في مسألة، بل
يرى تقليد من شئت، وكان هذا جوابه لعبد الرحمن الصيرفي عندما سأله هل
يمكن الترجيح بين أقوال الصحابة.

والذي ينهى عن الترجيح وأخذ الأصلح من الأقوال هو أبعد عن
الاجتهاد. ومن الأدلة التي تدل على عدم وجود مذهب فقهي لأحمد بن
حنبل، أن كثيراً من أصحابه المتعصبين له اختلفوا في مذهبهم الفقهي.

هل هم أحناف أم شافعية؟، مثل أبي الحسن الأشعري، عندما ترك
الاعتزال وأصبح حنبلياً، فلم يُعرف عنه أنه يدين الله عز وجل بفقهِ حنبلي،
وكذلك القاضي الباقلاني فقد كان مالكيّاً، وكذلك عبد الله الأنصاري
الهروري، المتوفي سنة ٤٨١ هـ، القائل:

أنا حنبلي ما حييتُ وإن أمت

فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

ورغم تعصبه لأحمد كان في الفقه على طريقة ابن المبارك، وهذا هو
المعروف من معاصريه والمقربين من عهده، فالمنتسبون له إنما ينتسبون عقائدياً
وليس فقهيّاً.

بالإضافة إلى أن ابن حنبل ينهى في رسائله عن: الرأي والقياس
والاستحسان ويجعل القائلين بالقياس في رديف الجهمية والقدرية والروافض
ويحمل على أبي حنيفة في شخصه، ورغم ذلك نجد أن القول بالقياس قد

(١) أحمد بن حنبل، لأبي زهرة ص ١٩٦.

أدخل بالفقه الحنبلي، وهذا مما يدعوننا نشك أن أحمد بن محمد بن هارون (أبو بكر الخلال)، المتوفي سنة ٣١١ هـ وهو الراوي والناقل للفقه الحنبلي، لم يكن أميناً في نقله أو اختلط عليه الأمر، خاصة أنه لم يكن في عصر أحمد بن حنبل فقد جمع أشتات المسائل الفقهية المنسوبة إلى أحمد. ويؤيد ذلك اختلاف الروايات في أقوال أحمد اختلافاً عظيماً يصعب على العقل نسبتها جميعها إليه.

يقول أبو زهرة : «إن الفقه المنقول عن أحمد بن حنبل قد تضاربت أقواله فيه تضارباً يصعب على العقل نسبة كل هذه الأقوال إليه. وافتح أي كتاب من كتب الحنابلة، وأي باب من أبوابه تجده لا يخلو من عدة مسائل، اختلفت فيها الرواية بين، لا ونعم»^(١).

فلم يكن المذهب الفقهي لابن حنبل واضحاً عند معاصريه، وما هو موجود إنما هو مذهب مصطنع نشره الحنابلة بالعنف والشدّة، كما في بغداد التي كان يغلب عليها المذهب الشيعي، أما خارج بغداد فلم يكن معروفاً، فكان يعتنقه أفراد معدودون في مصر وذلك في القرن السابع، ولكن عندما ولي القضاء موفق الدين عبد الله بن محمد بن عبد الملك الحجازي، المتوفي ٧٦٩ هـ انتشر مذهب أحمد بواسطته، فقرب الفقهاء الحنابلة ورفع منزلتهم، وأما في باقي الأقطار فلم يكن لهم ذكر، وقد علل ابن خلدون ذلك بقوله: «أما أحمد فمقلده قليل لبعده مذهبه عن الاجتهاد»، كما في المقدمة. فلم يجد الحنابلة طريقاً إلى نشر مذهبهم إلا بالهرج والمرج وضرب الناس في الشوارع والطرق، حتى بلبوا النظام في بغداد، فخرج توقيع الخليفة الراضي يستنكر عليهم فعائلهم ويذمهم بقولهم بالتشبيه، فمنه: «تارة إنكم تزعمون صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيأتكم الرذيلة على

(١) أحمد بن حنبل، لأبي زهرة ص ١٦٨.

هيئته، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين المذهبين... والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً..^(١) .

فأصبح المذهب الحنبلي على ذلك المستوى، لم يكن له كثير من الأتباع كما كانت تفر منه النفوس لعقائدهم في الله وتشبيههم الرب ووصفه بصفات لا تليق به، فلم يجد الفرصة الكافية في الانتشار حتى جاء المذهب الوهابي بزعامة محمد بن عبد الوهاب الذي تبنى الخط الحنبلي فساعدته سلطة آل سعود على نشر المذهب بجد السيف في أوله وبريق الريالات في آخره، ومع الأسف إن كثيراً من الناس يتمسكون بالفقه الحنبلي ولا دليل لهم على ذلك إلا من باب: «إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون»، وإن كان غير ذلك فلا بد من إثبات براهينهم في هذه الموارد الثلاثة: كون أحمد بن حنبل فقيهاً، وكون الفقه المنسوب إليه غير مكذوب، وبعد أن يثبت ذلك كله لا بد من إثبات حجة دامغة في وجوب اتباع أحمد بن حنبل بالذات. وإلا يكون اتباعاً للظن، والظن لا يغني عن الحق شيئاً، وهذا بالإضافة إلى أن المتعصبين لأحمد مثل ابن قتيبة لم يذكره في جماعة الفقهاء، فلو كان فقيهاً مجتهداً لم ينحسه حقه وكذلك ابن عبد البر لم يذكره عندما ذكر الفقهاء في كتابه الانتقاء، ولم يتطرق له ابن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ في كتابه اختلاف الفقهاء، فستل عن ذلك فقال: لم يكن أحمد فقيهاً إنما كان محدثاً وما رأيت له أصحاباً يعول عليهم، فأساء ذلك الحنابلة، وقالوا: إنه رافضي، وسألوه عن حديث الجلوس على العرش، فقال: إنه محال. وأنشد:

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ٢ ص ٥٠٩ .

سبحان من ليس له أنيس

ولا له في عرشه جليس

فمنعوا الناس من الجلوس إليه، ومن الدخول عليه، ورموه بمحابرهم،

فلما لزم داره رموه بالحجارة حتى تكدست^(١).

وهذا يدل على تعصب الحنابلة وشذوذهم في نشر مذهبهم الذي لم

يعترف به العلماء، قال الشيخ أبو زهرة: إن كثيراً من الأقدمين لم يعدوا أحداً

من الفقهاء، كابن قتيبة وهو قريب من عصر أحمد جداً وابن جرير الطبري

وغيرهما.

(٣) خاتمة :

وبعد هذا العرض لمدارس الفقه عند أهل السنة، اتضح لنا جلياً أنه

ليس هناك ميزة لهذه المذاهب عن غيرها حتى تنتشر وتعم كل العالم

الإسلامي، لولا السياسة التي اقتضت أن يكون أئمة المذاهب الأربعة هم

مصادر الفقه، وذلك لأن السياسة الحاكمة لا يمكن أن تحارب الدين، بل

بالعكس فإنها تنصر العلماء وتقربهم لكن بشرط أن لا تمس تعاليمهم

مصالح الدولة. فمركز السلطان فوق كل شيء.

ولذلك نجد أن المذاهب الأربعة قد أختيرت من بين مئات المذاهب

وشملها العفو الملكي والرضا السلطاني، فقلدت تلاميذهم منصب القضاء

وجعلت أمور الدين بأيديهم. فنشروا ما يشاؤون من مذاهب شيوخهم كما

تقدم شرحه.

(١) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢٣٥، لأحمد أمين.

وصدر مرسوم في عهد المنتصر العباسي، يقتضي الالتزام بقول المشايخ السابقين وأن لا يذكر قول مع أقوالهم، وأفتى علماء الأمصار بوجود اتباع المذاهب الأربعة وتحريم ما سواها وغلق باب الاجتهاد.

يقول أحمد أمين: «كان للحكومات دخلٌ كبير في نصره مذاهب أهل السنة، والحكومة عادة، إذا كانت قوية وأيدت مذهباً من المذاهب تبعه الناس بالتقليد، وظل سائداً إلى أن تزول الدولة»^(١).

وبعد هذا، هل يحتاج محتجٌ بوجود اتباع المذاهب الأربعة!؟..

بل من الأساس، هل جاء دليل على حصر المذاهب في أربعة!؟

وإذا لم يكن هناك دليل على اتباعهم، هل غفل الله ورسوله عن هذا الأمر فلم يبين لهم عمن يأخذون دينهم وشرائع أحكامهم!؟! وعمن لا يأخذون!؟

تعالى الله أن يترك الخلق من غير أن يبين لهم أحكامهم والطريق الذي به نجاتهم، فقد بين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقام الحجة والبرهان على وجوب اتباع عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخاصته ومعدن حكمته، ولكن لما كانت العترة الطاهرة مناهضة لحكام وطواغيت عصرهم وظالميههم ومغتصبي حقهم، عملت السلطة على صرف الناس عنهم، وعدم التمسك بهم، والناس همجٌ رعا عترة كل ناعق، يميلون مع كل ريح لا يستضيئون بنور العلم ولا يلجأون لركن وثيق.

وفي المقابل يمكنك أن تنظر إلى مدرسة أهل البيت - التشيع -، التي لم تحتج إلى السلطة كي تلمع لها فقهاءها، بل تمسكوا بما قال رسول الله (ص): «إني تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإن العليم الخبير أنبأني أنهما لن يفترقا حتى يردها عليّ الحوض».

(١) ظهر الإسلام ج ٤ ص ٩٦.

فلازموا العترة واستقوا منها دينهم وأفكارهم، لم يخالفوا أهل البيت ولم يتقدموا عليهم ولم يحتاجوا إلى غيرهم كي يستفتوهم، بل أخذوا ممن كان حديثهم حديث جده وحديث جده حديث رسول الله (ص) وحديث رسول الله حديث جبرائيل وحديث جبرئيل حديث الله.

قال الشاعر:

إذا شئت أن تبغي لنفسك مذهبا

ينجيك يوم البعث من هب النار

فدع عنك قول الشافعي ومالك

وأحمد المروي عن كعب أحبار

ووال أناساً قولهم وحديثهم

روى جدنا عن جبرئيل عن الباري

(٤) الفقه عند الشيعة :

واستمر هذا الواضع في الأخذ من أئمة أهل البيت (ع) مباشرة حتى جاء الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن المهدي عليه السلام، فرسم للشيعة طريقهم الذي يسلكونه في أخذ الأحكام الفقهية حال غيبته، فقال: «فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه»^(١).

وبذلك انفتح لهم باب الاجتهاد والتحقيق والاستنباط، فظهرت فكرة المرجعية الفقهية، بحيث يختار الشيعي من العلماء أكثرهم علماً وتقوى وورعاً ويقلده في أحكام الفقه والمستجدات، وقد فصل الفقهاء في هذا الباب وإليك

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨ ص ٩٤.

بعضها من كتاب - المسائل الإسلامية، لسماحة آية الله العظمى السيد الحسيني الشيرازي ص ٩٠:

>(المسألة ١): يجب أن يكون اعتقاد المسلم بـ(أصول الدين) عن دليل وبرهان، ولا يجوز له أن يقلد فيها بمعنى أن يقبل كلام أحد فيها دونما دليل.

أما في (أحكام الدين وفروعه) فيجب إما أن يكون مجتهداً يقدر على استنباط الأحكام من أدلتها، وإما أن يكون مقلداً بمعنى أن يعمل على رأي مجتهد جامع للشرائط، وإما أن يقوم بوظيفته عن طريق الاحتياط بنحو يحصل له اليقين بأنه قام بالتكليف، مثلما لو أفتى جماعة من المجتهدين بجرمة عمل، وأفتى آخرون باستحبابه احتاط بأن يقوم بذلك العمل، فمن لا يكون مجتهداً ولا يمكنه الاحتياط يجب عليه أن يقلد مجتهداً ويعمل وفق رأيه.

(مسألة ٤): بناء على وجوب تقليد الأعلّم، إذا تعسر تشخيص الأعلّم وجب تقليد من يظن أنه أعلّم، بل يجب تقليد من يحتمل احتمالاً ضعيفاً بأعلميته، ويعلم بعدم علمية غيره. أما إذا تساوى جماعة في العلم - في نظره - قلد واحداً منهم، ولكن إذا كان أحدهم أروع وجب تقليده دون سواه على الأحوط.

(مسألة ٥): الحصول على فتوى المجتهد ورأية يمكن بإحدى الطرق

الأربع التالية:

- ١) السماع المباشر من المجتهد.
- ٢) السماع من عادلين ينقلان فتوى المجتهد.
- ٣) السماع ممن يثق بقوله ويعتمد على نقله.
- ٤) وجود الفتوى في رسالته العملية، في صورة الاطمئنان إلى صحة ما جاء في الرسالة وسلامتها من الأخطاء.

وقد تطور الفقه وتقدم عند الشيعة وفتحت المدارس والحوزات الدينية التي تخرّج الفقهاء والمراجع فظهر فيهم الأفاضل طوال التاريخ إلى العصر الحاضر. والذي يراجع المكتبة الفقهية الشيعية، يقف مذهلاً أمام تلك الجهود الجبّارة.

.. وأنقل إليك نزرًا يسيرًا من الكتب الفقهية الشيعية.

ففي باب الروايات الفقهية، هناك كتب كثيرة أشهرها:

(١) وسائل الشيعة: ٢٠ مجلدًا ضخماً، للحر العاملي.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٨ مجلدًا، للنوري الطبرسي.

ومن الكتب الفقهية الاستدلالية:

(١) جواهر الكلام، لمحمد حسن النجفي يتكون من ٤٣ مجلدًا.

(٢) الحدائق النضرة، للشيخ يوسف البحراني، ٢٥ مجلدًا.

(٣) مستمسك العروة الوثقى، للسيد محسن الطباطبائي الحكيم، ١٤ مجلدًا.

(٤) الموسوعة الفقهية، للسيد محمد الحسيني الشيرازي - من العلماء

المعاصرين - وقد طُبِعَ من هذه الموسوعة ١١٠ مجلدات، وقد تناولت جميع

أبواب الفقه، من بينها: فقه القرآن الكريم، وفقه الحقوق، وفقه الدولة

الإسلامية، وفقه الإدارة، وفقه السياسة، وفقه الاقتصاد، وفقه الاجتماع.

(٥) ومن الموسوعات الحديثة أيضاً: فقه الصادق. للسيد محمد صادق

الروحاني، تتكون من ٢٦ مجلدًا، وسلسلة ينابيع المودة، لعلي أصغر

مرواردي تتكون من ٣٠ مجلدًا .

* مناظرة يوحنا مع علماء المذاهب الأربعة :

ونختم هذا الفصل بمناظرة يوحنا مع علماء المذاهب الأربعة، وهي من

أروع المناظرات في هذا الباب، وعلى القارئ أن يتمعن ما فيها من

احتجاجات حكيمة وسديدة وقد نقلنا هذه المناظرة من كتاب مناظرات في

الإمامة لمؤلفه عبد الله الحسن.

قال يوحنا: فلما رأيت هذه الاختلافات من كبار الصحابة الذين يُذكرون مع رسول الله صلى الله عليه وآله - فوق المنابر عظم عليّ الأمر وغمّ عليّ الحال وكدت أفتتن في ديني، فقصدت بغداد وهي قُبّة الإسلام لأفاوض فيما رأيت من اختلاف علماء المسلمين لأنظر الحقّ وأتبعه، فلما اجتمعت بعلماء المذاهب الأربعة، قلت لهم: إنني رجل ذمّي، وقد هداني الله إلى الإسلام فأسلمت وقد أتيت إليكم لأنقل عنكم معالم الدين، وشرائع الإسلام، والحديث، لأزداد بصيرة في ديني.

فقال كبيرهم وكان حنفيّاً: يا يوحنا، مذاهب الإسلام أربعة فاختر واحداً منها، ثمّ اشرع في قراءة ما تريد.

فقلت له: إنني رأيت تخالفاً وعلمت أنّ الحقّ منها واحدٌ فاخترتوا لي ما تعلمون أنّه الحقّ الذي كان عليه نبيّكم.

قال الحنفي: إنّنا لا نعلم يقيناً ما كان عليه نبيّنا بل نعلم أنّ طريقته ليست خارجة من الفرق الإسلاميّة وكلّ من أربعتنا يقول إنّهُ محقّ، لكنّ يمكن أن يكون مبطلاً، ويقول: إنّ غيره مبطل لكن يمكن أن يكون محقاً، وبالجملة إنّ مذهب أبي حنيفة أنسب المذاهب، وأطبقتها للسنة، وأوفقها للعقل، وأرفعها عند الناس، إنّ مذهبه مختار أكثر الأُمّة بل مختار سلاطينها، فعليك به تنجّ.

قال يوحنا: فصاح به إمام الشافعية، وأظنّ أنّه كان بين الشافعي والحنفي منازعات فقال له: اسكت لا نظقت، والله لقد كذبت وتقولت، ومن أين أنت والتميز بين المذاهب، وترجيح المجتهدين؟ وملك ثكلتك أمك وأين لك الوقوف على ما قاله أبو حنيفة، وما قاسه برأيه، فإنّه المسمّى بصاحب الرأي يجتهد في مقابل النصّ، ويستحسن في دين الله ويعمل به حتى أوقعه رأيه الواهي في أن قال: لو عقد رجل في بلاد الهند على امرأة

كانت في الروم عقداً شرعياً، ثم آتاها بعد سنين فوجدها حاملاً وبين يديها صبيان يمشون ويقول لها: ما هؤلاء؟ وتقول له: أولادك فيرافعها في ذلك إلى القاضي الحنفي فيحكم أن الأولاد من صلبه، ويلحقونه ظاهراً وباطناً، يرثهم ويرثونه، فيقول ذلك الرجل: وكيف هذا ولم أقربها قط؟ فيقول القاضي: يحتمل أنك أجنبت أو أن تكون أمنيّت فطار منيك في قطعة فوقعت في فرج هذه المرأة^(١)، هل هذا يا حنفي مطابق للكتاب والسنة؟

قال الحنفي: نعم إنما يلحق به لأنها فراشه والفراش يلحق ويلتحق بالعقد ولا يشترط فيه الوطي، وقال النبي - صلى الله عليه وآله -: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» فمنع الشافعي أن يصير فراشاً بدون الوطي، وغلب الشافعي الحنفي بالحجة.

ثم قال الشافعي: وقال أبو حنيفة: لو أنّ امرأة زوّت إلى زوجها فعشقها رجل فادّعى عند قاضي الحنفيّة أنه عقد عليها قبل الرجل الذي زوّت إليه، وأرشى المدّعي فاسقين حتى شهدا له كذباً بدعواه، فحكم القاضي له تحرم على زوجها الأول ظاهراً وباطناً وتثبت زوجيّة تلك المرأة للثاني وأنها تحلّ عليه ظاهراً وباطناً، وتحلّ منها على الشهود الذين تعمّدوا الكذب في الشهادة^(٢)! فانظروا أيها الناس هل هذا مذهب من عرف قواعد الإسلام؟

قال الحنفي: لا اعتراض لك، عندنا أنّ حكم القاضي ينفذ ظاهراً وباطناً وهذا متفرّع عليه، فخصمه الشافعي ومنع أن ينفذ حكم القاضي ظاهراً وباطناً بقوله تعالى ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾^(٣) ولم ينزل الله ذلك.

(١) انظر: الفقه على المذاهب الأربعة ج ٤ ص ١٤ - ١٥.

(٢) انظر: الأم للشافعي ج ٥ ص ٢٢ - ٢٥.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٩.

ثم قال الشافعي: وقال أبو حنيفة: لو أنّ امرأة غاب عنها زوجها فانقطع خبره، فجاء رجل فقال لها: إنّ زوجك قد مات فاعتدي، فاعتدت، ثم بعد العدة عقد عليها آخر ودخل عليها، وجاءت منه بالأولاد، ثم غاب الرجل الثاني وظهرت حياة الرجل الأول وحضر عندها فإن جميع أولاد الرجل الثاني أولاد للرجل الأول يرثهم ويرثونه^(١).

فيا أولي العقول، هل يذهب إلى هذا القول من له دراية وفطنة؟
فقال الحنفي: إنّما أخذ أبو حنيفة هذا من قول النبي - صلى الله عليه وآله -: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» فاحتج عليه الشافعي بكون الفراش مشروطاً بالدخول، فغلبه.

ثم قال الشافعي: وإمامك أبو حنيفة قال: أيما رجل رأى امرأة مسلمة فادّعى عند القاضي بأن زوجها طلقها، وجاء بشاهدين، شهدا له كذباً فحكم القاضي بطلاقها، حرمت على زوجها، وجاز للمدعي نكاحها وللشهود أيضاً^(٢)، وزعم أن حكم القاضي ينفذ ظاهراً وباطناً.

ثم قال الشافعي: وقال إمامك أبو حنيفة: إذا شهد أربعة رجال على رجل بالزنا، فإن صدقهم سقط عنه الحد، وإن كذبهم لزمه، وثبت الحد^(٣) فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ثم قال الشافعي: وقال أبو حنيفة: لو لاط رجل بصبي وأوقبه فلا حدّ عليه بل يعزّر^(٤).

(١) لفقّه على المذاهب الأربعة ج ٥ ص ١١٩.

(٢) ومثله أيضاً، كما قال في ج ١٣ من تاريخ بغداد ص ٣٧٠، قال الحارث بن عمير: وسمعتّه يقول (يعني أبو حنيفة): لو أنّ شاهدين شهدا عند قاض، أنّ فلان بن فلان طلق امرأته، وعلموا جميعاً أنّهما شهدا بالزور ففرق القاضي بينهما، ثم لقيها أحد الشاهدين فله أن يتزوج بها.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة ج ٥ ص ١٢٩.

(٤) الفقه على المذاهب الأربعة ج ٥ ص ١٤١.

وقال رسول الله - صلى الله عليه - من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول»^(١).

وقال أبو حنيفة: لو غصب أحد حنطة فطحنها ملكها بطحنها، فلو أراد أن يأخذ صاحب الحنطة طحينها ويعطي الغاصب الأجرة لم يجب على الغاصب إجابته وله منعه، فإن قتل صاحب الحنطة كان دمه هدراً، ولو قتل الغاصب قُتل صاحب الحنطة به^(٢).

وقال أبو حنيفة: لو سرق سارق ألف دينار وسرق ألفاً آخر من آخر ومزجها ملك الجميع ولزمه البدل.

وقال أبو حنيفة: لو قتل المسلم التقى العالم كافراً جاهلاً قُتل المسلم به والله يقول: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)^(٣).

وقال أبو حنيفة: لو اشترى أحد أمه أو أخته ونكحهما لم يكن عليه حدّ وإن علم وتعمّد^(٤).

قال أبو حنيفة: لو عقد أحد على أمه أو أخته عالماً بها أنها أمه أو أخته ودخل بها لم يكن عليه حد لأنّ العقد شبهة^(٥).

وقال أبو حنيفة: لو نام جنب على طرف حوض من نبيذ فانقلب في نومه، ووقع في الحوض ارتفعت جنابته وطهر.

وقال أبو حنيفة: لا تجب النية في الوضوء^(٦)، ولا في الغسل^(٧)، وفي الصحيح: «إنما الأعمال بالنيات»^(٨).

(١) المستدرک للحاکم ج ٤ ص ٣٥٥، کنز العمال ج ٥ ص ٣٤٠ ح ١٣١٢٩.

(٢) الفتاوى الخيرية ج ٢ ص ١٥٠.

(٣) سورة النساء: الآية ١٤١.

(٤) الفقه على المذاهب الأربعة ج ٥ ص ١٢٣.

(٥) الفقه على المذاهب الأربعة ج ٥ ص ١٢٤.

(٦) الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٦٣.

(٧) الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ١١٧.

(٨) مسند أحمد ج ١ ص ٢٥، حلية الأولياء ج ٦ ص ٣٤٢، السنن الكبرى للبيهقي ج ١ ص ٤١.

وقال أبو حنيفة: لا تجب البسملة في الفاتحة^(١) وأخرجها منها مع أنّ الخلفاء كتبوها في المصاحف بعد تحرير القرآن.

وقال أبو حنيفة: لو سلخ جلد الكلب الميت ودُبغ طهر وإن له الشراب فيه ولبسه في الصلاة^(٢)، وهذا مخالف للنص بتنجيس العين المقتضي لتحريم الانتفاع به.

ثم قال: يا حنفي، يجوز في مذهبك للمسلم إذا أراد الصلاة أن يتوضأً ببيذ، ويبدأ بغسل رجليه، ويحتم يديه^(٣)، ويلبس جلد كلب ميت مدبوغ^(٤)، ويسجد على عذرة يابسة، ويكبّر بالهندية، ويقرأ فاتحة الكتاب بالعبرانية^(٥)، ويقول بعد الفاتحة: دو برک سبز - يعني مدهامتان - ثم يركع ولا يرفع رأسه، ثم يسجد ويفصل بين السجدين بمثل حدّ السيف وقبل السلام يتعمّد خروج الريح، فإن صلّته صحيحة، وإن أخرج الريح ناسياً بطلت صلّته^(٦).

ثم قال: نعم يجوز هذا، فاعتبروا يا أولي الأبصار، هل يجوز التعبد بمثل هذه العبادة؟ أم يجوز لنبيّ أن يأمر أمته بمثل هذه العبادة افتراء على الله ورسوله؟

فأفحم الحنفي وامتلاً غيظاً وقال: يا شافعي أقصر فض الله فاك، وأين أنت من الأخذ على أبي حنيفة وأين مذهبك من مذهبه؟ فإنما مذهبك

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٢٤٢.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٢٦.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٦٨، الفقه على المذاهب الخمسة ص ٣٧.

(٤) الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٢٦.

(٥) الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٢٣٠.

(٦) الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٣٠٧.

بمذهب الجوسى أليق لأنّ في مذهبك يجوز للرجل أن ينكح ابنته من الزنا وأخته، ويجوز أن يجمع بين الأختين من الزنا، ويجوز أن ينكح أمه من الزنا، وكذا عمته وخالته من الزنا^(١)، والله يقول: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ وَعَمَّاتِكُمْ وَخَالَاتِكُمْ﴾^(٢) وهذه صفات حقيقية لا تتغير بتغير الشرائع والأديان، ولا تظنّ يا شافعي يا أحمق أن منعهم من التوريث يخرجهم من هذه الصفات الذاتية الحقيقية ولذا تضاف إليه، فيقال: بنته وأخته من الزنا، وليس هذا التقييد موجِباً لمجازيته كما في قولنا أخته من النسب بل لتفصيله، وإنّما التحريم شامل للذي يصدق عليه الألفاظ حقيقة ومجازاً اجتماعاً، فإنّ الجدة داخلة تحت الأم إجماعاً، وكذا بنت البنت، ولا خلاف في تحريمها بهذه الآية، فانظروا يا أولي الأبواب هل هذا إلاّ مذهب الجوسى، يا خارجي.

يا شافعي، إمامك أباح للناس لعب الشطرنج^(٣) مع أنّ النبي - صلى الله عليه وآله - قال: «لا يجب الشطرنج إلاّ عابد وثن».

يا شافعي، إمامك أباح للناس الرقص والدف والقصب^(٤)، فقبح الله مذهبك، ينكح فيه الرجل أمّه وأخته ويلعب بالشطرنج ويرقص، ويدفّ، فهل هذا إلاّ ظاهر الافتراء على الله ورسوله، وهل يلتزم بهذا المذهب إلاّ أعمى القلب وأعمى عن الحقّ.

قال يوحنا: وطال بينهما الجدال واحتمى الحنبلي للشافعي، واحتمى المالكي للحنفي، ووقع النزاع بين المالكي والحنبلي، وكان فيما وقع بينهما أن الحنبلي قال: إنّ مالكا أبدع في الدين بدعاً أهلك الله عليها أمماً وهو

(١) انظر الفقه على المذاهب الأربعة ج ٥ ص ١٣٤.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٣) أنظر: الأم للشافعي ج ٦ ص ٢٠٨، الفقه الإسلامي وأدلته ج ٥ ص ٥٦٦.

(٤) الفقه الإسلامي وأدلته ج ٧ ص ١٢٨.

أباحها، وهو لواط الغلام، لواط المملوك وقد صحّ أن رسول الله - صلى الله عليه وآله - قال: «من لاط بغلام فاقتلوا الفاعل والمفعول»^(١).

وأنا رأيت أن مالكيّاً ادّعى عند القاضي على آخر أنّه باعه مملوكاً والمملوك لا يمكنه من وطئه، فأثبت القاضي أنه عيب في المملوك ويجوز له ردّه، أفلا تستحي من الله يا مالكي يكون لك مذهب مثل هذا وأنت تقول مذهبي خير من مذهبك؟! وإمامك أباح لحم الكلاب فقبح الله مذهبك واعتقادك.

فرجع المالكي عليه وصاح به: اسكت يا مجسم يا حلولي، يا حولي، يا فاسق، بل مذهبك أولى بالقبح، وأحرى بالتنفير، إذ عند إمامك أحمد بن حنبل أنّ الله جسم يجلس على العرش، ويفضل عنه العرش بأربع أصابع، وأنّه ينزل كل ليلة جمعة من سماء الدنيا على سطوح المساجد في صورة أمرد، قطط الشعر، له نعلان شراكهما من اللؤلؤ الرطب، راكباً على حمار له ذوائب^(٢).

قال يوحنا: فوقع بين الحنبلي والمالكي والشافعي والحنفي النزاع، فعلت أصواتهم وأظهروا قبائحهم ومعايبهم حتى ساء كلّ من حضر كلامهم الذي بدا منهم، وعاب العامة عليهم.

فقلت لهم: على رسلكم، فوالله قسماً إنّي نفرت من اعتقاداتكم، فإن كان الإسلام هذا فياويلاه، واسواتاه، لكنّي أقسم عليكم بالله الذي لا إله إلا هو أن تقطعوا هذا البحث وتذهبوا فإنّ العوام قد أنكروا عليكم.

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ج ٥ ص ١٤٠.

(٢) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ٢ ص ٥٠٩، ومن روى أنه تعالى ينزل إلى سماء الدنيا (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) البخاري في التهجد بالليل، مسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ١٢٠ و ص ٤٤٦، الترمذي ج ١ ص ١٤٢.

قال يوحنا: فقاموا وتفرّقوا وسكتوا أسبوعاً لا يخرجون من بيوتهم،
 فإذا خرجوا أنكر الناس عليهم، ثمّ بعد أيام اصطلحوا واجتمعوا في
 المستنصرية فجلست غداة إليهم وفاوضتهم فكان فيما جرى أن قلت لهم:
 كنت أريد عالماً من علماء الرافضة ناظره في مذهبه، فهل عليكم أن تأتونا
 بواحد منهم فنبحث معه؟

فقال العلماء: يا يوحنا، الرافضة فرقة قليلة لا يستطيعون أن يتظاهروا
 بين المسلمين لقتلهم، وكثرة مخالفيهم، ولا يتظاهرون فضلاً أن يستطيعوا
 الحاجة عندنا على مذهبهم، فهم الأذلون الأقلون، ومخالفوهم الأكثرون،
 فقال يوحنا: فهذا مدح لهم لأن الله سبحانه وتعالى مدح القليل، وذمّ الكثير
 بقوله: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾^(١) ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾^(٢) ﴿وإن
 تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله﴾^(٣) ﴿ولا تجد أكثرهم
 شاكرين﴾^(٤) ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾^(٥) ﴿ولكن أكثرهم لا
 يعلمون﴾^(٦) ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾^(٧) إلى غير ذلك من الآيات.

قال العلماء: يا يوحنا حالهم أعظم من أن يوصف، لأننا لو علمنا
 بأحد منهم فلا نزال نتربّص به حتى نقتله، لأنهم عندنا كفرّة تحل علينا
 دماؤهم، وفي علمائنا من يفتي بجل أموالهم ونسائهم.

(١) سورة سبأ: الآية ١٣.

(٢) سورة هود: الآية ٤٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٦.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ٣٤٣.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٣٧.

(٧) سورة الرعد: الآية ١.

قال يوحنا: الله أكبر هذا أمر عظيم، أترى بما استحقوا هذا فهل هم
ينكرون الشهادتين؟

قالوا: لا.

قال: أفهم لا يتوجهون إلى قبلة الإسلام؟

قالوا: لا.

قال: إنهم ينكرون الصلاة أم الصيام أم الحج أم الزكاة أم الجهاد؟

قالوا: لا، بل هم يصلّون ويصومون ويزكّون ويحجّون ويجاهدون.

قال: إنهم ينكرون الحشر والنشر والصراط والميزان والشفاعة؟

قالوا: لا، بل مقرّون بذلك بأبلغ وجه.

قال: أفهم يبيحون الزنا واللواط وشرب الخمر والربا والمزامير وأنواع

الملاهي؟

قالوا: بل يجتنبون عنها ويحرمونها.

قال يوحنا: فيا لله والعجب قوم يشهدون الشهادتين، ويصلّون إلى

القبلة، ويصومون شهر رمضان، ويحجّون البيت الحرام، ويقولون بالحشر

والنشر وتفاصيل الحساب، كيف تباح أموالهم ودمائهم ونساءهم وبنيتكم

يقول: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً

رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم ونساءهم إلا بحقّ

وحسابهم على الله»^(١).

قال العلماء: يا يوحنا إنهم أبدعوا في الدين بدعاً فمنها: أنهم يدعون

أن علياً - عليه السلام - أفضل الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله -

ويفضّلونه على الخلفاء الثلاثة، والصدر الأول أجمعوا على أن أفضل الخلفاء

كبير تيم.

(١) صحيح مسلم ج ١، ص ٥١ - ٥٣.

قال يوحنا: أفترى إذا قال أحد: إن علياً يكون خيراً من أبي بكر وأفضل منه تكفرونه؟

قالوا: نعم لأنه خالف الإجماع.

قال يوحنا: فما تقولون في محدثكم الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى

بن مردويه؟

قال العلماء: هو ثقة مقبول الرواية صحيح المثل.

قال يوحنا: هذا كتابه المسمّى بكتاب المناقب روى فيه أن رسول الله

- صلى الله عليه وآله - قال: «علي خير البشر، ومن أبي فقد كفر».

وفي كتابه أيضاً سأل حذيفة عن علياً - عليه السلام - قال: «أنا خير

هذه الأمة بعد نبيها، ولا يشكّ في ذلك إلا منافق».

وفي كتابه أيضاً عن سلمان، عن النبي - صلى الله عليه وآله - أنه قال:

«علي بن أبي طالب خير من أخلفه بعدي».

وفي كتابه أيضاً عن أنس بن مالك أنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله -

قال: «أخي ووزيرى وخير من أخلفه بعدي علي بن أبي طالب».

وعن إمامكم أحمد بن حنبل روى في مسنده أن النبي - صلى الله عليه وآله -

قال لفاطمة: «أما ترضين أنّي زوجتك أقدم أمّتي مسلماً، وأكثرهم

علماً، وأعظمهم حلاًماً»^(١).

وروى في مسند أحمد بن حنبل أيضاً أنّ النبي - صلى الله عليه وآله -

قال: «اللهم اتّني بأحبّ خلقك إليك»^(٢) فجاء علي بن أبي طالب في

(١) مسند أحمد ج ٥ ص ٢٥، المعجم الكبير للطبراني ج ٢٠ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ح ٥٣٨، مجمع

الزوائد ج ٩ ص ١٠٢، كنز العمال ج ١١ ص ٦٠٥ ح ٣٢٩٢٤.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ج ١ ص ٢٢٦ ح ٧٣٠، تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٦٩، كنز العمال

ج ١٣ ص ١٦٧ ح ٣٦٥٠٧، وقد أفردت لهذا الحديث كتب مستقلة، مثل: قصة الطير

للحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥ هـ، وقد تقدم بعض المصادر لهذا الحديث فراجع.

حديث الطائر، وذكر هذا الحديث النسائي والترمذي في صحيحهما^(١) وهما من علمائكم.

وروى أخطب خوارزم في كتاب المناقب وهو من علمائكم عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: «يا علي أخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي، وتخصم الناس بسبع فلا يحاجك أحد من قريش: أنت أولهم إيماناً بالله وأوفاهم بأمر الله وبعده، وأقسمهم بالسوية، وأعدلهم بالرعية، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم يوم القيامة عند الله عز وجل في المزية»^(٢).

وقال صاحب كفاية الطالب من علمائكم: هذا حديث حسن عال ورواه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء^(٣).

قال يوحنا: فيا أئمة الإسلام فهذه أحاديث صحاح روتها أئمتكم وهي مصرحة بأفضلية علي وخيرته على جميع الناس، فما ذنب الرافضة؟ وإنما الذنب لعلمائكم والذين يروون ما ليس بحق، ويفترون الكذب على الله ورسوله.

قالوا: يا يوحنا، إنهم لم يرووا غير الحق ولم يفتروا بل الأحاديث لها تأويلات ومعارضات.

قال يوحنا: فأني تأويل تقبل هذه الأحاديث بالتخصيص على البشر، فإنه نص في أنه خير من أبي بكر إلا أن تخرجوا أبا بكر من البشر. سلمنا أن الأحاديث لا تدل على ذلك فأخبروني أيهما أكثر جهاداً؟

(١) صحيح الترمذي ج ٥ ص ٥٩٥ ح ٣٧٢١، مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٢٦، المستدرک ج ٣ ص ١٣٠ - ١٣١، مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ج ٣ ص ١٧٢١ ح ٦٠٨٥، خصائص أمير المؤمنين للنسائي ص ٣٤ ح ١٢.

(٢) مناقب الخوارزمي ص ١١٠ ح ١٨، فرائد السمطين ج ١ ص ٢٢٣ ح ١٧٤.

(٣) كفاية الطالب ص ٢٧٠، حلية الأولياء ج ١ ص ٦٥ - ٦٦.

فقالوا: علي.

قال يوحنا: قال الله تعالى: (وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً)^(١) وهذا نص صريح.

قالوا: أبو بكر أيضاً مجاهد فلا يلزم تفضيله عليه.

قال يوحنا: الجهاد الأقل إذا نسب إلى الجهاد الأكثر بالنسبة إليه قعود، وهب أنه كذلك فما مرادكم بالأفضل؟

قالوا: الذي تجتمع فيه الكمالات والفضائل الجليّة والكسبية كشرف الأصل والعلم والزهد والشجاعة والكرم وما يتفرّع عليها.

قال يوحنا: هذه الفضائل كلها لعلي - عليه السلام - بوجه هو أبلغ من حصولها لغيره.

قال يوحنا: أمّا شرف الأصل فهو ابن عم النبي - صلى الله عليه وآله - وزوج ابنته، وأبو سبطيه.

وأما العلم فقال النبي - صلى الله عليه وآله -: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(٢) وقد تقرّر في العقل أن أحداً لا يستفيد من المدينة شيئاً إلا إذا أخذ من الباب، فانحصر طريق الاستفادة من النبي - صلى الله عليه وآله - في علي - عليه السلام - وهذه مرتبة عالية، وقال - صلى الله عليه وآله - «أفضاكم علي»^(٣) وإليه تُعزى كل قضيّة، وتنتهي كل فرقة، وتحتاز إليه كل طائفة،

(١) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٢) راجع: ابن جرير الطبري في مسند علي من تهذيب الآثار ص ١٠٥ ح ١٧٣، المستدرك ج ٣ ص ١٢٦، مجمع الزوائد ج ٩ ص ١١٤، المعجم الكبير للطبراني ج ١١ ص ٦٥ - ٦٦ ح ١١٠٦١، تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٤٨، كنز العمال ج ١١ ص ٦١٤ ح ٣٢٩٧٧ و ٣٢٠٧٨، ذخائر العقبى ص ٨٣، وقد أفردت لهذا الحديث كتب مستقلة، مثل فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي، للمغربي.

(٣) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٣٥، ذخائر العقبى ص ٨٣، مناقب الخوارزمي ص ٨١ ح ٦٦، مسند أحمد ج ٥ ص ١١٣.

فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وأبو عذرها، وسابق مضمارها، ومجلى حليتها، كل من برع فيها فمنه أخذ، وبه اقتفى، وعلى مثاله احتذى، وقد عرفتم أن أشرف العلوم العلم الإلهي، ومن كلامه اقتبس وعنه نقل ومنه ابتداء.

فإن المعتزلة الذين هم أهل النظر ومنهم تعلم الناس هذا الفن هم تلامذته، فإن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية^(١)، وأبو هاشم عبد الله تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ علي بن أبي طالب - عليه السلام -.

وأما الأشعريون فإنهم ينتهون إلى أبي الحسن الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وهو تلميذ واصل بن عطاء^(٢).

وأما الإمامية والزيدية فانتهاؤهم إليه ظاهر. وأما علم الفقه فهو أصله وأساسه، وكل فقيه في الإسلام فإليه يعزى نفسه.

أما مالك فأخذ الفقه عن ربيعة الرأي، وهو أخذه عن عكرمة، وهو أخذه عن عبد الله، وهو أخذه عن علي.

وأما أبو حنيفة فعن الصادق - عليه السلام -.

وأما الشافعي فهو تلميذ مالك، والحنبلي تلميذ الشافعي^(٣)، وأما فقهاء الشيعة فرجعهم إليه ظاهر، وأما فقهاء الصحابة فرجعهم إليه ظاهر كابن عباس وغيرهم، وناهيكم قول عمر غير مرة: >لا يفتين أحد في

(١) هو عبد الله بن محمد بن الحنفية الملقب بالأكبر، والمكنى بأبي هاشم، إمام الكيسانية مات

سنة ٩٨ أو ٩٩. تنقيح المقال للمامقاني ج ٢ ص ٢١٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٧.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٧ - ١٨.

المسجد وعلي حاضر» وقوله: «لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن»^(١)،
وقوله: «لولا علي لهلك عمر»^(٢).

وقال الترمذي في صحيحه والبيهقي عن أبي بكر قال: قال رسول الله
- صلى الله عليه وآله -: «من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوح في
فهمه، وإلى يحيى بن زكريا في زهده، وإلى موسى بن عمران في بطشه
فليُنظر إلى علي بن أبي طالب»^(٣).

وقال البيهقي بإسناده إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله -: «من أراد
أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوح في تقواه، وإلى إبراهيم في حلمه، وإلى
موسى في هيبته، وإلى عيسى في عبادته، فليُنظر إلى علي بن أبي طالب»^(٤)
وهو الذي بيّن حد الشرب^(٥)، وهو الذي أفتى في المرأة التي وضعت لستة
أشهر^(٦)، وبقسمة الدراهم على صاحب الأربعة^(٧) والأمر بشق الولد

(١) مناقب الخوارزمي ص ٩٦ - ٩٧ ح ٩٨ و ٩٧، فرائد السمطين ج ١ ص ٣٤٤ - ٣٤٥
ح ٢٦٦ و ٢٦٧.

(٢) فيض القدير ج ٤ ص ٣٥٧، فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٣٠٩، علي إمام
المتقين لعبد الرحمن الشرقاوي ج ١ ص ١٠٠ - ١٠١، مناقب ابن شهر آشوب ج ٢ ص ٣٦١.

(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٥٦، كفاية الطالب ص ١٢١.

(٤) كنز العمال ص ٢٢٦، الرياض النضرة ج ٢ ص ٢١٨، كفاية الطالب ص ١٢٢، الفدير
ج ٣ ص ٣٥٣.

(٥) الموطأ لمالك ج ٢ ص ٨٤٢ ح ٢، المستدرک ج ٤ ص ٣٧٥، فضائل الخمسة ج ٢ ص ٣١٠.

(٦) الاستيعاب ج ٣ ص ١١٠٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٩، وذكر القرطبي
في تفسيره ج ١٦ ص ٣٩٠ عند الكلام على تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهُ ثَلَاثُونَ
شَهْرًا﴾ سورة الاحقاف: الآية ١٥، أن عثمان قد أمي بامرأة ولدت لسته أشهر، فأراد أن
يقضي عليها الحد فقال له علي - عليه السلام - ليس ذلك عليها، قال الله تعالى ﴿وَحَمَلَهُ
وفصاله ثلاثون شهرًا﴾.

(٧) الاستيعاب ج ٢ ص ١١٠٥ - ١١٠٦، فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٣٠٢،
ذخائر العقبى ص ٨٤، الصواعق المحرقة ص ٧٧.

نصفين^(١)، والأمر بضرب عنق العبد، والحاكم في ذي الرأسين^(٢) رمبين أحكام البغاة^(٣)، وهو الذي أفتى في الحامل الزانية^(٤).

ومن العلوم علم التفسير، وقد علم الناس حال ابن عباس فيه وكان تلميذ علي - عليه السلام - وسئل فقيل له: أين علمك من علم ابن عمك؟ فقال: كبشة مطر في البحر المحيط^(٥).

ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة، وعلم التصوف، وقد علمتم أنّ أرباب هذا الفنّ في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون، وعنده يقفون، وقد صرح بذلك الشبلي والخبلي وسري السقطي وأبو زيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم، ويكفيكم دلالة على ذلك الخرقة التي هي شعارهم وكونهم يسندونها بإسناد معنعن إليه أنه واضعها^(٦).

(١) مناقب ابن شهر آشوب ج ٢ ص ٣٦٧، الفصول المائة ج ٥ ص ٣٦٦ ح ١٥، كنز العمال ج ٣ ص ٣٧٩، بحار الأنوار ج ٤٠ ص ٢٥٢، الغدير ج ٦ ص ١٧٤.

(٢) كنز العمال ج ٣ ص ١٧٩، بحار الأنوار ج ٤٠ ص ٢٥٧.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٩ ص ٢٣١، كتاب الأم ج ٤ ص ٢٣٣، باب الخلافة في قتال أهل البيعة، وقد قال الشافعي: عرفنا حكم البغاة من علي - عليه السلام -.

(٤) فقد روي أنه أتى عمر بن الخطاب بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها فلقبها علي فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر عمر برجمها، فردعا علي - عليه السلام - وقال: هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها؟ ولعلك انتهرتها، أو أخفتها، قال: قد كان ذلك، قال: أو ما سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله - قال: لا حدّ على معترف بعد بلاء أنه من قيد أو حبس أو تهدد فلا إقرار له، فعلى سبيلها ثم قال: عجزت النساء أن تلد مثل علي بن أبي طالب، لولا علي لهلك عمر. راجع: الرياض النضرة ج ٣ ص ١٦٣، ذخائر العقبى ص ٨١، مطالب السؤول ص ١٣، مناقب الخوارزمي ص ٤٨، الأربعين للفخر الرازي ص ٤٦٦، الغدير ج ٦ ص ١١٠.

(٥) نهج الحق وكشف الصدق ص ٢٣٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٩.

(٦) نهج الحق وكشف الصدق ص ٢٢٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٩.

ومن العلوم علم النحو والعربية، وقد علم الناس كافة أنه هو الذي ابتدعه وأنشأه، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامع تكاد تلحق بالمعجزات، لأن القوة البشرية لا تفي بمثل هذا الاستنباط.

فأين من هو بهذه الصفة من رجل يسألونه ما معنى (أبا) فيقول: لا أقول في كتاب الله برأيي، ويقضي في ميراث الجدِّ بمائة قضية بغير بعضها بعضاً، ويقول: إن زغت فقوموني وإن استقممت فاتبعوني^(١). وهل يقيس عاقل مثل هذا إلى من قال: سلوني قبل أن تفقدوني^(٢)، سلوني عن طرق السماء فوالله إنني لأعلم بها من طرق الأرض؟ وقال: إن هاهنا لعلماً جماً، وضرب بيده على صدره، وقال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً فقد ظهر أنه أعلم^(٣).

وأما الزهد فإنه سيد الزهاد، وبدل الأبدال، وإليه تُشدُّ الرحال، وتنقص الأحلاس، وما شبع من طعام قط، وكان أحسن الناس لبساً وماكلاً.

قال عبد الله بن أبي رافع: دخلت على علي - عليه السلام - يوم عيد فقدم جراباً مختوماً فوجد فيه خبز شعير يابساً مرضوضاً فتقدم فأكل. فقلت: يا أمير المؤمنين فكيف نختمه وإنما هو خبز شعير؟

فقال: خفت هذين الولدين يلتانه بزيت أو سمن^(٤). وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة ولبيف أخرى، ونعلاه من ليف، وكان يلبس الكرباس الغليظ فإن وجد كمه طويلاً قطعه بشفرة ولم يخيطه، وكان لا يزال ساقطاً على ذراعيه حتى يقى سدى بلا لحمه، وكان يأتدّم إذا اتدّم بالخلّ والملح

(١) تقدمت تخريجاته.

(٢) تقدمت تخريجاته.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٧ ص٢٥٣، وقد تقدمت تخريجاته فيما سبق..

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٧ ص٢٥٣، وقد تقدمت تخريجاته فيما سبق.

فإن ترقى عن ذلك فبعض نبات الأرض، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من
البن الإبل، ولا يأكل اللحم إلا قليلاً ويقول: لا تجعلوا بطونكم مقابر
الحيوانات، وكان مع ذلك أشد الناس قوة، وأعظمهم يداً^(١).

وأما العبادة فمنه تعلم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد، وقيام
النافلة، وما ظنك برجل كانت جبهته كثفنة البعير، ومن محافظته على ورده
أن بسط له نطع بين الصفتين ليلة الهريز فيصلّي عليه والسهم تقع عليه وتمرّ
على صماخيه يميناً وشمالاً فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته.
فأنت إذا تأملت دعواته ومناجاته ووقفت على ما فيها من تعظيم الله
سبحانه وتعالى وإجلاله وما تضمنته من الخضوع لهيبته والخشوع لعزته
عرفت ما ينطوي عليه من الإخلاص.

وكان زين العابدين - عليه السلام - يصلّي في كل ليلة ألف ركعة
ويقول: أنى لي بعبادة علي - عليه السلام -^(٢).

وأما الشجاعة فهو ابن جلاها وطلاع ثناياها، أنسى الناس فيها ذكر
من قبله، ومحي اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحروب مشهورة تُضرب بها
الأمثال إلى يوم القيامة، وهو الشجاع الذي ما فرّقط ولا ارتاع من كتيبة
ولا بارز أحداً إلا قتله، ولا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت إلى ثانية.

وجاء في الحديث إذا ضرب واعتلاقاً، وإذا ضرب واعترض قطّ،
وفي الحديث: كانت ضرباته وتراً^(٣)، وكان المشركون إذا أبصروه في
الحرب عهد بعضهم إلى بعض، وبسيفه شيدت مباني الدين، وثبتت دعائمه،
وتعجبت الملائكة من شدة ضرباته وحملاته.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١ ص٢٦.

(٢) الإرشاد للمفيد ص٢٠٦، إعلام الوری ص٢٥٥، بحار الأنوار ج٤٦ ص٧٤-٦٢.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١ ص٢٠.

وفي غزوة بدر الداهية العظمى على المسلمين قتل فيها صناديد قريش كالوليد بن عتبة والعاص بن سعيد ونوفل بن خويلد الذي قرن أبا بكر وطلحة قبل الهجرة وعذبهما، وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: «الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه»^(١) ولم يزل في ذلك يصرع صنديداً بعد صنديد حتى قتل نصف المقتولين فكان سبعين، وقتل المسلمون كافة مع ثلاثة آلاف من الملائكة مسومين النصف الآخر^(٢)، وفيه نادى جبرائيل:

« لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي »^(٣)

ويوم أحد لما انهزم المسلمون عن النبي - صلى الله عليه وآله - ورُمي رسول الله - صلى الله عليه وآله - إلى الأرض وضره المشركون بالسيف والرماح وعلي - عليه السلام - مصلت سيفه قدامه، ونظر النبي - صلى الله عليه وآله - بعد إفاقتة من غشوته فقال: يا علي ما فعل المسلمون؟ فقال: نقضوا العهود وولوا الدبر.

فقال: اكفني هؤلاء، فكشفهم عنه ولم يزل يصادم كتبية بعد كتبية وهو ينادي المسلمين حتى تجمّعوا، وقال جبرئيل - عليه السلام -: إن هذه هي المواساة، لقد عجبت الملائكة من حسن مواساة علي لك بنفسه.

(١) المغازي للواقدي ج١ ص٩٢.

(٢) المغازي ج١ ص١٤٧ - ١٥٢، الإرشاد للشيخ المفيد ص٤١-٤٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١ ص٢٤.

(٣) مناقب الخوارزمي ص١٦٧ ح٢٠٠، مناقب ابن المغازلي ص١٩٨-١٩٩ ح٢٣٥، كفاية الطالب ص٢٧٧، الطبري ج٢ ص١٩٧، ابن هشام في السيرة ج٣ ص٥٢، سنن البيهقي ج٣ ص٢٧٦، المستدرک ج٢ ص٣٨٥، الرياض النضرة ج٣ ص١٥٥، ذخائر العقبى ص٧٤، ميزان الاعتدال ج٢ ص٣١٧، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١ ص٢٩.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: وما يمنعه من ذلك وهو مني وأنا منه^(١). ولثبات علي - عليه السلام - رجوع بعض المسلمين ورجع عثمان بعد ثلاثة أيام، فقال له النبي - صلى الله عليه وآله -: لقد ذهبت بها عريضة^(٢).

وفي غزوة الخندق إذ أحدق المشركون بالمدينة كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾^(٣)، واقتحم عمرو بن عبدود الخندق على المسلمين ونادى بالبراز فأحجم عنه المسلمون وبرز علي - عليه السلام - متممًا بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله ويده سيف فضربه ضربة كانت توازن عمل الثقلين إلى يوم القيامة^(٤)، وأين كان هناك أبو بكر وعمر وعثمان.

ومن نظر غزوات الواقدي وتاريخ البلاذري علم محله من رسول الله من الجهاد وبلاءه يوم الأحزاب، ويوم بني المصطلق، ويوم قلع باب خيبر، وفي غزاة الخيبر، وهذا باب لا يعني الإطناب فيه لشهرته. وروى أبو بكر الأنباري في أماليه أنّ علياً - عليه السلام - جلس إلى عمر في المسجد وعنده أناس، فلما قام عرض واحد بذكره ونسبه إلى التيه والعجب.

(١) ذخائر العقبى ص ٦٨، فضائل الصحابة لأحمد ج ٢ ص ٥٩٤ ح ١٠١٠، مجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٤، نهج الحق وكشف الصدق ص ٢٤٩.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠٣، الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١١٠، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٧، البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨، السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٥٥، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٥ ص ٢١، الدر المنثور ج ٢ ص ٨٩.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ١٠.

(٤) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٠-٤٧١، وقد تقدم حديث قتل عمر بن ود.

فقال عمر: لئله أن يتيه، لولا سيفه لما قام عمود الدين، وهو بعد
أقضى الأمة وذو سابقتها، وذو شأنها.

فقال له ذلك القائل: فما منعكم يا أمير المؤمنين منه؟

فقال: ما كرهناه إلا على حداثة سنّه، وحبّه لبني عبد المطلب، وحمله
سورة براءة إلى مكة.

ولما دعا معاوية إلى البراز لتسريح الناس من الحرب بقتل أحدهما
فقال له عمرو: قد أنصفك الرجل.

فقال له معاوية: ما غششتني في كل ما نصحتني إلا اليوم، أتأمرني
بمبارزة أبي الحسن وأنت تعلم أنه الشجاع المطوق؟ أراك طمعت في إمارة
الشام بعدي^(١).

وكانت العرب تفتخر لوقوعها في الحرب في مقابلته، فأما قتلاه فافتخر
رهطهم لأنه - عليه السلام - قتلهم وأقوالهم في ذلك أظهر وأكثر من أن
تحصى وقالت أم كلثوم^(٢) في عمر بن عبدود ترثيه:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبداً ما عشت في الأبد
لكن قاتله من لا نظير له قد كان يدعى أبوه بيضة البلد^(٣)

وجملة الأمر أنّ كل شجاع في الدنيا إليه ينتمي، وباسمه من مشارق
الأرض ومغاربها.

وأما كرمه وسخاؤه فهو الذي كان يطوي في صيامه حتى صام
طاوياً ثلاثة أيام يؤثر السائل كل ليلة بطعامه حتى أنزل الله فيه: ﴿هل أتى

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٠ وج ٨ ص ٥٣.

(٢) وهي أخته عمرة وكنيتها أم كلثوم.

(٣) المستدرک علی الصحیحین ج ٣ ص ٣٣، الفصول المهمة لابن الصباغ المالکي ص ٦٢،

الإرشاد للمفيد ج ١ ص ١٠٨، لسان العرب لابن منظور ج ٧ ص ١٢٧.

على الإنسان^(١) وتصدق بخاتمته في الركوع فنزلت الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٢)، وتصدق بأربعة دراهم فأنزل الله فيه الآية ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾^(٣) وتصدق بعشرة دراهم يوم النجوى^(٤) فخفف الله سبحانه عن سائر الأمة بها، وهو الذي كان يستسقي للنخل بيده ويتصدق بأجرته، وفيه قال عدوه معاوية بن أبي سفيان لمحجن الضبي لما قال له: جئتك من عند أبجل الناس، فقال: ويحك كيف قلت؟ تقول له أبجل الناس ولو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفق تبره قبل تبنه^(٥)، وهو الذي يقول: يا صفراء ويا بيضاء غرّي غيري، بي تعرضت أم لي تشوقت، هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها^(٦)، وهو الذي جاد بنفسه ليلة الفراش وفدى النبي - صلى الله عليه وآله - حتى نزل في حقه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^(٧).

قال يوحنا: فلما سمعوا هذا الكلام لم ينكره أحد منهم، وقالوا: صدقت إنّ هذا الذي قلت قرأناه من كتبنا ونقلناه عن أئمتنا لكن محبة الله ورسوله وعنايتهما أمر وراء هذا كله، فعسى الله أن يكون له عناية بأبي بكر أكثر من علي فيفضله عليه.

(١) سورة الإنسان: الآية ١، تقدمت تخريجاته.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٧٤.

(٤) تقدمت تخريجاته.

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٢.

(٦) نهج البلاغة صبحي الصالح ص ٤٨٠ - ٤٨١، قصار الحكم ٧٧.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٠٧، تقدمت تخريجات نزولها.

قال يوحنا: إنا لا نعلم الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى، وهذا الذي قلموه تخرص، وقال الله تعالى: ﴿لَقُلِ الْخِرَاصُونَ﴾^(١) ونحن إنما نحكم بالشواهد التي لعلنا - عليه السلام - على أفضليته فذكرناها.

وأما عناية الله به فتحصل من هذه الكمالات دليل قاطع عليها، فأية عناية خير من أن يجعله الله بعد نبيّه أشرف الناس نسباً، وأعظمهم حليماً، وأشجعهم قلباً، وأكثرهم جهاداً وزهداً وعبادة وكرماً وورعاً، وغير ذلك من الكمالات القديمة، هذه هي العناية.

وأما محبة الله ورسوله فقد شهد بها رسول الله - صلى الله عليه وآله - في مواضع؛ منها: الموقف الذي لا ينكر وهو يوم خيبر، إذ قال النبي - صلى الله عليه وآله -: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»^(٢) فأعطاها علياً.

(١) سورة الذاريات: الآية ١٠.

(٢) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من تاريخ دمشق لابن عساكر ج ١ ص ٢٠٥ ح ٢٦٩ و ص ١٥٧ ح ٢١٩ - ٢٣١، سنن الترمذي ج ٥ ص ٥٩٦ ح ٣٧٢٤، فرائد السمطين ج ١ ص ٢٥٩، مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٥١، المستدرک للحاكم ج ٣ ص ٣٨، و ص ٤٣٧، عيون الأثر ج ٢ ص ١٣٢، مسند أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٣٨٤، صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٧٨ ح ٣٣ - (٢٤٠٥)، أنساب الأشراف للبلاذري ج ٢ ص ٩٣، خصائص النسائي ص ٣٤ ح ١١، مناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي ص ١٨١ ح ٢١٦، الطبقات لابن سعد ج ٢ ص ١١٠، ينابيع المودة ص ٤٩، المعجم الصغير للطبراني ج ٢ ص ١٠٠، مسند أبي داود الطيالسي ص ٣٢٠، تذكرة الخواص للسبط بن الجوزي ص ٢٤، السنن الكبرى للبيهقي ج ٩ ص ١٠٦ و ص ١٣١، حلية الأولياء ج ١ ص ٦٢، أسنى المطالب للجزيري ص ٦٢، صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٢، أسد الغابة ج ٤ ص ٢١، البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٢، تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٢، ذخائر العقبى ص ٨٧، تاريخ الإسلام للذهبي ج ٢ ص ١٩٤، العقد الفريد ج ٢ ص ١٩٤، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٩، مروج الذهب ج ٣ ص ١٤، إحقاق الحق ج ٥ ص ٤٠٠، فضائل الخمسة ج ٢ ص ١٦١.

وروى عالمكم أخطب خوارزم في كتاب المناقب أن النبي - صلى الله عليه وآله - قال: «يا علي لو أن عبداً عبد الله عز وجل مثلما قام نوح في قومه، وكان له مثل جبل أحد ذهاباً فأنفقه في سبيل الله، ومدّ في عمره حتى حجّ ألف حجّة على قدميه، ثم قتل ما بين الصفا والمروة مظلوماً ثم لم يوالك يا علي لم يشم رائحة الجنة ولم يدخلها»^(١).

وفي الكتاب المذكور قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: «لو اجتمع الناس على حب علي بن أبي طالب لم يخلق الله النار»^(٢) وفي كتاب الفردوس: «حبّ علي حسنة لا تضرّ معها سيئة، وبغضه سيئة لا تنفع معها حسنة»^(٣).

وفي كتاب ابن خالويه عن حذيفة بن اليمان قال، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: «من أراد أن يتصدق بفصّه الياقوت التي خلق الله بيده ثم قال لها: كوني فكانت فليتول علي بن أبي طالب بعدي».

وفي مسند أحمد بن حنبل في المجلد الأول: أن رسول الله - صلى الله عليه وآله - أخذ بيد حسن وحسين وقال: «من أحبّني وأحبّ هذين وأحبّ أباهما كان معي في درجتي يوم القيامة»^(٤).

قال يوحنا: يا أئمة الإسلام هل بعد هذا كلام في قول الله تعالى ورسوله في محبّته وفي تفضيله على من هو عاطل عن هذه الفضائل؟

(١) لسان الميزان ج ٥ ص ٢١٩، ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٥٩٧.

(٢) مناقب الخوارزمي ص ٦٧ ح ٣٩، الفردوس ج ٣ ص ٣٧٢ ح ٥١٣٥.

(٣) الفردوس ج ٢ ص ١٤٢ ح ٢٧٢٥، مناقب الخوارزمي ص ٧٥ ح ٥٦.

(٤) مسند أحمد ج ١ ص ٧٧، سنن الترمذي ج ٥ ص ٥٩٩ ح ٣٧٣٣، تاريخ بغداد

ج ١٣ ص ٢٨٨، كتر العمال ج ١٣ ص ٦٣٩ ح ٣٧٦١٣.

قالت الأئمة: يا يوحنا، الرافضة يزعمون أن النبي - صلى الله عليه وآله - أوصى بالخلافة إلى علي - عليه السلام - ونصر عليه بها، وعندنا أن النبي - صلى الله عليه وآله - لم يوص إلى أحد بالخلافة.

قال يوحنا: هذا كتابكم فيه: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين﴾^(١).

وفي بخاريكم يقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: «دما من حق امرئ مسلم أن يبيت إلا وصيته تحت رأسه»^(٢) أفتصدقون أن نبيكم يأمر بما لا يفعل مع أن في كتابكم تقريراً للذي يأمر بما لا يفعل من قوله ﴿اتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾^(٣) فوالله إن كان نبيكم قد مات بغير وصية فقد خالف أمر ربّه، وناقض قول نفسه، ولم يقتد بالأنبياء الماضية من إيصائهم إلى من يقوم بالأمر من بعدهم، على أن الله تعالى يقول: ﴿فيهداهم اقتده﴾^(٤) لكنه حاشاه من ذلك وإنما تقولون هذا لعدم علم منكم وعناد، فإن إمامكم أحمد بن حنبل روى في مسنده أن سلمان قال: يا رسول الله فمن وصيّك؟

قال: يا سلمان مَنْ كان وصيَّ أخي موسى - عليه السلام -.

قال: يوشع بن نون! قال: فإنّ وصيَّ ووارثي علي بن أبي طالب.

وفي كتاب ابن المغازلي الشافعي بإسناده عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - قال: لكلّ نبيّ وصيٍّ ووارث، وأنا وصيِّي ووارثي علي بن أبي طالب^(٥).

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٢) صحيح البخاري ج٤ ص٢، صحيح مسلم ج٣ ص١٢٤٩ ح١، سنن ابن ماجه ج٢ ص٩٠١ ح٢٦٩٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ٤٤.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

(٥) مناقب ابن المغازلي ص٢٠٠ - ٢٠١ ح٢٣٨، ذخائر العقبى ص٧١.

وهذا الإمام البغوي محيي سنة الدين، وهو من أعظم محدثيكم ومفسريكم، وقد روى في تفسيره المسمى بمعالم التنزيل عند قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) عن علي - عليه السلام - أنه قال: لما نزلت هذه الآية أمرني رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن أجمع له بني عبد المطلب فجمعتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون، فقال لهم بعد أن أضافهم برجل شاة وعسّ من لبن شبعاً ورثاً وإن كان أحدهم لياكله ويشربه: يا بني عبد المطلب إنني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه فأياكم يؤازرنى عليه، ويكون أخي ووصيّي وخليفتي من بعدي؟ فلم يجبه أحد.

قال علي: فممت إليه، وقلت: أنا أجيئك يا رسول الله.

فقال لي: أنت أخي ووصيّي وخليفتي من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا، فقاموا يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع^(٢).

وهذه الرواية قد رواها أيضاً إمامكم أحمد بن حنبل في مسنده^(٣) ومحمد بن إسحاق الطبري في تاريخه^(٤) والخركوشي أيضاً رواها، فإن كانت كذباً فقد شهدتم على أئمتكم بأنهم يروون الكذب على الله ورسوله، والله تعالى يقول: ﴿إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٥) ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ﴾^(٦)، وقال الله تعالى في كتابه: ﴿فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِينَ﴾^(٧)

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٢) معالم التنزيل للبغوي ج ٣ ص ٤٠٠.

(٣) مسند أحمد ج ١ ص ١٥٩.

(٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢١.

(٥) سورة هود: الآية ١٨.

(٦) سورة يونس: الآية ٦٩، ٩٦، وسورة النحل: الآية ١١٦.

(٧) سورة آل عمران: الآية ٦١.

وإن كانوا لم يكذبوا وكان الأمر على ذلك فما ذنب الرافضة؟ إذن فاتقوا الله يا أئمة الإسلام، بالله عليكم ماذا تقولون في خبر الغدير الذي تدعيه الشيعة؟

قال الأئمة: أجمع علماؤنا على أنه كذب مفترى.

قال يوحنا: الله أكبر، فهذا إمامكم ومحدثكم أحمد بن حنبل روى في مسنده أن البراء بن عازب قال: كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في سفر فنزلنا بغدير خم فنودي فينا الصلاة جامعة وكسح لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تحت شجرتين، وصلى الظهر، وأخذ بيد علي - عليه السلام - فقال: أستم تعلمون أنني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى فأخذ بيد علي ورفعها حتى بان بياض إبطيهما وقال لهم: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله.

فقال له عمر بن الخطاب: هنيئاً لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

ورواه في مسنده بطريق آخر وأسنده إلى أبي الطفيل، ورواه بطريق آخر وأسنده إلى زيد بن أرقم^(١)، ورواه ابن عبد ربّه في كتاب العقد الفريد^(٢)، ورواه سعيد بن وهب، وكذا الثعالبي في تفسيره^(٣) وأكد الخبر مما رواه من تفسير (سأل سائل) أنّ حارث بن النعمان الفهري أتى رسول الله -

(١) مسند أحمد ج ٢ ص ٩٣ وج ٤ ص ٣٦٨ وص ٣٧٢ وص ٣٨١.

(٢) العقد الفريد ج ٥ ص ٦١.

(٣) ومن ذكر خير الحارث بن النعمان: فرائد السمطين ج ١ ص ٨٢ ح ٥٣، نور الأبصار للشبلنجي ص ٧١ ط السعيدية وص ٧١ ط العثمانية، نظم درر السمطين للزرندي الحنفي ص ٩٣، ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص ٣٢٨ ط الحيدرية وص ٢٧٤ ط اسلامبول وج ٢ ص ٩٩ ط العرفان بصيدا.

صلى الله عليه وآله وسلم - في ملأ من أصحابه فقال: يا محمد أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنت محمد رسول الله قبلنا، وأمرتنا أن نصلي خمساً قبلنا منك، وأمرتنا أن نصوم شهر رمضان قبلنا، وأمرتنا أن نحج البيت قبلنا، ثم لم ترض حتى رفعت بضيعي ابن عمك فضلتنا علينا وقلت: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» فهذا شيء منك أم من الله؟

فقال: والله الذي لا إله إلا هو، إنه أمر من الله تعالى، فولّى الحارث بن النعمان وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد - صلى الله عليه وآله - حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء، فما وصل إلى راحته حتى رماه الله بحجر فسقط على رأسه وخرج من دبره فخر صريعاً، فنزل: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾^(١)، فكيف يجوز منكم أن يروي أئمتكم وأنتم تقولون: إنه مكذوب غير صحيح؟

قال الأئمة: يا يوحنا قد روت أئمتنا ذلك لكن إذا رجعت إلى عقلك وفكرك علمت أنه من المحال أن ينص رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على علي بن أبي طالب الذي هو كما وصفتم ثم يتفق كل الصحابة على كتمان هذا النص ويتراخون عنه، ويتفقون على إخفائه، يعدلون إلى أبي بكر التيمي الضعيف القليل العشيرة، مع أنّ الصحابة كانوا إذا أمرهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بقتل أنفسهم فعلوا، فكيف يصدق عاقل هذا الحال من المحال؟

قال يوحنا: لا تعجبوا من ذلك فأمة موسى - عليه السلام - كانوا ستة أضعاف أمة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - واستخلف عليهم أخاه هارون وكان نبيهم أيضاً وكانوا يحبونه أكثر من موسى، فعدلوا عنه إلى السامريّ، وعكفوا على عبادة عجل جسد له خوار، فلا يبعد من أمة محمد

(١) سورة المعارج: الآية ١.

أن يعدلوا عن وصيّه بعد موته إلى شيخ كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تزوّج ابنته، ولعلّه لو لم يرد القرآن بقصة عبادة العجل لما صدّقتموها.

قال الأئمة: يا يوحنا فلم لم ينازعهم بل سكت عنهم وبايعهم؟

قال يوحنا: لا شكّ أنّه لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - كان المسلمون قلة، واليماة فيها مسيلمة الكذاب وتبعه ثمانون ألفاً والمسلمون الذين في المدينة حشوههم منافقون، فلو أظهر النزاع بالسيف لكان كلُّ من قتل علي بن أبي طالب بنيه أو أخاه كان عليه وكان قليل من الناس يومئذ من لم يقتل علي من قبيلته وأصحابه وأناسبه قتيلاً أو أزيد وكانوا يكونون عليه، فلذلك صبر وشاققهم على سبيل الحجّة ستّة أشهر بلا خلاف بين أهل السنة، ثمّ بعدما جرى من طلب البيعة منهم فعند أهل السنة أنّه بايع، وعند الرافضة أنّه لم يبايع، وتاريخ الطبري^(١) يدلّ على أنّه لم يبايع، وإنّما العبّاس لما شاهد الفتنة صاح: بايع ابن أخي.

وأنتم تعلمون أن الخلافة لو لم تكن لعلي لما ادّعاها، ولو ادّعاها بغير حق لكان مبطلاً، وأنتم تروون عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أنّه قال: «علي مع الحقّ والحقّ مع علي»^(٢) فكيف يجوز منه أن يدّعي ما ليس بحقّ فيكذب نبيكم يومئذ؟!

وأما تعجّبكم من مخالفة بني إسرائيل نبيهم في خليفته وعدولهم إلى العجل والسامري ففيه سرٌّ عجيب إنكم رويتم أنّ نبيكم قال: «ستحذون حذو بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، والقذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا جحر

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٠٨.

(٢) تقدمت تخريجاته.

ضب لدخلتموه»^(١) وقد ثبت في كتابكم أنّ بني إسرائيل خالفت نبيّها في خليفته، وعدلوا عنه إلى ما لا يصلح لها.

قال العلماء: يا يوحنا أفندري أنت أنّ أبا بكر لا يصلح للخلافة؟

قال يوحنا: أما أنا فوالله لم أر أبا بكر يصلح للخلافة، ولا أنا متعصّب للرافضة، لكنّي نظرت الكتب الإسلامية فرأيت أنّ أئمتكم أعلمونا أنّ الله ورسوله أخبر أنّ أبا بكر لا يصلح للخلافة.

قال الأئمة: وأين ذلك؟

قال يوحنا: رأيت في بخاريكم^(٢)، وفي الجمع بين الصحاح الستة، وفي صحيح أبي داود، وصحيح الترمذي^(٣)، ومسنّد أحمد بن حنبل^(٤) أنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعث سورة براءة مع أبي بكر إلى أهل مكة، فلمّا بلغ ذي الحليفة دعا علياً - عليه السلام - ثم قال له: أدرك أبا بكر وخذ الكتاب منه فاقرأه عليهم، فلحقه بالجحفة فأخذ الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال: يا رسول الله أنزل فيّ شيء؟

قال: لا ولكن جاءني جبرئيل - عليه السلام - وقال: لن يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك.

فإذا كان الأمر هكذا وأبو بكر لا يصلح لأداء آيات يسيرة عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في حياته، فكيف يصلح أن يكون خليفته بعد

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي ج٤ ص٤٦٥، مجمع البيان ج ١٠ ص٤٦٢ باختلاف، وقد تقدم المزيد من تخريجات الحديث فيما سبق.

(٢) صحيح البخاري ج٦ ص٨١.

(٣) سنن الترمذي ج٥ ص٢٥٦ - ٢٥٧ ح ٣٠٩٠ - ٣٠٩٢ وج٣ ص٢٢٢ ح ٨٧١.

(٤) مسنّد أحمد ج٦ ص٨١.

ماتة ويؤدّي عنه، وعلمنا من هذا أنّ علياً - عليه السلام - يصلح أن يؤدي
عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فيا أيها المسلمون لم تتعاملون عن الحق الصريح؟ ولم تتركون إلى هؤلاء
وكم ترهبون الأهل؟

أطرق الحنفي برأسه إلى الأرض ثم رفعه وقال: يا يوحنا والله إنك
لتنظر بعين الإنصاف، وإنّ الحق لكما تقول، وأزيدك في معنى هذا الحديث،
وهو أن الله تعالى أراد أن يبيّن للناس أن أبا بكر لا يصلح للخلافة، فلذلك
أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يخرج علياً وراءه ويعزله عن
هذا المنصب العظيم ليعلم الناس أن أبا بكر لا يصلح لها، وأنّ الصالح لها
علي - عليه السلام - فقال لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : لا يبلغ
عنك إلا أنت أو رجل منك^(١)، فما تقول أنت يا مالكي؟

قال المالكي: والله فإنّه لم يزل يختلج في خاطري أن علياً نازع أبا بكر
في خلافته مدة ستة أشهر، وكلّ متنازعين في الأمر لا بدّ وأن يكون
أحدهما محقاً، فإن قلنا إنّ أبا بكر كان محقاً فقد خالفنا مدلول قول النبي -
صلى الله عليه وآله وسلم - : «علي مع الحقّ والحقّ مع علي»^(٢) . وهذا
حديث صحيح لا خلاف فيه ونظر إلى الحنبلي ليرى رأيه.

قال الحنبلي: يا أصحابنا كم نتعامى عن الحقّ؟ والله إنّ اليقين أنّ أبا
بكر وعمر غصبا حقّ علي - عليه السلام - .

وقال يوحنا: فاختبط القوم، وكثر بينهم النزاع لكن كان مآل كلامهم
أن الحق في طرف الراضة، وكان أقربهم إلى الحقّ إذن إمام الشافعية، فقال

(١) مسند أحمد ج ٣ ص ٢١٢، المصنّف لابن أبي شيبة ص ٨٤-٨٥ ح ١٢١٨٤، كنز العمال
ج ٢ ص ٤٣١ ح ٤٤٢١، البداية والنهاية ج ٥ ص ٣٧، وقد تقدمت تخريجاته.

(٢) تقدمت تخريجاته.

لهم: أراكم تشكون أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: من مات ولم يعرف إمام زمانه^(١) فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً.

فما المراد بإمام الزمان؟ ومن هو؟

قالوا: إمام زماننا القرآن فإننا به نقتدي.

فقال الشافعي: أخطأتم لأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال:

الأئمة من قريش^(٢) ولا يقال للقرآن إنه قد شيء.

فقالوا: النبي إمامنا.

فقال الشافعي: أخطأتم، لأن علماءنا لما اعترض عليهم بأن كيف يجوز

لأبي بكر وعمر أن يتركا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مسجى غير مغسّل ويذهبا لطلب الخلافة، وهذا دليل على حرصهم عليها، وهو قادح في صحّة خلافتهما.

أجاب علماءنا إنهم لمحوا أقوال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -:

«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» ولم يجوزوا على أنفسهم الموت قبل تعيين الإمام، فبادروا لتعيينه هرباً من ذلك الوعيد، فعلمنا أن ليس المراد بالإمام هنا النبي.

فقالوا للشافعي: فأنت من إمامك يا شافعي؟

قال: إن كنت من قبيلتكم فلا إمام لي، وإن كنت من قبيلة الإثني

عشرية فإمامي محمد بن الحسن - عليه السلام -.

فقال العلماء: هذا والله أمر بعيد كيف يجوز أن يكون إمامك واحداً

من مدّة لا يعيش أحد مثله، ولا يراه أحد؟ هذا بعيد جداً.

(١) تقدمت تخريجاته.

(٢) مسند أبي داود ص ١٢٥ ح ٩٢٦، مسند أحمد ج ٣ ص ١٨٣، المصنّف لابن أبي شيبة

ج ١٢ ص ١٦٩ ح ١٢٤٣٨ و ص ١٧٣ ح ١٢٤٤٧، كنز العمال ج ١٢ ص ٣٠ ح ٣٣٨٣١.

فقال الشافعي: الدجال من الكفرة تقولون: إنه حيٌّ وموجود، وهو قبل المهدي والسامري، كذلك ووجود إبليس لا تنكرونه، وهذا الخضر، وهذا عيسى تقولون: إنهما حيّان، وقد ورد عندكم ما يدل على التعمير في حق السعداء والأشقياء، وهذا القرآن ينطق أن أهل الكهف ناموا ثلاث مائة سنة وتسع سنين لا يأكلون ولا يشربون، أفبعيد أن يعيش من ذرية محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - واحد مدة طويلة يأكل ويشرب إلا أنه لا يخبرنا أحد أنه راه؟! فاستبعادكم هذا بعيد جداً.

قال يوحنا: إن نبيكم قال: ستفترق أمتي من بعدي إلى ثلاث وسبعين

فرقة واحدة ناجية، واثنان وسبعون في النار فهل تعرف الناجية من هي؟ قالوا: إنهم أهل السنة والجماعة لقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لما سئل عن الفرقة الناجية من هم؟ فقال: «الذين هم على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(١).

قال يوحنا: فمن أين لكم أنكم أنتم اليوم على ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -؟

قالوا: ينقل ذلك الخلف عن السلف.

فقال يوحنا: فمن الذي يعتمد على نقلكم؟

قالوا: وكيف ذلك؟

قال: لوجهين:

الأول: أن علماءكم نقلوا كثيراً من الأحاديث التي تدل على إمامة علي - عليه السلام - وأفضليته، وأنتم تقولون إنه مكذوب عليه، وشهدتم علي علماءكم أنهم ينقلون الكذب فربما يكون هذا أيضاً كذباً ولا مرجح لكم.

(١) المعجم الصغير للطبراني ج ١ ص ٢٥٦، كنز العمال ج ١ ص ٢١٠ ح ١٠٥٥ و ١٠٥٧، مجمع الزوائد ج ١ ص ١٨٩.

الثاني: أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يصلي كل يوم الصلوات الخمس في المسجد ولم يضبط له أنه هل كان يسلم للحمد أم لا؟ وهل كان يعتقد وجوبها أم لا؟ وهل كان يسبل يديه أم لا؟ ولو كان يعقدهما فهل يعقدهما تحت السرّة أو فوقها؟ وهل كان يمسح الوضوء ثلاث شعرات أو ربع الرأس، أو بعضه أو جميعه، فإذا كان سلفكم لم يضبط شيئاً كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يفعله في اليوم والليلة مراراً متعدّدة، فكيف يضبطون شيئاً لم يفعله في العمر إلا مرة واحدة أو مرتين، هذا بعيد! وكيف تقولون إنّ أهل السنة هم على ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والحال أنّهم يناقض بعضهم بعضاً في اعتقاداتهم، واجتماع النقيضين محال.

قال يوحنا: فأطرقوا جميعاً، ودار الكلام بينهم، وارتفعت الأصوات بينهم، وقالوا: الصحيح أنا لا نعرف الفرقة الناجية من هي، وكلّ منا يزعم أنّه هو الناجي، وأنّ غيره هو الهالك، ويمكن أن يكون هو الهالك، وغيره الناجي.

قال يوحنا: هذه الرافضة الذين تزعمون أنّهم ضالّون يمزجون بنجاتهم، وهلاك من سواهم، ويستدلّون على ذلك بأن اعتقادهم أوفى للحق، وأبعد عن الشك.

قالت العلماء: يا يوحنا، قل وإنا والله لا نتهمك لعلنا أنك تجادلنا على إظهار الحق.

قال يوحنا: أنا أقول باعتقاد الشيعة أن الله قديم ولا قديم سواه، وأنه موجود، وأنه ليس بجسم، ولا في محل، وهو منزّه عن الحلول، واعتقادكم أنّكم تثبتون معه ثمانية قدماء هي الصفات حتى إنّ إمامكم الفخر الرازي شخّ عليكم، وقال: إنّ النصرى واليهود كفروا حيث جعلوا مع الله إلهين

اثنين قديمين وأصحابنا أثبتوا قدماء تسعة، وابن حنبل أحد أئمتكم قال: إن الله جسم، وإنه على العرش، وإنه ينزل في صورة أمرد، فبالله عليكم أليس الحال كما قلت؟
قالوا: نعم.

قال يوحنا: فاعتقادهم إذاً خير من اعتقادكم، واعتقاد الشيعة أن الله سبحانه لا يفعل قبيحاً، ولا يُخلّ بواجب، وليس في فعله ظلم، ويرضون بقضاء الله لأنه لا يقضى إلا بالخير، ويعتقدون أن فعله لغرض لا لعب، وأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يُضِلُّ أحداً من عباده، ولا يحول بينهم وبين عبادته، وأنه أراد الطاعة، ونهى عن المعصية، وأنهم يختارون في أفعال أنفسهم، واعتقادكم أنتم أن الفواحش كلها من الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وأن كل ما يقع في الوجود من الكفر والفسوق والمعصية والقتل والسرقة والزنا فإنه خلقه الله تعالى في فاعليه وأراده منهم وقضى عليهم به ورفع اختيارهم، ثم يعذبهم عليه، وأنتم لا ترضون بقضاء الله بل إن الله تعالى لا يرضى بقضاء نفسه، وأنه هو الذي أضلّ العباد وحال بينهم وبين العبادة والإيمان، وإن الله تعالى يقول: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾^(١)، فاعتبروا هل اعتقادكم خير من اعتقادهم أم اعتقادهم خير من اعتقادكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون!!

وقالت الشيعة: أنبياء الله معصومون من أوّل عمرهم إلى آخره عن الصغائر والكبائر فيما يتعلّق بالوحي وغيره عمداً وخطأً، واعتقادكم أنه يجوز عليهم الخطأ والنسيان، ونسبتم أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سهى في القرآن بما يوجب الكفر فقلتم: إنه صلى الصبح فقرأ سورة النجم:

(١) سورة الزمر: الآية ٧.

(أفرايتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى) (١)، وهذا كفر وشرك جلي، حتى أن بعض علمائكم صنّف كتاباً فيه تعداد ذنوب نسبها للأنبياء - عليهم السلام - فأجابته الشيعة عن ذلك الكتاب بكتاب سمّوه بتنزيه الأنبياء (٢)، فماذا تقولون أيّ الاعتقادين أقرب إلى الصواب، وأدنى من الفوز؟

واعتماد الشيعة أنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يقبض حتى أوصى إلى من يقوم بالأمر بعده، وأنه لم يترك أمته هملأً ولم يخالف قوله تعالى، واعتمادكم أنّه ترك أمته هملأً، ولم يوص إلى من يقوم بالأمر بعده، وإن كتابكم الذي أنزل عليكم فيه وجوب الوصية، وفي حديث نبيكم وجوب الوصية، فلزم على اعتقادكم أن يكون النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أمر الناس بما لم يفعله، فأيّ الاعتقادين أولى بالنجاة.

واعتماد الشيعة أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يخرج من الدنيا حتى نصّب بالخلافة على علي بن أبي طالب - عليه السلام - ولم يترك أمته هملأً فقال له يوم الدار: «أنت أخي ووصيّي وخليفتي من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا أمره» (٣) وأنتم نقلتموه ونقله إمام القراء والطبري والخركوشي وابن إسحاق.

وقال فيه يوم غدير خم: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه» حتى قال له عمر: بخّ بخّ لك يا علي، أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة، نقله إمامكم أحمد بن حنبل في مسنده (٤). وقال فيه لسلمان: «إنّ وصيّي ووارثي علي بن أبي طالب» رواه إمامكم أحمد بن حنبل (٥). وقال فيه: «إنّ الأنبياء

(١) سورة النجم: الآية ١٩ و ٢٠.

(٢) تنزيه الأنبياء لعلم الهدى الشريف المرتضى - أعلى الله مقامه -.

(٣) تقدمت تخريجاته.

(٤) مسند أحمد ج ٤ ص ٢٨١.

(٥) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ج ٢ ص ٦١٥ ح ١٠٥٢.

ليلة المعراج قالوا لي: بعثنا على الإقرار بنبوتك، والولاية لعلي بن أبي طالب» ورويتموه في الثعلبي والبيان وقال فيه: «إنه يحب الله ورسوله» ورويتموه في البخاري ومسلم^(١). وقال فيه «لا يؤذي عني إلا أنا أو رجل مني»، وعنى به علي بن أبي طالب، ورويتموه في الجمع بين الصحيحين، وقال فيه: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، ورويتموه في البخاري^(٢). وأنزل الله فيه: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾^(٣) وأنزل فيه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٤) وأنه صاحب آية الصدقة^(٥)، وضربته لعمر بن ود العامري أفضل من عمل الأمة إلى يوم القيامة^(٦)، وهو أخو رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وزوج ابنته، وباب المدينة، وإمام المتقين، ويعسوب الدين، وقائد الغر المحجلين^(٧)، حلال المشكلات، وفكك العضلات، هو الإمام بالنص الإلهي، ثم من بعده الحسن والحسين اللذان قال

(١) صحيح مسلم ج٤ ص١٨٧١ - ١٨٧٢ ح ٣٢ - ٣٥، صحيح البخاري ج٥ ص٢٣.

(٢) صحيح مسلم ج٥ ص١٨٧٠ ح ٣٠ - ٣٢، صحيح البخاري ج٥ ص٢٤.

(٣) سورة الدهر: الآية ١.

(٤) سورة المائدة: الآية ٥٥.

(٥) وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، سورة البقرة الآية ٢٧٤، وقد تقدمت تخرجات نزولها فيه - عليه السلام -.

(٦) المستدرک ج٣ ص٣٢، تاريخ بغداد ج١٣ ص١٩ رقم: ٦٩٧٨، الفردوس بمأثور الخطاب ج٣ ص٤٥٥ ح ٥٤٠٦.

(٧) فقد جاء في فرائد السمطين ج١ ص١٤٣ ح ١٠٥: عن عبد الله بن عكيم الجهني، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إن الله تبارك وتعالى أوحى إليّ في عليّ - عليه السلام - ثلاثة أشياء ليلة أسري بي: إنه سيد المؤمنين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين.

ومثله أيضاً بتفاوت ما جاء في ص١٤٥ ح ١٠٩، بحار الأنوار ج١٨ ص٣٤٣، سفينة البحار ج١ ص١٣٣.

فيهما النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : «هذان إمامان قاما أو قعدا، وأبوهما خير منهما»^(١).

وقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»^(٢)، ثم علي زين العابدين، ثم أولاده المعصومون الذين خانتهم الحجّة القائم المهدي إمام الزمان - عليه السلام - الذي من مات ولم يعرفه مات ميتة الجاهلية^(٣)، وأنتم رويتم في صحاحكم عن جابر بن سمرة أنّه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «يكون بعدي إثنا عشر أميراً» وقال كلمة لم أسمعها^(٤) وفي بخاريكم^(٥) قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم إثنا عشر رجلاً» ثم تكلم بكلمة خفيفة خفيت عليّ.

وفي صحيح مسلم «لا يزال أمر الدين قائماً حتى تقوم الساعة ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش»^(٦)، وفي الجمع بين الصحيحين والصحاح الستة أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش»^(٧).

وروى عالمكم ومحدثكم وثقتكم صاحب كفاية الطالب عن أنس بن مالك، قال: كنت أنا وأبو ذر وسلمان وزيد بن ثابت وزيد بن أرقم عند

(١) كفاية الأثر: ص ٣٨، بحار الأنوار ج ٣٦ ص ٢٨٩.

(٢) مسند أحمد ج ٣ ص ٣ و ٦٢، سنن الترمذي ج ٥ ص ٦١٤ ح ٣٧٦٨، تاريخ بغداد ج ١١ ص ٩٠، كنز العمال ج ١٢ ص ١١٢ ح ٣٤٢٤٦.

(٣) تقدمت تخريجاته.

(٤) مسند أحمد ج ٥ ص ٩٢ و ٩٤، المعجم الكبير ج ٢ ص ٢٣٦ ح ١٨٧٥ و ص ٢٤٨ ح ١٩٢٣.

(٥) صحيح البخاري ج ٤ ص ٢١٨.

(٦) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٣ ح ١٠.

(٧) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٢ ح ٥، مسند أحمد ج ٤ ص ٩٤ و ٩٦، وقد تقدمت تخريجات هذه الأحاديث.

النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ دخل الحسن والحسين - عليهما السلام - فقبلهما رسول الله، وقام أبو ذر فانكب عليهما، وقبل أيديهما، ورجع فقعد معنا، فقلنا له سرّاً: يا أبا ذر رأيت شيخاً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقوم إلى صبيّين من بني هاشم فينكب عليهما ويقبلهما ويقبل أيديهما.

فقال: نعم، لو سمعتم ما سمعت لفعلتم بهما أكثر مما فعلت.
فقلنا: وما سمعت فيهما من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يا أبا ذر؟

فقال: سمعته يقول لعلي ولهما: حواله لو أن عبداً صلّى وصام حتى يصير كالشن البالي إذا ما نفعه صلاته ولا صومه إلا بحبكم والبراءة من عدوكم.

يا علي، من توسل إلى الله بحبكم فحق على الله أن لا يرده خائباً.
يا علي، من أحبكم وتمسك بكم فقد تمسك بالعروة الوثقى.
قال: ثمّ قام أبو ذر وخرج فتقدّمنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقلنا: يا رسول الله أخبرنا أبو ذرّ بكيت وكيفيت.
فقال: صدق أبو ذر، والله ما أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر^(١).

ثمّ قال - صلى الله عليه وآله وسلم -: خلقتني الله تعالى وأهل بيتي من نور واحد قبل أن يخلق الله آدم بسبعة آلاف عام، ثمّ نقلنا من صلبه في أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات.

(١) جمع الزوائد ج ٥ ص ١٩٧ وج ٦ ص ٤٤٢، مشكل الآثار ج ١ ص ٢٢٤، مسند أحمد بن حنبل ج ٢ ص ١٧٥ و ٢٢٣ ط الميمنية، الكامل في الضعفاء لابن عدي ج ٥ ص ١٨١٦، البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦٥، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٨ ص ٢٥٩، بتفاوت.

قلت يا رسول الله: وأين كنتم؟ وعلى أي شأن كنتم؟
فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: كنا أشباحاً من نور
تحت العرش نسيح الله ونقدسه.
ثم قال - صلى الله عليه وآله وسلم -: لما عرج بي إلى السماء وبلغت
إلى سدرة المنتهى ودعني جبرئيل.

فقلت: يا حبيبي جبرئيل في مثل هذا المقام تفارقني؟
فقال: يا محمد إني لا أجوز هذا الموضع فتحترق أجنحتي، ثم زجَّ بي
من النور إلى النور ما شاء الله تعالى، فأوحى الله تعالى إلي: يا محمد: إني
اطلعت إلى الأرض اطلاعة فاخترتك منها وجعلتك نبياً، ثم اطلعت ثانياً
فاخترت منها علياً وجعلته وصيِّك ووارث علمك وإماماً من بعدك، وأخرج
من أصلابكم الذرية الطاهرة والأئمة المعصومين خزان علمي، ولولا هم ما
خلقت الدنيا ولا الآخرة، ولا الجنة ولا النار، أتحب أن تراهم؟

فقلت: نعم يا رب، فنوديت: يا محمد ارفع رأسك، فرفعت رأسي فإذا
أنا بأنوار علي، والحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي،
وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي،
وعلي بن محمد، والحسن بن علي، والحجة بن الحسن يتلألأ من بينهم كأنه
كوكب دري - عليهم أفضل الصلاة والسلام ..

فقلت: يا رب من هؤلاء ومن هذا؟

فقال سبحانه وتعالى: هؤلاء الأئمة من بعدك المطهرون من صلبك،
وهذا هو الحجة الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً
ويشفي صدور قوم مؤمنين.

فقلنا: بآبائنا وأمهاتنا أنت يا رسول الله لقد قلت عجباً.

فقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: وأعجب من هذا أن أقواماً يسمعون هذا مني ثم يرجعون على أعقابهم بعد إذ هداهم الله ويؤذوني فيهم لا أناهم الله شفاعتي^(١).

قال يوحنا: واعتقادكم أنتم أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لما مات مات على غير وصية، ولم ينصّ على خليفته، وأن عمر بن الخطاب اختار أبا بكر وبايعه وتبعته الأمة، وأنه سمّى نفسه خليفة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأنتم تعلمون كلّكم أن أبا بكر وعمر لما مات رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تركاه بغير غسل ولا كفن وذهباً إلى سقيفة بني ساعدة فنازعا الأنصار في الخلافة، وولي أبو بكر الخلافة ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مسجّى، ولا شكّ أنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يستخلفه، وأنه كان يعبد الأصنام قبل أن يسلم أربعين سنة، والله تعالى يقول ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٢) ومنع فاطمة إرثها من أبيها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بخبر (رواه).

قالت فاطمة: يا أبا بكر ترث أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فرياً، وعارضته بقول الله: ﴿يُرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾^(٣)، وورث سليمان داود^(٤)، وقال الله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾^(٥) ولو كان حديث أبي بكر صحيحاً لم يمسك علي بن أبي طالب - عليه السلام - سيف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبغلته وعمامته ونازع العباس علياً بعد موت فاطمة - عليها السلام - في ذلك، ولو كان هذا الحديث معروفاً لم يجز

(١) كفاية الأثر: ص ٦٩ - ٧٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٣) سورة مريم: الآية ٦.

(٤) سورة النمل: الآية ١٦.

(٥) سورة النساء: الآية ١١.

لهم ذلك، وأبو بكر منع فاطمة - عليها السلام - فذكاً لأنها ادّعت ذلك، وذكرت أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نخلها إياها فلم يصدقها في ذلك مع أنها من أهل الجنة، وأن الله تعالى أذهب عنها الرجس الذي هو أعمّ من الكذب وغيره، واستشهدت علياً - عليه السلام - وأم أيمن مع شهادة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لها بالجنة، فقال: رجل مع رجل وامرأة، وصدق الأزواج في ادّعاء الحجرة، ولم يجعل الحجرة صدقة فأوصت فاطمة وصية مؤكدة أن يدفنها علي ليلاً حتى لا يصلي عليها أبو بكر^(١).

وأبو بكر قال: أقيلوني فلست بخيركم وعلي فيكم^(٢)، فإن صدق فلا يصحّ له التقدم على علي بن أبي طالب - عليه السلام - وإن كذب فلا يصلح للإمامة، ولا يحمل هذا على التواضع لجعله شيئاً موجباً لفسخ الإمامة وحامله عليه. وأبو بكر قال: إنّ لي شيطاناً يعتريني، فإذا زغت فقوموني^(٣). ومن يعتره الشيطان فلا يصلح للإمامة!!

وأبو بكر قال في حقّه عمر: إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة، ووقى الله المسلمين شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه^(٤)، فتبيّن أن بيعته كانت خطأ على غير الصواب، وأنّ مثلها مما يجب المقاتلة عليها. وأبو بكر تخلف عن جيش أسامة وولاه عليه، ولم يولّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على علي أحد^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٢٨٠ - ٢٨١، وقد تقدمت تحريجاته.

(٢) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢٢، كنز العمال ج ٥ ص ٥٨٨ ح ١٤٠٤٦ و ح ١٤٠٥، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٠، نهج الحق ص ٢٦٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٦٩.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) تقدمت تحريجاته.

(٥) انظر: الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٤٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٩٦.

وأبو بكر لم يؤله رسول الله - صلى الله عليه وآله - عملاً في زمانه قط إلا سورة براءة، وحين ما خرج أمر الله تعالى رسوله بعزله وأعطاهما علياً^(١). وأبو بكر لم يكن عالماً بالأحكام الشرعية، حتى قطع يسار السارق، وأحرق بالنار الفجاءة السلمي التيمي^(٢)، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «لا يعذب بالنار إلا ربّ النار»^(٣).

ولما سئل عن الكلاله لم يعرف ما يقول فيها فقال: أقول برأيي فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمن الشيطان.

وسألته جدّة عن ميراثها، فقال: لا أجد لك في كتاب الله شيئاً ولا في سنة محمد، أرجعي حتى أسأل فأخبره المغيرة بن شعبة أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أعطاهما السدس وكان يستفتي الصحابة في كثير من الأحكام.

وأبو بكر لم ينكر على خالد بن الوليد في قتل مالك بن نويرة، ولا في تزويج امرأته ليلة قتله من غير عدّة .

وأبو بكر بعث إلى بيت أمير المؤمنين - عليه السلام - لما امتنع من البيعة فأضرم فيه النار^(٤) وفيه فاطمة - عليها السلام - وجماعة من بني هاشم وغيرهم فأنكروا عليه.

(١) تقدمت تحريجاته.

(٢) راجع: الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٤.

(٣) شرح السنة للبغوي ج ١٢ ص ١٩٨، مجمع الزوائد ج ٦ ص ٢٥١، كشف الأستار ج ٢ ص ٢١١ ح ١٥٣٨.

(٤) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٩١، نهج الحق ص ٢٧، وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٥٦: فأتاهم عمر ليحرق عليهم البيت، فخرج إليه الزبير بالسيف، وخرجت فاطمة - عليها السلام - تبكي وتصيح، فنهتهن من الناس إلخ وروى ذلك عن أبي بكر الحوهرى.

وأبو بكر لما صعد المنبر جاء الحسن والحسين وجماعة من بني هاشم وغيرهم وأنكروا عليه وقال له الحسن والحسين - عليهما السلام -: هذا مقام جدتنا ولست أهلاً له^(١).

وأبو بكر لما حضرته الوفاة، قال: يا ليتني تركت بيت فاطمة لم أكشفه، وليتني كنت سألت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: هل للأنصار في هذا الأمر حق؟

وقال: ليتني في ظلّة بني ساعدة ضربت على يد أحد الرجلين، وكان هو الأمير وأنا الوزير^(٢).

وأبو بكر عندكم أنّه خالف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الاستخلاف، لأنه استخلف عمر بن الخطاب ولم يكن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وولاه الصدقات فشكا العباس فعزله النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأنكر الصحابة على أبي بكر تولية عمر حتى قال طلحة: ولّيت عمر فظاً غليظاً.

وأما عمر، فإنه أتى إليه بامرأة زنت وهي حامل فأمر برجمها، فقال علي - عليه السلام -: إن كان لك عليها سبيل فليس لك على حملها من سبيل، فأمسك وقال: لولا علي لهلك عمر^(٣).

وعمر شكّ في موت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: ما مات محمد ولا يموت حتى تلا عليه أبو بكر الآية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٤) فقال: صدقت، وقال: كأنّي لم أسمعها^(٥).

(١) نهج الحق ص ٢٧٢، أسد الغابة ج ٢ ص ١٤، الصواعق المحرقة ص ١٧٥، ط المحمدية و ص ١٠٥ ط الميمنية بمصر.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١ ص ١٤، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢، نهج الحق ص ٢٦٥.

(٣) تقدمت تخريجاته.

(٤) سورة الزمر: الآية ٣.

(٥) تاريخ الخميس ج ٢ ص ١٦٧، صحيح البخاري ج ٦ ص ١٧، وقد تقدم الحديث مع تخريجاته.

وجاءوا إلى عمر بامرأة مجنونة قد زنت فأمر برجمها، فقال له علي - عليه السلام -: القلم مرفوع عن المجنون حتى يفيق، فأمسك، فقال: لولا علي لهلك عمر^(١).

وقال في خطبة له: من غالى في مهر امرأته جعلته في بيت مال المسلمين، فقالت له امرأة، تمنعنا ما أحلّ الله لنا حيث يقول: ﴿وَأْتِمُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتَانَا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾^(٢) فقال: كلّ الناس أफقه من عمر حتى المخدّرات في البيوت^(٣).

وكان يعطي حفصة وعائشة كلّ واحدة منهما مائتي ألف درهم، وأخذ مائتي ألف درهم من بيت المال فأنكر عليه المسلمون فقال: أخذته على وجه القرض^(٤).

ومنع الحسن والحسين - عليهما السلام - إرثهما من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومنعهما الخمس^(٥).

وعمر قضى في الحدّ بسبعين قضية وفضّل في العطاء والقسمة ومنع المتعتين وقال: متعتان كانتا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حلالاً وأنا محرّمهما، ومعاقب من فعلهما^(٦).

وخالف النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأبا بكر في النصّ وعدمه، وجعل الخلافة في ستة نفر، ثم ناقض نفسه وجعلها في أربعة نفر، ثمّ في

(١) تقدمت تخريجاته.

(٢) سورة النساء.

(٣) الدرّ المنثور ج ٢ ص ٤٦٦، نهج الحق ص ٢٧٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٨٢ وج ١٢ ص ١٧.

(٤) نهج الحق ص ٢٧٩، وفيه عشرة آلاف.

(٥) أحكام القرآن للحصّاص ج ٣ ص ٦١.

(٦) نهج الحق: ص ٢٨١، الدرّ المنثور ج ٢ ص ٤٨٧، وقد تقدمت تخريجاته.

الثلاثة، ثمّ في واحد، فجعل إلى عبد الرحمن بن عوف الاختيار بعد أن وصفه بالضعف والقصور، ثمّ قال: إن اجتمع علي وعثمان فالقول ما قالوا، وإن صاروا ثلاثة فالثلاثة فالقول للذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، لعلمه أن علياً وعثمان لا يجتمعان على أمر، وأن عبد الرحمن بن عوف لا يعدل بالأمر عن ابن أخته وهو عثمان، ثم أمر بضرب عنق من تأخّر عن البيعة ثلاثة أيام^(١).

وعمر أيضاً مزق الكتاب كتاب فاطمة - عليها السلام - وهو أنه لما طالت المنازعة بين فاطمة وأبي بكر، ردّ عليها فدك والعوالي، وكتب لها كتاباً فخرجت والكتاب في يدها فلقبها عمر فسألها عن شأنها، فقصّت قصتها، فأخذ منها الكتاب وخرقه^(٢)، ودعت عليه فاطمة، فدخل على أبي بكر ولامه على ذلك واتفقا على منعها.

وأما عثمان بن عفان فجعل الولايات بين أقاربه، فاستعمل الوليد أخاه لأمه على الكوفة، فشرّب الخمر، وصلّى بالناس وهو سكران^(٣)، فطرده أهل الكوفة فظهر منه ما ظهر.

وأعطى الأموال العظيمة أزواج بناته الأربع، فأعطى كل واحد من أزواجهنّ مائة ألف مثقال من الذهب من بيت مال المسلمين، وأعطى مروان ألف ألف درهم من خمس افرريقية^(٤).

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢٨-٢٩، نهج الحق ص ٢٨٥، تقدم الحديث مع تحريجاته.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٢٧٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٣ ص ١٨، تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٥٥ و٢٥٩، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٥٢، الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٢، أسد الغابة ج ٥ ص ٩٠، نهج الحق ص ٢٩٠.

(٤) تاريخ الخميس ج ١ ص ٢٦، تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٩، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٥، المعارف لابن قتيبة ص ٨٤، نهج الحق ص ٢٩٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٩٨، تاريخ الخلفاء.

وعثمان حمى لنفسه عن المسلمين ومنعهم عنه^(١)، ووقع منه أشياء منكرة في حق الصحابة. وضرب ابن مسعود^(٢) حتى مات وأحرق مصحفه، وكان ابن مسعود يطعن في عثمان ويكفره.

وضرب عمّار بن ياسر صاحب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى صار به فتق^(٣).

واستحضر أبا ذرّ من الشام لهوى معاوية وضربه ونفاه إلى الربذة^(٤)، مع أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يقرّب هؤلاء الثلاثة. وعثمان أسقط القود - عن ابن عمر - لما قتل النوار بعد الإسلام. وأراد أن يسقط حد الشراب عن الوليد بن عتبة الفاسق، فاستوفى منه علي - عليه السلام - وخذلته الصحابة حتى قتل ولم يدفن إلا بعد ثلاثة أيام ودفنوه في حشّ كوكب.

وغاب عن المسلمين يوم بدر، ويوم أحد، وعن بيعة الرضوان. وهو كان السبب في أن معاوية حارب علياً - عليه السلام - على الخلافة، ثم آل الأمر إلى أن سبّ بنو أمية علياً - عليه السلام - على المنبر، وسمّوا الحسن، وقتلوا الحسين، وشهّروا أولاد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وذريته في البلاد يطاف بهم على المطايا^(٥)، فآل الأمر إلى الحجّاج

(١) نهج الحق ص ٢٩٤، تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٦٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٩٩، تاريخ الخلفاء ص ١٦٤.

(٢) نهج الحق ص ٢٩٥، أسد الغابة ج ٣ ص ٢٥٩، تاريخ ابن كثير ج ٧ ص ١٦٣، تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٦٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٩٨، وج ٣ ص ٤٠.

(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٧١، الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٣٨، نهج الحق ص ٢٩٦.

(٤) تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ١٦٢، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٥٦، نهج الحق ص ٢٩٨، أنساب الأشراف ج ٥ ص ٥٢، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٩.

(٥) انظر: يتابع المودة ب ٦١ ص ٣٥٠، مقتل الحسين - عليه السلام - للمقرم.

حتى أنه قتل من آل محمد إثني عشر ألفاً، وبنى كثيراً منهم في الحيطان وهم أحياء، وكلّ السبب في هذا أنهم جعلوا الإمامة بالاختيار والإرادة، ولو أنهم اتبعوا النص في ذلك ولم يخالف عمر بن الخطاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في قوله: «أتوني بدواة وكتب أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً»^(١)، لما حصل الخلاف وهذا الضلال.

قال يوحنا: يا علماء الدين هؤلاء الذين يسمّون الرافضة هذا اعتقادهم الذي ذكرنا، وأنتم هذا اعتقادكم الذي قررناه، ودلائلهم هذه التي سمعتموها، ودلائلكم هذه التي نقلتموها.

فبالله عليكم أيّ الفريقين أحقّ بالأمر إن كنتم تعلمون؟

فقالوا بلسان واحد: والله إن الرافضة على الحق، وإنهم المصدّقون على أقوالهم، لكن الأمر جرى على ما جرى فإنّه لم يزل أصحاب الحق مقهورين، واشهد علينا يا يوحنا إنّنا على موالاته آل محمد، ونتبراً من أعدائهم، إلا أنّنا نستدعي منك أن تكتم علينا أمرنا لأنّ الناس على دين ملوكهم.

قال يوحنا: فقامت عنهم وأنا عارف بدليلي، واثق باعتقادي بيقين فله الحمد والمنة، ومن يهد الله فهو المهتد.

فسطرت هذه الرسالة لتكون هداية لمن طلب سبيل النجاة، فمن نظر فيها بعين الإنصاف أرشد إلى الصواب، وكان بذلك مأجوراً، ومن ختم على قلبه ولسانه فلا سبيل إلى هدايته كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢) فإن أكثر المتعصبين ﴿سواء عليهم

(١) تقدمت تخريجاته.

(٢) سورة القصص: الآية ٥٦.

آآلررهم أم لم تُنلرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى
أبصارهم غشاوة وهم عذاب عظيم ﴿١﴾ .

اللهم إنا نحمدك على نعمك الجسم، ونصلي على محمد وآله المطهرين
من الآثام، مدى الأيام، على الدوام إلى يوم القيامة.

إلى هنا ما وقفنا عليه من الكتاب المذكور، والله سبحانه الحمد
والمنة^(٢) .



(١) سورة البقرة: الآية ٦ - ٧ .
(٢) الكشكول للبحراني ج٢ ص٢٨ .

الفصل التاسع

عقائد أهل السنة

- عقائد السلفية
- مرحلة أحمد بن حنبل
- مرحلة ابن تيمية
- مرحلة محمد بن عبد الوهاب
- تهافت الأشاعرة

عقائد أهل السنة

□ ملحة تاريخية :

كان أهل السنة قبل تصدر أحمد بن حنبل منصة الإمامة في مجال العقائد، على فرق متعددة وطوائف مختلفة. بين مرجع يرى أنه لا علاقة بين الإيمان والعمل، فلا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وقدرى ينكر القدر إلى جهمي ينفي كل صفة لله سبحانه وخارجي.. وإلى غير ذلك من الاختلافات الفكرية والعقائدية. حتى جاء أحمد بن حنبل ففضى على سائر المذاهب الدارجة بين أهل الحديث، ووحدهم على أصول اختارها، وادعى أنها عقائد السلف الصالح من الصحابة والتابعين. وفي واقع الحقيقة أن نسبة هذه الأصول والعقائد إلى أحمد أقرب وأصدق من نسبتها إلى الصحابة والتابعين، فلم تكن معروفة، ولا متفقاً عليها قبل ظهور ابن حنبل، والاختلافات العقائدية عند السنة في تاريخهم وإلى الآن كاشفة عن هذا الأمر.

وقد أخذت هذه العقائد الحنبلية في الذبوع والانتشار في أيام المتوكل الذي قرّب أحمد إلى بلاطه وفتح له المجال حتى صار إمام العقائد من غير منازع، واستمر على هذا الحال حتى ظهر أبو الحسن الأشعري في الساحة العقائدية، بعد أن تاب من الاعتزال والتحق بالعقائد الحنبلية، ولكنه لم يكتف بتقليد ابن حنبل فعمل على تغليف وعقلنه عقائده فظهر باعتقادات لم يوافق فيها أحمد كل الموافقة ولم يخالفه، ورغم ذلك فإن مذهبه الجديد أتى له

الانتشار في كافة الأقطار الإسلامية حتى تمكن من سحب البساط من تحت أقدام ابن حنبل في الإمامة العقائدية، فأصبح المذهب الأشعري هو المذهب الرسمي لأهل السنة، يقول المقرئزي بعد أن يشير إلى أصول عقيدة الإمام الأشعري: «هذه جملة من أصول عقيدته التي عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية، والتي من جهر بخلافها أريق دمه»^(١) فتأججت بذلك نار النزاع بين الأشاعرة والحنابلة على طول العصور المختلفة. فكان الحنابلة يتمسكون بروايات التشبيه والتجسيم ويثبتون لله تعالى صفات لا يجوز نسبتها إليه، وكان الأشاعرة يتبرأون من هذه الأمور.

ولكن إذا تجاوزنا المشاكل يمكننا أن نقسم المعتقدات السنية إلى مدرستين هما الأشاعرة والحنابلة، بعد انقراض المعتزلة تقريباً، وسوف نتناول في هذا الفصل نماذج من المدرستين.

مدرسة الحنابلة (السلفية)

وللتحدث عن العقائد السلفية لا بد أن نقسمها إلى ثلاث مراحل

تاريخية وهي:

أ - مرحلة أحمد بن حنبل.

ب - مرحلة ابن تيمية.

ج - مرحلة محمد بن عبد الوهاب.

أولاً: أحمد بن حنبل - منهجه في العقائد -:

إن المرتكز العقائدي في منهجية ابن حنبل والحنابلة هو السماع، أي

الاعتماد على الآيات والأحاديث النبوية في إثبات العقائد، ولا يعطون بذلك الدليل العقلي والبرهان كبير عناية واهتمام.

(١) الخطط المقرئزية ج ٢ ص ٣٩٠.

وهذه المقدمة نفسها تحتاج إلى إثبات، حيث لا يمكن اعتبار أن السماع هو الميزان والمعيار لمعرفة العقائد مجرداً عن العقل، وذلك لأن السماع لا يمكن أن يكون حجة ملزمة إلا إذا آمن الإنسان أولاً بالله سبحانه وتعالى، ثم آمن برسوله صلى الله عليه وآله وسلم وصدق كلماته ثم وثق واطمأن بصدورها منه صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه المراحل الثلاثة إذا لم تتوفر يستحيل عليك أن تلزم إنساناً وتحتج عليه بالآيات والروايات، وإلا يصبح الأمر جدلاً فارغاً يدور في حلقة لا نهاية لها، ومن المعروف عقلاً امتناع إثبات الشيء من نفسه لأنه يستلزم الدور، والدور باطل، وإليك مثلاً لذلك: إن إثبات وجود الله سبحانه وتعالى بآية قرآنية والاحتجاج بها موقوف على الإيمان والتصديق بالآية القرآنية، والإيمان بالآية موقوف على الإيمان بالله تعالى والإيمان بالله تعالى موقوفاً على الإيمان بالآية، وبجذف المتكرر يصبح الإيمان بالآية موقوفاً على الإيمان بالآية... وهذا باطل.

ثم نسأل على أي شيء نزل هذا الوحي؟ أعلى غير الإنسان نزل؟

فإذا نزل على الإنسان: فلماذا خص الله الإنسان بذلك؟

ليس لأن الإنسان يملك تلك الجوهرة الثمينة وهي العقل؟

فإن كانت الإجابة نعم. فأين محل العقل في هذا المعيار؟!

وهذه هي بداية الانحراف في الفكر الحنبلي، حيث لم يعطِ اهتماماً للعقل ولم يدخله في استدلالاته العقائدية مع علمنا بأنه لا يستقيم الدليل إلا إذا وافق العقل.

والاشتباه الذي وقع فيه الحنابلة وغيرهم من الحشوية والأشاعرة هو عدم معرفتهم بالعقل الذي لا يمكن معرفته كما هو إلا عن طريق مدرسة أهل البيت (ع)، إن الحنابلة وغيرهم من الحشوية والأشاعرة يعتقدون أن العقل قد يوافق الشرع وقد يخالفه، وبالأحرى فإنه لا كاشفية للعقل ولا

حجية له، وإن كان في العقل قدر من الحجية فإنما هي مستمدة من الشرع، وما كان هذا الرأي المتطرف إلا ردة فعل عن منهج المعتزلة الذي يعتبر أن حجية العقل ذاتية، وأن الدليل السمعي الذي لا يوافقه العقل لا قيمة له، وقد علمت أن المعتزلة قد أخذوا الناس بالجبر في عهد المأمون والمعتصم والوائق لقبول منهجهم وقد ابتلوا أهل الحديث خاصة بأنواع العذاب مما سبب لهم موقفاً خاصاً من المنهج العقلي، وإلا ما هو دليلهم في العزوف عن العقل وجمودهم على ظواهر النصوص؟! وما حدث من الشد والجذب بين المعتزلة والحنابلة قطع بينهم أسلوب التفاهم للوصول إلى نقاط مشتركة، فحافظ كل كيان على منهجه وتعصب له، ولا يمكن حل هذه المشكلة الجوهرية التي يبني عليها فهم الدين ومعتقداته إلا باكتشاف معيار ثابت يتفق عليه الجميع حتى يكون قاسماً مشتركاً في التفكير والتعامل مع الدين.

ينقل المؤلفان، حنا الفاخوري، وخلييل الحر: «وهناك نوعان من البرهان العقلي الذي لا يستند إلا إلى العقل ومبادئه، والبرهان السمعي الذي يستند إلى القرآن والحديث والإجماع. وفيما نرى المعتزلة لا يعترفون إلا بقيمة الأول، ويعتبرون أن كل برهان سمعي لا يدعمه العقل مردود، يظل المتكلمون وعلى رأسهم الأشاعرة يؤكدون أن البراهين العقلية لا قيمة لها إلا لأن الشرع يأمر بها، وأن العقل لا قيمة له في ذاته بل فيما يستمد منه من الشرع»^(١).

فانظر إلى البون الشاسع في وجهات النظر، فريق لا يعترف بقيمة العقل وحجيته وفريق لا يعترف بقيمة سوى العقل.

وهذا الاختلاف المنهجي هو سبب تفرق المسلمين وتمذهبهم عندما اختلفوا في أسس التفكير، فباختلاف المناهج اختلفت النتائج، فإذا كان هناك

(١) تاريخ الفلسفة العربية ج١ ص١٧٩.

تفكيراً لإعادة وحدة المسلمين لا بد أن يبدأ من توحيد قواعد الفكر وإثبات طرق البرهان، فمثلاً: انظر إلى هذا الاختلاف الذي نتج عن التباين في أسس التفكير، ففي موضوع أفعال العباد، قالت المعتزلة: إن الإنسان خالق لأفعاله، وإلا يكون مخالفاً للعقل على حد زعمهم. فضربت لذلك بكل الروايات التي تخالف هذا المعنى عرض الحائط، وفي الاتجاه المقابل نجد الحنابلة وصلوا إلى نتائج بأن أفعال الإنسان ليست بإرادته، وإنما بإرادة الله، فالإنسان مجبور على أفعاله، وتمسكوا لإثبات ذلك بظواهر الآيات والأحاديث ولم يعطوا للعقل أهمية.

يقول أحمد بن حنبل في رسالته: >... والزنى والسرقعة، وشرب الخمر، وقتل النفس، وأكل المال الحرام، والشرك بالله عز وجل، والذنوب والمعاصي، كلها بقضاء وقدر من الله عز وجل<^(١).

* روايات في ضرورة العقل:

وإذا نظرنا إلى حقيقة الأمر نجد أن كلاً من الأشاعرة والحنابلة والمعتزلة لم يتعرفوا على حقيقة العقل، ولكي نعرف هذه الحقيقة لا بد أن نطلع أولاً على بعض روايات أهل البيت (ع)، لنعرف أهمية العقل ومكانته.

عن أبي جعفر (ع) - الإمام محمد الباقر - قال: لما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك إياك أمر وإياك أنهى، وإياك أئيب وإياك أعاقب<^(٢).

جاء في وصية الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، لهشام بن الحكم، في حديث طويل أحببنا نقله بالكامل لإتمام الفائدة:

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٦٤.

(٢) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ج ١ ص ٨٤.

يا هشام، إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال:
﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله،
وأولئك هم أولوا الألباب﴾ الزمر ١٨.

يا هشام: إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ونصر
النبين بالبيان ودلهم على ربوبيته بالأدلة، فقال: ﴿وإلهم إله واحد لا إله إلا
هو الرحمن الرحيم إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء
فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب
المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ البقرة ١٦٣

يا هشام: قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته لأن لهم مدبراً، فقال:
﴿ويسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في
ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ النحل آية ١٣. وقال: ﴿وهو الذي خلقكم من
تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا
شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون﴾ سورة
غافر ٦٧.

وقال: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق
فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء
والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ الجاثية ٤.

وقال: ﴿يُحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾
الحديد ١٧.

وقال: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يُسقى بماء
واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾
الرعد ٥

وقال: ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ويُنزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ الروم ٢٤.

وقال: ﴿قل تعالوا أتمل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ الأنعام ١٥٢.

وقال: ﴿هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ الروم ٢٨.

يا هشام: ثم وعظ أهل العقل ورغّبهم في الآخرة فقال: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ وهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ الأنعام ٣٢.

يا هشام: ثم خوف الذين لا يعقلون من عقابه فقال تعالى: ﴿ثم دمرنا الآخرين وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وفي الليل أفلا تعقلون﴾ الصفات ١٣٧.

وقال: ﴿إننا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾ العنكبوت ٣٥.

يا هشام: إن العقل مع العلم، فقال: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ العنكبوت ٤٣.

يا هشام: ثم ذم الذين لا يعقلون فقال: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ البقرة ١٧٠.

وقال: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ البقرة ١٧١.

وقال: ﴿ومنهم من يستمع إليك أفانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ يونس ٤١.

وقال: ﴿ألم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ الفرقان ٤٤.

وقال: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ الحشر ١٤.

وقال: ﴿وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ البقرة ٤٤.

يا هشام: ثم ذم الله الكثرة فقال: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ الأنعام ١١٦.

وقال: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ لقمان ٢٥.

وقال: ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ العنكبوت ٦٣.

يا هشام: ثم مدح القلة وقال: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ سبأ ١٣
وقال: ﴿وقليل ما هم﴾ ص ٢٤. وقال: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً يقول أن ربي الله﴾ غافر ٢٨.

وقال: ﴿ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾ هود ٤٠.

وقال: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وقال ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾.

وقال: ﴿أكثرهم لا يشعرون﴾.

يا هشام: ثم ذكر أولي الأبواب بأحسن الذكر وحلّاهم بأحسن الحلية فقال: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾ البقرة ٢٦٩.

وقال: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾ آل عمران ٧.

وقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبواب﴾ آل عمران ١٩٠.

وقال: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الأبواب﴾ الرعد ٢٠.

وقال: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الأبواب﴾ الزمر ٩.

وقال: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الأبواب﴾ ص ٢٩.

وقال: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولوي الأبواب﴾ الذاريات ٥٥.

وقال: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ ق ٣٧.

يا هشام: إن الله تعالى يقول في كتابه ﴿إن في ذلك للذكرى لمن كان له قلب﴾ لقمان ١٢، يعني عقل.

وقال: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ قال الفهم والعقل.

يا هشام: إن لقمان قال لابنه: تواضع للحق تكن أعقل الناس وإن الكيس لذي الحق يسير، يا بني: إن الدنيا بحر عميق، قد غرق فيه عالم كثير

فلتكن سفيتك فيها تقوى الله وحشوها الإيمان وشراعها التوكل، وقيّمها العقل ودليلها العلم وسكانها الصبر.

يا هشام: إن لكل شيء دليلاً، ودليل العقل التفكير، ودليل التفكير الصمت، ولكل شيء مطية ومطية العقل التواضع، وكفى بك جهلاً أن تركب ما نهيت عنه.

يا هشام: ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

يا هشام: إن لله على الناس حجتين، حجة ظاهرة، وحجة باطنة فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الباطنة فالعقول.

يا هشام: إن العاقل الذي لا يُشغِل الحلالُ شكره ولا يُغَلِّب الحرامُ صبره.

يا هشام: من سلط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان هواه على هدم عقله: من أظلم نور تفكره بطول أمله، ومحى طرائف حكمته بفضول كلامه وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه. فكأنما أعان هواه على هدم عقله. ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه.

يا هشام: كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة عقلك.

يا هشام: الصبر على الوحدة علامة قوة العقل، فمن عقل عن الله اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورجب فيما عند الله وكان الله أنيسه في الوحشة وصاحبه في الوحدة وغناه في العيلة ومعزه من غير عشيرة.

يا هشام: نصب الحق لطاعة الله ولا نجاة إلا بالطاعة، والطاعة بالعلم
والعلم بالتعلم والتعلم بالعقل ولا علم إلا من عالم رباني، ومعرفة العلم
بالعقل.

يا هشام: قليل العمل من العالم مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل
الهوى والجهل مردود.

يا هشام: إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة، ولم يرض
بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك رجحت تجارتهم.

يا هشام: إن العقلاء تركوا فضول الدنيا، فكيف الذنوب، وترك الدنيا
من الفضل وترك الذنوب من الفرض.

يا هشام: إن العاقل نظر إلى الدنيا وإلى أهلها فعلم أنها لا تنال إلا
بالمشقة، ونظر إلى الآخرة فعلم أنها لا تنال إلا بالمشقة، فطلب بالمشقة
أبقاهما.

يا هشام: إن العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، لأنهم علموا
أن الدنيا طالبة مطلوبة والآخرة طالبة ومطلوبة. فمن طلب الآخرة، طلبته
الدنيا، حتى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت،
يفسد عليه دنياه وآخرته.

يا هشام: من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد والسلامة
في الدين: فليتضرع إلى الله عز وجل في مسألته بأن يكمل عقله فمن عقل
قنع بما يكفيه ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك
الغنى أبداً.

يا هشام: إن الله حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا:

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة﴾ آل

عمران ٨.

حين علموا أن القلوب تزيغ وتعود إلى عماها ورداها.

إنه لم يخف الله من لم يعقل عن الله، ومن لم يعقل عن الله، لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة ببصرها ويجد حقيقتها في قلبه، ولا يكون أحد كذلك إلا من كان قوله لفعله مصداقاً وسره لعلانيته موافقاً.

لأن الله تبارك اسمه لم يدل على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه.

يا هشام: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما عبد الله بشيء أفضل من العقل، وما تم عقل امرئ حتى يكون فيه خصال شتى: الكفر والشرك منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، وفضل ماله مبذول، وفضل قوله مكفول، ونصيبه من الدنيا القوت، لا يشيع من العلم دهره، الذل أحب إليه مع الله من العز مع غيره، والتواضع أحب إليه من الشرف، استكثر قليل المعروف من غيره واستقل كثير المعروف من نفسه، ورأى الناس كلهم خيراً منه، وأنه شرهم في نفسه وهو تمام الأمر.

يا هشام: إن العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه.

يا هشام: لا دين لمن لا مروءة له، ولا مروءة لمن لا عقل له، وإن أعظم الناس قدراً الذي لا يرى الدنيا لنفسه خطراً، أما إن أبدانكم ليس لها ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها.

يا هشام: إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول:

إن علامة العاقل أن يكون فيه ثلاث خصال: يجيب إذا سُئل، وينطق إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الذي يكون فيه صلاح أهله، فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء فهو أحمق.

إن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لا يجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه هذه الخصال الثلاث أو واحدة منهن، فمن لم يكن فيه شيء منهن فجلس فهو أحمق.

وقال الحسن بن علي عليهما السلام: إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها. قيل يا ابن رسول الله من أهلها؟

قال: الذين قص الله في كتابه ذكرهم، فقال: (إنما يتذكر أولوا الألباب) الزمر ٣٩.

قال: هم أولوا العقول.

وقال علي بن الحسين عليهما السلام: مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح، وآداب العلماء زيادة في العقل، وطاعة ولاة العدل تمام العز، واستثمار المال تمام المروءة، وإرشاد المستشار قضاء لحق النعمة، وكف الأذى من كمال العقل، وفيه راحة البدن عاجلاً وآجلاً.

يا هشام: إن العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعد بما لا يقدر عليه، ولا يرجو ما يعنف برجاءه، ولا يقوم على ما يخاف فوته بالعجز عنه^(١).

وهناك مئات الروايات التي تكشف عن أهمية العقل ومكانته في مدرسة أهل البيت (ع)، والعقل هو ذلك النور الإلهي الذي يكشف به الإنسان حقائق الأشياء وهو بذلك عطاء إلهي، وليس أمراً ذاتياً في الإنسان يتحول معه من القوة إلى الفعل كما ذهب إليه الفلاسفة، الذين عرّفوا العقل بتلك القدرة التي يقدر بها الإنسان على استخراج النظريات من الضروريات كاستحالة اجتماع النقيضين، وأن كل متغير حادث. وعند استخراج النظريات من هذه الضروريات يكون الإنسان قد وصل إلى حد العقل، وهو

(١) المصدر السابق.

مرتبة من مراتب النفس، وعند كمالها تكون عقلاً. فالنتائج تسمى معقولات، بعد إيصالها إلى الضروريات، وإن كان بعشرين واسطة، فخلطوا بين العقل والمعقول، وبين العلم والمعلوم، واشتغلوا بالمعلوم والمعقول فتأهوا عن النور الذي به علموا وعقلوا الأشياء، وهذا هو الضلال البعيد، لأننا نرى بوجودنا أن هذا النور الذي نتعرف به على حقائق الأشياء خارج عن ذواتنا وعن ذوات المعلومات، وإنما هو عطاء إلهي نعلم به أنفسنا ونكشف به حقائق الأشياء، وإلا أين هذا العقل حال الطفولة، ومن المعلوم أنه إذا كان ذاتياً فالذاتي لا ينفصل.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بطن أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ والآية لا تعدو أن تكون تنبيهاً إلى واقع العقل والعلم، وأنهما هما النوران الكاشفان للذات لم يكن أحد منا يملكهما، حينما أخرج من بطن أمه، ثم أصبح الآن يملكهما. فلا بد إذن أن يعترف أنهما من الله. لأنه لو كان من نفسه إذن لكان لديه من الطفولة.

يقول (ص) مؤكداً هذه الحقيقة: «فإذا بلغ المولود حد الرجال أو حد النساء، كُشِفَ ذلك الستر، فيقع في قلب هذا الإنسان نور يفهم الفريضة والسنة، والجيد والرديء. ألا ومثل العقل في القلب كمثل السراج في البيت».

فالعقل إذن نور إلهي معصوم عن الخطأ، والوحي أيضاً نور إلهي معصوم عن الخطأ، فلا اختلاف بينهما. وإنما هم نوران من مشكاة واحدة فقد جعل الله النور الأول في الإنسان، وجعل النور الثاني في القرآن والأحاديث، وكلاهما يكمل الآخر ويصدقه.

وتكون العلاقة بين العقل والوحي علاقة الإثارة، كما قال أمير المؤمنين (ع) واصفاً مهمة الأنبياء: «ليثيروا دفتان العقول» فإذن لا انفصال بين العقل

وبين الوحي طبقاً لمبدأ العقلانية القرآنية القائمة على أصل الذكر، وهو العقل السليم الذي يزكو وينمو ويؤيد ويسدد بالوحي الإلهي، فيكون بذلك المقياس السليم لكشف معارف الدين هو العقل المستبصر ببصائر الوحي. وهذه الحقيقة المخيفة كانت هي السبب في اختلاف المسلمين وتمذهبهم.

فأهل الحديث حمدوا على ظواهر النص، والمعتزلة اعتمدوا التأويل، والأشاعرة حاولوا الجمع بين التأويل والجمود على النصوص، والفلاسفة شقوا لأنفسهم طريقاً مخالفاً لطريق الله، وادعوا الوصول إلى الحقائق عبر الطاقة البشرية. وكلهم لم يصيبوا واقع الحقيقة.

وبما أن حديثنا الآن عن الحنابلة، فإنكارهم للعقل وعدم العمل به لا وجه له، والذي ينظر إلى كتب الحنابلة يجد تلك العقائد المتناقضة أو التي تخالف عقل الإنسان وفطرته، فيؤمنون بالروايات التي تثبت التشبيه والتجسيم لله سبحانه وتعالى، فترى عقائدهم لا تختلف عن عقائد اليهودية والنصرانية والمجوسية بكثير، فظهرت بينهم مذاهب التجسيم والتشبيه والرؤية والجبر.. وغير ذلك من معتقدات أهل الكتاب.

وهذا كله يرجع لتعاملهم التعسفي مع الأحاديث التي لم يدققوا في مدلولاتها أو لم ينظروا إلى أسانيدها، ومن غير عرضها على القرآن والعقل، بل آمنوا بها مطلقاً.

:«فبلغ بهم التقليد إلى حد أن صاروا يأخذون بظواهر كل ما رواه الرواه من الأخبار والآثار الموقوفة والمرفوعة والموضوعة والمصنوعة، وإن كانت شاذة أو منكرة أو غريبة أو من الإسرائيلية مثل ما روي عن كعب

وهب و... أو معارضة بالقطيعات التي تُعد من نصوص الشرع ومدركات
الحس ويقينيات العقل، ويكفرون من أنكرها ويفسقون من خالفها...»^(١).
وإذا كان التعامل مع الأحاديث بهذه الصورة، فلا محال أن تكون
العقائد الإسلامية أسيرة آلاف من الأحاديث الموضوعية والإسرائيليات التي
قام اليهود بدسها في المعتقدات الإسلامية.

وادعاء الخنابلة تمسكهم بالكتاب والسنة، ورمي غيرهم بالضلال
والكفر ادعاء فارغ لا دليل عليه، فالكل يعترف بحجية السنة والعمل بها
ولكن الفرق هو أن الخنابلة يؤمنون بكل ما روي عن رسول الله من غير
توثيق ومن غير فهم أو وعي في مدلولاته، كما قال الزمخشري:

إن قلت من أهل الحديث قالوا تيس ليس يدري ويفهم
وقال رسول الله (ص): «من كذَّب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من
النار» إشارة صريحة بأن أعداء الدين سوف ينسبون إلى الرسول وإلى الإسلام
كل ما يشينه ويحرف عقائده، فلذلك لا بد أن تخضع دراسة الحديث إلى
الأساليب العلمية والمنطقية، وليس كما فعلت الخنابلة يؤمنون بكل ما وجد
في بطون الكتب من أحاديث معقولة أو غير معقولة، موافقة للقرآن أو غير
موافقة.

يقول ابن حنبل في رسالته: «فنروي الحديث كما جاء على ما روي،
نصدق به ونعلم أنه كما جاء»^(٢).

: «قال: وأخبرني علي بن عيسى أن حنبلياً حدثهم قال: سألت أبا
عبد الله عن الأحاديث التي تروي إن الله تبارك وتعالى ينزل كل ليلة إلى

(١) من كلام السيد رشيد رضا - تلميذ محمد عبده - كتاب أضواء على السنة المحمدية لمحمود
أبو رية ص ٢٣.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٦٥.

سماء الدنيا) لو أن الله يُرى) لو أن الله يضع قدمه) وما أشبه هذه الأحاديث فقال أبو عبد الله: نؤمن بها ونصدق بها ولا كيف ولا معنى. أي لا نكيفها ولا نحرفها بالتأويل. فنقول معناها كذا، ولا نرد منها شيئاً^(١).

هذه هي منهجيتهم مع الأحاديث، لا يردون منها شيئاً ويصدقون بكل شيء، وما يتذرعون به من تبريرات واهية، تُضحك الثكلى، لأن إثبات هذه الأحاديث هو عين إثبات التجسيم والتشبيه، وقد تطرف بعضهم من الحشوية، وأثبت فعلاً الجسمية لله سبحانه وتعالى.

قال الشهرستاني: «أما مشبهة الحشوية فقد أجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة، وأن المسلمين المخلصين يعانقونه سبحانه في الدنيا والآخرة إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد إلى حد الإخلاص»^(٢).

نماذج من أحاديث التجسيم:

وإليك مجموعة من الروايات كنموذج وليس للحصر، وقد اخترتها من كتاب السنة الذي رواه عبد الله من أبيه أحمد بن حنبل وكتاب التوحيد لابن خزيمة.

١ - روى عبد الله بن أحمد بإسناده قال: قال رسول الله (ص): «ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره قال: قلت: يا رسول الله أويضحك الرب؟ قال: نعم. قلت: لم نعدم من رب يضحك خيراً»^(٣) وغيرها من الروايات التي تثبت الضحك لله سبحانه وتعالى.

٢ - «قال عبد الله: قرأت على أبي.. ثم ذكر الإسناد إلى سعيد بن جبير: أنهم يقولون: إن الأرواح من ياقوته، لا أدري أقال حمراء أم لا؟ وأنا

(١) في عقائد الإسلام - من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٥٥.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٠٥.

(٣) كتاب السنة ص ٥٤.

أقول سعيد بن جبير يقول: إنها كانت من زمردة وكتابتها الذهب وكتبها الرحمن بيده ويسمع أهل السموات صرير القلم^(١).

٣ - قال: حدثني أبي... بإسناده عن أبي عطاء قال: «كتب الله التوراة لموسى بيده وهو مسند ظهره إلى الصخرة في الألواح من در، يسمع صريف القلم ليس بينه وبينه إلا الحجاب»^(٢).

فهل تفهم من هذه الروايات غير التجسيم المحض والتشبيه الظاهر، كذب من يؤمن بهذه الأحاديث ولا يتخيل ربه ويتصوره بل هم يتصورونه ويتوهمونه.

وقد حدث يوماً نقاش بين أخي وأحد مشايخ الوهابية - الذين هم الامتداد الطبيعي لعقائد الخنابلة - وكان النقاش يدور حول الصفات الإلهية، فينزه أخي الله عن هذه الصفات، ويثبت له بكل الطرق فساد تلك المعتقدات، ولكن من غير جدوى، وأخيراً وجه له أخي سؤالاً قائلاً:

إذا أثبت له سبحانه هذه الصفات من مكان وجهه، ويدين ورجلين وعينين.. وإلى آخر ما يصفون به ربهم ألا يمكن أن يتصوره الإنسان ويتخيله؟ بل حتماً يتخيله لأن نفس الإنسان مجبولة على التصور والتخيل بعد الوصف، فكان جوابه مفصلاً عن تمام عقيدته في التجسيم والتصوير، قال: تخيله وتصوره ولكن لا تخبر به...!!

فقال له أخي: ما هو الفرق بين أن تضع أمامك صنماً وتعبده، وبين أن تتخيل صنماً وتعبده؟

فقال: هذا كلام الروافض قبحهم الله، يؤمنون بالله ولا يصفونه بهذه الصفات، فهم يعبدون رباً غير موجود.

(١) كتاب السنة ص ٧٦.

(٢) المصدر السابق.

قال له أحيي: إن الله الحق هو الذي لا تحيط به العقول ولا تدركه
الأبصار لا يؤمن بأين ولا يكيف بكيف، ولا يقال له لما وكيف لأنه هو
الذي أين الأين وكيف الكيف، فكل ما لا تتصوره هو الله، وكل ما يتصور
هو مخلوق، فقد تعلمنا من أئمة أهل البيت عليهم السلام قولهم: «كلُّ ما
تصورتموه في أدق معانيه فهو مخلوق مثلكم، مردود عليكم» فتمام معرفة الله
هو بالعجز عن معرفته.

فقال غاضباً: نحن نثبت ما أثبتته الله لنفسه وكفى.

ثم انظر كيف أثبتوا الله سبحانه أصبعاً، قاتلهم الله، ثم يثبتون من
الأصابع الخنصر ومن الخنصر - والعياذ بالله - المفصل، كما ذكر ابن خزيمة
في كتاب التوحيد، قال بإسناده عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله
(ص): لما تجلّى ربه للجبل رفع خنصره وقبض على مفصل منها فانساخ
الجبل، فقال له حميد: أتحدث بهذا؟ فقال: حدثنا أنس عن النبي (ص) وتقول
لا تحدث به؟^(١).

وروى ابن حنبل عن أبيه مثل هذا الخبر بإسناده عن أنس، عن النبي
(ص): «فلما تجلّى ربه للجبل قال هكذا.. وأشار بطرف الخنصر يحكيه»^(٢).

ماذا تفهم من هذا أيها القارئ اللبيب؟

أثبتوا لله يداً ولليد أصبعاً، ومن الأصابع الخنصر، ثم قالوا للخنصر
مفصل...!!! وقف عند ذلك حتى تكمل لك الصورة.

فقد أثبتوا أن لله ذراعين وصدراً، قال عبد الله حدثني أبي.. وذكر
الإسناد عن عبد الله بن عمرو قال: «خلقت الملائكة من نور الذراعين
والصدر»^(٣).

(١) كتاب التوحيد ص ١١٣.

(٢) كتاب السنة ص ٦٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٩٠.

وقال بإسناده عن أبي هريرة عن رسول الله (ص) بن الكافر اثنان وسبعون ذراعاً بذراع الجبار، وضرسه مثل ذلك ويفهم أيضاً من هذا الحديث بالإضافة إلى الذراعين لهما طول محدد، وإلا لا يمكن أن يكونا مقياساً للصور ولم يقفوا عند هذا الحد بل جعلوا لله رجلاً.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ص): «يُلقي في النار فتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه أو رجله عليها فتقول: قط قط»^(٢).

وروى ابن خزيمة عن أبي هريرة عن رسول الله (ص) قال: «وإذا ما النار فلا تمتلي حتى يضع الله رجله فيها، فتقول قط قط، فهنالك تمتلي»^(٣).

وبعد ذلك تعال معي أيها القارئ الكريم لكي ترى أنهم تجاوزوا ذلك وأثبتوا لله نفساً، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده إلى أبي بن كعب قال: «لا تسبوا الرياح فإنها من نفس الرحمن»^(٤).

فماذا تبقى حتى تكتمل الصورة، وخاصة بعدما أثبتوا له وجه. هل الكلام والصوت!؟

قد أثبتوه بل شبهوه بصوت الحديد.

قال عبد الله بن أحمد بسنده: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كصلصلة الحديد على الصفا»^(٥).

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٤

(٣) المصدر السابق ص ١٨٤.

(٤) السنة ص ١٩٠.

(٥) السنة ص ٧١.

ثم أثبتوا لله ثقلاً ووزناً ولذلك يسمع للكرسي صوت أطيظ إذا جلس عليه، وإذا لم يكن له وزن فما معنى الأطيظ؟

روى عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن عمر قال: «إذا جلس على الكرسي سمع له أطيظ كأطيظ الرحل الجديد»^(١) أي كصوت سرج الناقة بالراكب الثقيل.

وقال بإسناده إلى عبد الله بن خليفة قال: «جاءت امرأة إلى النبي (ص) فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، قال: فعظم الرب، وقال: وسع كرسيه السموات والأرض، إنه ليقعد عليه فما يفضل منه إلا قيد أربع أصابع وإن له أطيظاً كأطيظ الرحل إذا رُكب»^(٢).

وزاد بن خزيمة: «من ثقله»^(٣).

وتكتمل الصورة الدرامية بذلك فيكون الله إنساناً له من الصفات مالاإنسان من جسمية ومحدودية وأعضاء وتراكيب، وهذا هو الظاهر وإن تنكروا عليه بل صرحوا بأكثر من ذلك:

جاء في الحديث خلق الله آدم على صورته طوله سبعون ذراعاً.

ويثبتون له إمكانية الرؤية والنظر إليه، كما روى ابن خزيمة بإسناده إلى ابن عباس أن النبي (ص) قال: «رايت ربي في أحسن صورته، فقال: يا محمد، قلتُ: لبيك وسعديك، قال: فيما يختصم الملاء الأعلى؟ قلتُ: يا رب لا أدري، قال: فوضع يده بين كتفيّ، فوجدتُ بردها بين ثديي، فعلمت ما بين المشرق والمغرب»^(٤).

(١) السنة ص ٧٩.

(٢) السنة ص ٨٠.

(٣) التوحيد ص ١٠٦.

(٤) التوحيد ص ٢١٧.

وقال بإسناده... إن عبد الله بن عمر بن الخطاب بعث إلى عبد الله بن عباس يسأله: هل رأى محمد (ص) ربه؟ فأرسل إليه عبد الله بن عباس: أن نعم. فرد عليه عبد الله بن عمر رسوله عن كيف رآه؟ قال: فأرسل أنه رآه في روضة خضراء دون فراش من ذهب على كرسي من ذهب يحمله أربعة من الملائكة. ملك في صورة رجل وملك في صورة ثور وملك في صورة نسر وملك في صورة أسد^(١).

وهذا غيظ من فيض، ونكتفي بهذا القدر من عقائد الخنابلة ومن لف لفهم، في صفات الله سبحانه وتعالى، وتجاوزنا بقية معتقداتهم الأخرى، وما ذكرناه كاف لفضح عقائدهم.

وعندما رأى بعض الخنابلة قبيح ما صنعوا حاولوا أن يبرروا ذلك ويتذرعوا بقولهم: بلا كيف.

وقد اعتمد الأشعري هذا التبرير، فيقول في كتابه الإبانة ص ١٨: «إن لله سبحانه وجهاً بلا كيف، كما قال: (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وإن له يدين بلا كيف، كما قال (خلقت بيدي)...»

وقد صدق فيهم قول الشاعر:

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفه^(٢)

ومن الواضح، لكل صاحب عقل سليم أن هذا التبرير لا يغير في وجه القضية لأن الجهل بالكيفية لا يفيد شيئاً، ولا يرجع إلى معنى صحيح وهو أقرب إلى الإبهام والإلغاز، لأن إثبات هذه الألفاظ بمعانيها الحقيقية هو عين إثبات الكيفية لها، لأن الألفاظ قائمة بنفس كيفيتها، وإجراء هذه الصفات

(١) التوحيد ص ١٩٨.

(٢) أي بلا كيف.

بمعانيها المتعارفة هو عين التجسيم والتشبيه، والاعتذار بقولهم: بلا كيف لا يتعدى أن يكون لقلقة لسان.

وأذكر يوماً كنت اناقش أحد أساتذتي في الجامعة حول استواء الله على العرش، وعندما ضاق بي ذرعاً قال: نحن نقول ما قاله السلف: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة».

قلت له: لم تزد في الأمر إلا إبهاماً، وفسرت الماء بعد الجهد بالماء.
قال: كيف - وقد احتد النقاش -

قلت: إذا كان الاستواء معلوماً، فالكيف أيضاً معلوم.

وإذا كان الكيف مجهولاً، فكذلك الاستواء مجهول ولا ينفصل عنه، فالعلم بالاستواء هو عين العلم بالكيفية، والعقل لا يفرق بين وصف الشيء وبين كيفيته، لأنهما شيء واحد.

فإذا قلت فلان جالس، فعلمك بجلوسه هو علمك بكيفيته فأنت عندما تقول الاستواء معلوم فنفس العلم بالاستواء هو العلم بالكيفية وإلا يكون في كلامك تناقض، بل هو التناقض بذاته. فتكون عالماً بالاستواء وفي نفس الوقت غير عالم بالكيفية.

... فسكت مدة ولم يحر جواباً، ثم اعتذر أنه على عجل واستأذن وذهب. فكل ما يقولونه من عدم الكيف مع إجراء المعاني الحقيقية للألفاظ هو تناقض وتهافت، وكذلك قولهم أن الله يداً حقيقية، لكن لا كالأيدي كلام ينقض آخره أوله والعكس، لأن اليد بالمعنى الحقيقية لها تلك الكيفية المعلومة، ونفي الكيفية منها هو حذف لحقيقتها.

وإذا كانت هذه الألفاظ الجوفاء تكفي لإثبات التنزيه لله عز وجل فيمكن أن يقال، إن الله جسماً بلا كيف ولا كأجسام وله دم بلا كيف ولحم وشعر.. بلا كيف.

حتى قال أحد المشبهة: «إنما استحيت عن إثبات الفرج واللحية
واعفوني عنهما وأسألوا عما وراء ذلك»^(١).

ولا يفهم من ذلك أننا نؤمن بالتأويل في مثل هذه الآيات فلا يجوز
تأويل ظواهر الكتاب والسنة بحجة أنها تخالف العقل بل ليس في القرآن
والسنة ما يخالف العقل، وما يتبادر من الظاهر أنه مخالف للعقل، ليس بظاهر
وإنما يتخيلونه ظاهراً.

وفي مثل هذه الآيات لا يحتاج الأمر إلى تأويل، لأن اللغة تنقسم في
دلالاتها المعنوية إلى قسمين:

١ - دلالة إفرادية.

٢ - دلالة تركيبية.

فقد يختلف المعنى الإفرادي عن المعنى التركيبي إذا كان هناك قرينة
تصرفه إلى ذلك، ويكون موافقاً إذا لم توجد قرينة تصرفه عن المعنى
الإفرادي فمثلاً: عندما نقول: أسد - وهو مفرد - يتبادر إلى الذهن ذلك
الحيوان المفترس الذي يعيش في الغابة، ويفهم أيضاً نفس هذا المعنى في حالة
التركيب إذا لم تكن هناك قرينة مثل قولك: رأيت أسداً يأكل فريسته في
الغابة.

ويتغير هذا المعنى تماماً إذا قلنا في الجملة التركيبية:

رأيت أسداً يقود سيارة

فيكون المقصود منه ذلك الرجل الشجاع، وهذا ديدن العرب في فهم
الكلام فعندما يقول الشاعر:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة

فتخاءً تنفر من صفيير الصافر

(١) الشهرستاني ج ١ ص ١٠٥.

فلا يمكن أن نفهم منه إلا ذلك الرجل الذي يتظاهر بالشجاعة أمام الضعفاء ويفر جنباً إذا لاقى الأعداء.

والذي يفهم هذا الكلام لا يمكن أن نسميه مؤولاً للنص خارجاً عن ظاهر الكلام.

وهكذا الحال في مثل هذه الآيات، فعندما يقول تعالى مثلاً ﴿هد الله فوق أيديهم﴾ فيكون معنى اليد القدرة من غير تأويل، كالذي يقول: «البلد في يد السلطان» أي تحت تصرفه وإدارته، ويصح هذا القول وإن كان سلطاناً مقطوع اليد وكذلك في بقية الآيات. ثبت المعنى التركيبي الذي يظهر من خلال بقية السياق ولا نحمد على المعنى الحر في الفردي من غير تأويل أو تحريف، وهذا هو العمل بالظواهر ولكن الظواهر التي تظهر من بقية السياق. وهؤلاء الحنابلة يضلون العامة بالظواهر الفردية دون الإجمالية التركيبية.

وبهذه الطريقة تكون ظواهر الكتاب والسنة حجة لا يجوز العدول عنها ولا يجوز لأحد تأويلها، بعد إمعان النظر في القرائن المتصلة والمنفصلة، والذي يحتج بالظواهر الفردية الحرفية فقد ضل وغفل عن كلام العرب.

وقبل أن نودع أحمد بن حنبل وعقائده، أحيينا أن نطلع القارئ الكريم على كلمات أهل البيت وأحاديثهم في صفات الله، لكي تعرف أن هذا النور الذي يصدر من كلماتهم هو من مشكاة القرآن الكريم، وأن عظيم المسألة التي تعرض لها الفكر الإسلامي هي نتاج طبيعي لابتعادنا عن هذه الكلمات وأئمة أهل البيت، وصدق الإمام الصادق (ع) عندما قال: «لو عرف الناس محاسن كلامنا لأتبعونا»

وأنقل إليك هذه الكلمات من كتاب التوحيد للشيخ الصدوق، وهو كتاب ضخمة حوى جواهر كلمات أهل البيت في باب التوحيد، وأطلب من القارئ الكريم أن يتدبر في هذه الكلمات بعين البصيرة والفهم، ثم يقارن بينها وبين ما جاء في كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، أو أي كتاب عند أهل السنة جمعت فيه أحاديث التوحيد وصفات الله سبحانه وتعالى.



خطبة رسول الله (ص)

«الحمد لله الذي كان في أوليته وحدانياً، وفي أزليته متعظماً بالإلهية، متكبراً بكبريائه وجبروته، ابتداءً ما ابتدع، وأنشأ ما خلق على غير مثال كان سبق بشي مما خلق، ربنا القديم بلطف ربوبيته ويعلم خبره فتق وبأحكام قدرته خلق جميع ما خلق، وبنور الإصباح فلق، فلا مبدل لخلقه، ولا مغير لصنعه، ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، ولا مستراح عن دعوته ولا زوال لملكه ولا انقطاع لمدته، وهو الكينون أولاً والديموم أبداً، المحتجب بنوره دون خلقه في الأفق الطامح، والعزّ الشامخ والمُلك الباذخ، فوق كل شيءٍ علا، ومن كل شيءٍ دنا، فتجلى لخلقه من غير أن يكون يُرى. وهو بالمنظر الأعلى فأحب الاختصاص بالتوحيد إذ احتجب بنوره، وسما في علوه، واستتر عن خلقه، وبعث إليهم الرسل لتكون له الحجة البالغة على خلقه ويكون رسله إليهم شهداء عليهم، وابتعث فيهم النبيين مبشرين ومُنذرين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيا عن بينة، وليعقل العباد عن ربهم ما جهلوه فيعرفوه بربوبيته بعدما أنكروا، ويوحده بالإلهية بعدما عضدوا»^(١).

(١) التوحيد للشيخ الصدوق ص ٤٤ الحديث رقم ٤.

حديث الرضا (ع)

عن الفتح بن يزيد الجرجاني قال: لقيته عليه السلام على الطريق عند مُنصرَفِي من مكة إلى خراسان وهو سائرٌ إلى العراق فسمعتَه يقول: من اتقى الله يُتقى، ومن أطاع الله يُطاع.

فتلطفت في الوصول إليه فوصلت فسَلِّمت فردَّ عليَّ السلام ثم قال: يا فتحُ من أرضي الخالق لم يُيال بسخط المخلوق، ومن أسخط الخالق فقَمِينٌ أن يسلط عليه سخط المخلوق، وإن الخالق لا يوصفُ إلا بما وصَفَ به نفسه، وأنى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحده، والأبصار عن الإحاطة به؟ جلَّ عما وصفه الواصفون، وتعالى عما ينعته الناعتون، نأى في قربه، وقرب في نأيه، فهو في بعده قريب، وفي قربه بعيد، كيف الكيف فلا يقال له: كيف وأين الأين فلا يقال له: أين. إذ هو مبدع الكيفوية والأينونية. يا فتح كل جسم مُغذَى بغذاء إلا الخالق الرزاق، فإنه جَسَمَ الأجسام، وهو ليس بجسم ولا صورة، لم يتجزأ، ولم يتناه، ولم يتزايد، ولم يتناقص، مُبرءٌ من ذات ما ركَّب في ذات من جَسَمَه، وهو اللطيف الخبير السميع البصير، الواحد الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، مُنشئ الأشياء ومُجسِّم الأجسام، ومُصور الصور، لو كان كما يقول المشبهة لم يعرف الخالق من المخلوق، ولا الرازق من المرزوق، ولا المنشئ من المنشأ، لكنه المنشئ، فرق بين من جَسَمَه وصوَّره وشيَّاه وبينه إذ كان لا يشبهه شيء.

قلتُ: فالله واحدٌ والإنسان واحدٌ، فليس قد تشابهت الوجدانية؟ فقال: أَحَلَّتْ ثَبَتَكَ اللهُ إِنَّمَا التَّشْبِيهِ فِي الْمَعْنَى فَأَمَّا فِي الْأَسْمَاءِ فَهِيَ وَاحِدَةٌ وَهِيَ دَلَالَةٌ عَلَى الْمُسَمَّى، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ قِيلَ وَاحِدٌ فَإِنَّهُ يُخْبِرُ أَنَّهُ جِثَّةٌ وَاحِدَةٌ وَلَيْسَ بَاثْنَيْنِ، وَالْإِنْسَانَ نَفْسَهُ لَيْسَ بِوَاحِدٍ، لِأَنَّ أَعْضَاءَهُ مُخْتَلِفَةٌ وَأَلْوَانُهُ مُخْتَلِفَةٌ غَيْرَ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ أَجْزَاءٌ مُجْزَأَةٌ لَيْسَ سَوَاءً دَمُهُ غَيْرَ لَحْمِهِ، وَلَحْمُهُ غَيْرَ دَمِهِ، وَعَصَبُهُ غَيْرَ عُرْوَقِهِ، وَشَعْرُهُ غَيْرَ بَشَرِهِ، وَسَوَادُهُ غَيْرَ بَيَاضِهِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ جَمِيعِ الْخَلْقِ، فَالْإِنْسَانَ وَاحِدٌ فِي الْأِسْمِ، لَا وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَى وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَاحِدٌ لَا وَاحِدَ غَيْرِهِ، وَلَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَفَاوُتَ وَلَا زِيَادَةَ وَلَا نَقْصَانَ، فَأَمَّا الْإِنْسَانَ الْمَخْلُوقَ الْمَصْنُوعَ الْمُؤَلَّفَ فَمِنْ أَجْزَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ وَجَوَاهِرٍ شَتَّى غَيْرِ أَنَّهُ بِالْاجْتِمَاعِ شَيْءٌ وَاحِدٌ..

قلتُ: فَرَجَّتْ عَنِّي فَرَجَ اللهُ عَنكَ، غَيْرَ أَنَّكَ قُلْتَ: السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، سَمِيعٌ بِالْأُذُنِ وَبَصِيرٌ بِالْعَيْنِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ يَسْمَعُ بِمَا يُبْصِرُ، وَيَرَى بِمَا يَسْمَعُ، بَصِيرٌ لَا بَعِينَ مِثْلَ عَيْنِ الْمَخْلُوقِينَ، وَسَمِيعٌ لَا بِمِثْلِ سَمْعِ السَّامِعِينَ، لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَثَرِ الذَّرَّةِ السُّودَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ تَحْتَ الثَّرَى وَالْبَحَارِ قُلْنَا: بَصِيرٌ، لَا بِمِثْلِ عَيْنِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَمَّا لَمْ يَشْتَبِهْ عَلَيْهِ ضُرُوبُ اللُّغَاتِ وَلَمْ يَشْغَلْهُ سَمْعٌ عَنِ سَمْعِ قُلْنَا: سَمِيعٌ، لَا بِمِثْلِ سَمْعِ السَّامِعِينَ...^(١)

(١) المصدر السابق ص ٦١.

خطبة أمير المؤمنين (ع)

الحمد لله الذي لا من شيء كان، ولا من شيء كَوَّنَ ما قد كان،
مُستشهدٍ بحدوث الأشياء على أزليته وبما وَسَمَهَا به من العجز على قدرته،
وبما اضطرَّها إليه من الفناء على دوامه، لم يخلُ منه مكان فيُدرك بأينيَّة، ولا
له شبهٌ مثالٌ فيوصف بكيفيةٍ ولم يَغِبْ عن علمه شيءٌ فيعلم بجيِّثَةٍ، مُبائنٌ
لجميع ما أحدث في الصفات، وممتنعٌ عن الإدراك بما ابتدع من تصريف
الذوات وخارج بالكبرياء والعظمة من جميع تصرف الحالات، مُحَرَّمٌ على
بوارع ثاقبات الفِطن تحديدهُ وعلى عوامق ناقبات الفكر تكيفه، وعلى
غواص سابعات الفطر تصويره لا تحويه الأماكن لعظمته، ولا تدرعه المقادير
لجلالته، ولا تقطعه المقائيس لكبريائه، ممتنعٌ عن الأوهام أن تكتنِبهه، وعن
الأفهام أن تستغرقه وعن الأذهان أن تُمثله، قد يئست من استنباط الإحاطة
به طوامح العقول، ونضبت عن الإشارة إليه بالاكتناه بحار العلوم، ورجعت
بالصغر عن السمو إلى وصف قدرته لطائف الخصوم، وأحدًا لا من عددٍ،
ودائمٌ لا بأمدي، وقائمٌ لا بعمدي، ليس بجنس فتعادلُه الأجناس، ولا بشبحٍ
فتضارعه الأشباح، ولا كالأشياء فتقع عليه الصفات، قد ضلَّتِ العقول في
أمواج تيار إدراكه، وتحوَّرت الأوهام عن إحاطة ذكر أزليته، وحصرت
الأفهام عن استشعار وصف قدرته، وغرقت الأذهان في لجج أفلاك ملكوته،
مقتدرٌ بالألاء وممتنعٌ بالكبرياء، ومتملكٌ على الأشياء فلا دهر يُخلِّقه ولا

وصف يحيطُ به، قد خضعت له ثوابت الصعاب في محل تخوم قرارها،
وأذعنت له رواصن الأشباب في منتهى شواحق أقطارها مُستشهدً بكلية
الأجناس على ربوبيته وبعجزها على قدرته، وبفطورها على قدمته، وبزوالها
على بقاءه، فلا لها محيصٌ عن إدراكه إياها، ولا خروجٌ من إحاطته بها، ولا
احتجابٌ عن إحصائه لها ولا امتناع من قدرته عليها، كفى بإتقان الصنع لها
آيةً، وبمركب الطبع عليها دلالةً ومجدوثِ الفطرِ عليها قِدْمَةً وبإحكام الصنعةِ
لها عبرةً، فلا إليه حدٌ منسوبٌ، ولا له مثلٌ مضروبٌ، ولا شيءٌ عنه
محجوبٌ، تعالى عن ضرب الأمثال والصفات المخلوقة علواً كبيراً.



ثانياً : مرحلة ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم:

بعد انتشار العقائد الأشعرية، التي عمت معظم البلدان الإسلامية، حتى أصبحت المذهب الرسمي في الأصول لجمهور المسلمين، قل ذكر ابن حنبل وتحجم مذهبه العقائدي، حتى ظهر ابن تيمية الذي ولد سنة ٦٦١هـ في بيت المشيخة الحنبلية وفي واحد من أهم معاقل الحنابلة في مدينة حران، نشأ في هذه الأسرة وتلمذ على يد والده الذي أفرد له كرسيًا في دمشق بعد هجرته إليها، ودرس على آخرين علوم الحديث والرجال واللغة والتفسير والفقه والأصول، وبعد وفاة والده ترأس ابن تيمية حلقة التدريس، وكانت هذه فرصته ليعيد لعقائد الحنابلة أمجادها، فاستغل هذا المنبر في التكلم في صفات الله، ذاكراً براهين تناصر عقيدة القائلين بالتجسيم، وظهر هذا الأمر واضحاً عندما أجاب على أسئلة حماه عندما كتبوا إليه يسألونه عن آيات الصفات مثل قوله ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وقوله ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ ومثل قوله (ص): «إن قلب ابن آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن» فأجابهم برسالة طويلة، سُميت بالعقيدة الحموية، كشف فيها عن اعتقاده بالتجسيم والتشبيه، من غير أن يفصح بذلك، تستراً بالفاظ وكلمات لو رفعت لظهر واقع الأمر، فأحدثت هذه الرسالة ضجة في أوساط العلماء، وأنكروا عليه ذلك، فاحتفى بأمير دمشق الذي انتصر له، وينقل ابن كثير في ذلك: «كان وقع في دمشق محنة للشيخ تقي الدين ابن تيمية، وقام عليه جماعة من الفقهاء، وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدين الحنفي فلم يحضر، فنودي في البلد في العقيدة التي كان قد سأله عنها أهل حماه المسماة بـ (الحموية)،

فانتصر له الأمير سيف الدين جاعان، وأرسل يطلب الذين قاموا عليه، فاختمنى كثير منهم، وضرب جماعة ممن نادى على العقيدة فسكت الباقون»^(١).

وهكذا سكت العلماء عن العقائد المنحرفة بقوة السلطان، فوجد ابن تيمية مجاله ليتحدث كيف يشاء، وقد نقل لنا شاهد عيان اعتقاد ابن تيمية في الله، وهو ذلك الرحالة الشهير ابن بطوطة، فصادف أن حضر يوماً درس ابن تيمية في المسجد الأموي، قال: وكنت إذ ذاك بدمشق فحضرت يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع، ويذكرهم فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من المنبر. فعارضه فقيه مالكي، يُعرف بابن الزهراء وأنكر عليه ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته وظهر على رأسه شاشية حرير، فأنكروا عليه لباسها واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضي الحنابلة، فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك^(٢).

وذكر هذه المقولة لابن تيمية ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة ج ١ ص ١٥٤ ويظهر لك جلياً من ذلك تعصبه الشديد للمثبتين للصفات حتى وصل به الحد أن يتشبه بالله سبحانه، وهذا هو الكفر والزندقة بعينه.

وقد تستر على هذه العقائد بقوله أنها عقائد السلف وما جرى عليه أمر المسلمين، فيفتري على السلف ويتستر بهم ليوارى سوء عقيدته، مع العلم أن غطاء السلف قد حاول الحنابلة من قبل التلحف به، ولكن من غير جدوى لكثرة المذاهب العقائدية التي كانت قبل أحمد وبعده، وهذه

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥ - ٤، أحداث سنة ٦٩٨هـ.

(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٩٥.

الاختلافات تؤكد على عدم وحدة المسلمين على عقيدة واحدة، وكل من المذاهب يدعي وصلاً بليلى، وليلى لا تقر لهم بذلك.

ويكذب الشهرستاني ادعاء ابن تيمية لمذهب السلف كما ذكر في الملل والنحل: «ثم إن جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف فقالوا: هذه الآيات لا بد من إجرائها على ظاهرها، والقول بتفسيرها كما وردت من غير تعرض للتأويل ولا توقف في الظاهر - كما فعل ابن تيمية - فوقعوا في التشبيه الصرف، وذلك على خلاف ما اعتقده السلف. ولقد كان التشبيه صرفاً خالصاً في اليهود لا في كلهم، بل لعلها القراء أو القرائين منهم، إذ وجدوا في التوراة ألفاظاً كثيرة تدل على ذلك»^(١).

وقد خدع ابن تيمية العامة بإطلاقاته الكثيرة مثل قوله: «أما الذي أقوله الآن وأكتبه، وإن كنت لم أكتبه فيما تقدم من أجوبتي، وإنما أقوله في كثير من المجالس: إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات، فليس عن الصحابة اختلاف في تأويله، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفت على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير، فلم أجد إلى ساعتى هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف»^(٢).

وبهذا الإطلاق يصدّق العوام مقالته، وبقليل من المراجعة في كتب التفاسير المأثورة يظهر لنا كذب ابن تيمية، إما في عدم مراجعته للتفاسير، أو في الادعاء بعدم وجود تأويل في آيات الصفات من الصحابة، وأكتفي لك بالشواهد:

(١) الملل والنحل ص ٨٤.

(٢) تفسير سورة النور، ابن تيمية ص ١٧٨ - ١٧٩.

إذا راجعنا تفسير الطبري، والذي يصفه ابن تيمية بقوله: ليس فيه بدعة، ولا يروي عن متهمين^(١).

وعندما نراجع فيه آية الكرسي التي اعتبرها ابن تيمية من أعظم آيات الصفات، كما في الفتاوي الكبيرة ج ٦ ص ٣٢٢.

يورد الطبري روايتين بالإسناد إلى ابن عباس، في تفسير قوله تعالى ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾.

قال: اختلف أهل التأويل في معنى الكرسي، فقال بعضهم هو علم الله تعالى ذكره، وذكر من قال ذلك بإسناده أن ابن عباس قال: كرسيه علمه. ورواية أخرى بإسناده عن ابن عباس أيضاً، قال: كرسيه علمه، ألا ترى في قوله ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾^(٢).

انظر وتعجب، في الكذب المحض، فهو يقول: «أن السلف لم يختلفوا في شيء من الصفات» والطبري يقول: «اختلف أهل التأويل» ويطلق ابن تيمية قوله: «لم أجد إلى ساعتى هذه أحداً من الصحابة تأول شيئاً من آيات الصفات» رغم ادعائه أنه راجع مائة تفسير، والطبري يذكر روايتين عن ابن عباس.

وإليك الشاهد الثاني: من نفس تفسير الطبري، في تفسير قوله تعالى: ﴿وهو العلي العظيم﴾.

يقول الطبري: واختلف أهل البحث في معنى قوله ﴿وهو العلي العظيم﴾ فقال بعضهم: «يعني بذلك وهو عليٌّ عن النظير والأشباه، وأنكروا أن يكون معنى ذلك هو العلي: المكان. وقالوا: غير جائز أن يخلو منه مكان ولا معنى لوصفه بعلو المكان لأن ذلك وصف بأنه في مكان دون مكان»^(٣).

(١) المقدمة في أصول التفسير ص ٥١.

(٢) تفسير الطبري ج ٣ ص ٧.

(٣) تفسير الطبري ج ٣ ص ٩.

هذا هو قول السلف، ولكن ابن تيمية اختار لنفسه طريقاً آخر، فلم يجد من يؤيده فنسبه إلى السلف، فنرى السلف لا يؤمنون بالمكان الله سبحانه، ونرى ابن تيمية يحشد مجموعة من الآيات والأحاديث ليثبت بها مكان الله سبحانه وتعالى في رسالته لأهل حماة، فيصل إلى قوله: >... إن الله سبحانه على العرش استوى، وأنه فوق السماء<^(١) ويقصد بذلك المكان.

أما في تفسير ابن عطية الذي يعتبره ابن تيمية أرجح التفاسير فقد أورد ما أورده الطبري من روايات ابن عباس، ثم علق على بعض الروايات التي ذكرها الطبري وتمسك بها ابن تيمية بقوله: >هذه أقوال جهلة مجسمين وكان الواجب ألا تُحكى<^(٢).

وهذا شاهد أخير في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ القصص ٨٨.

وقوله: ﴿وَيَقِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن ٢٧. التي يثبت بها ابن تيمية الوجه على الحقيقة.

قال الطبري: واختلف في معنى قوله (الا وجهه) فقال بعضهم معناه كل شيء هالك إلا هو. وقال آخرون: معنى ذلك إلا ما أريد به وجهه، واستشهدوا بتأويلهم بقول الشاعر:

استغفر الله ذنباً لست محصيه

رب العباد إليه الوجه والعمل^(٣)

ولم يزد على ذلك شيئاً.

(١) العقيدة الحموية الكبرى، مجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية ص ٣٢٩ - ٣٣٢.

(٢) فتح القدير للشوكاني.

(٣) تفسير الطبري ج ٢ ص ٨٢.

وقال البغوي: (إلا وجه) أي الا هو، وقيل إلا ملكه.

قال أبو العالية: إلا ما أريد به وجهه^(١) ولم يزد على ذلك.

وفي الدر المثور عن ابن عباس قال: المعنى إلا ما يريد به وجهه.

وعن مجاهد: إلا ما أريد به وجهه.

وعن سفيان: إلا ما أريد به وجهه من الأعمال الصالحة.

هذا قول السلف، ولم يزد فيهم واحد على ذلك، فمن أين بعد ذلك

لابن تيمية، أن يقول: هذا قول السلف...!

فلا نقول له إلا قوله تعالى: ﴿لَمْ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٦١ آل عمران.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِهَا بَيْنَاهُمْ لِلنَّاسِ فِي

الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ البقرة ١٥٩.

... ولذلك لم يسكت العلماء المعاصرون على قوله، وأفتوا فيه ونفروا

الناس عنه، حتى سجن ومنع من الكتابة داخل السجن، ومات مسجوناً في

دمشق لعقائده الفاسدة ولآرائه الشاذة، وقد رد عليها كثير من العلماء

والحفاظ، وأرسل إليه الذهبي رسالة يعاتبه فيها على ما جاء به من معتقدات،

وهي طويلة نكتفي منها ببعض الشواهد، وقد ذكرها العلامة الأميني بطولها

في كتابه الغدير ج ٧ ص ٥٢٨... نقلاً عن تكملة السيف الصقيل للكوثري

ص ١٩٠.

: «يا خيبة من اتبعك، فإنه معرض للزندقة والانحلال، ولا سيما إذا

كان قليل العلم والدين باطنياً شهوانياً، لكنه ينفعلك ويجاهد عنك بيده

ولسانه، وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط

خفيف العقل؟

(١) تفسير البغوي.

أو عامي كذاب بليد الذهن؟

أو غريب واجم قوي المكر؟

أو ناشف طالح عديم الفهم؟

فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل...».

وجاء في الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ج ١ ص ١٤١:

«فمن هنا وهناك ردوا عليه، ما أبدعته يده الأئمة من المخاريق التافهة والآراء المحدثه، الشاذة، عن الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ونودي عليه بدمشق: من اعتقد عقيدة ابن تيمية، حل دمه وماله».

وقال فيه الحافظ عبد الكافي السبكي، وقد ألف في الرد على ابن تيمية كتاباً سماه شفاء الأسقام في زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام.

وقال في خطبة كتابه - الدررة المضيئة في الرد على ابن تيمية -: «أما بعد فإنه لما أحدث ابن تيمية ما أحدث في أصول العقائد، ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاهد، بعد أن كان مستتراً بتبعية الكتاب والسنة، مظهراً أنه داع إلى الحق، هاد إلى الجنة، فخرج عن الإتياع إلى الإبتداع، وشذ عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع، وقال بما يقتضي الجسمية والتركيب في الذات المقدسة وإن الافتقار إلى الجزء ليس بمحال، وقال مجلول الحوادث بذات الله تعالى...»^(١).

وعشرات العلماء الذين اعترضوا عليه، ولا يتسع المقام لتتبع كلماتهم وإيراد أقوالهم، ونكتفي في الختام بقول شهاب الدين ابن حجر الهيتمي، قال في ترجمة ابن تيمية: «ابن تيمية عبداً خذله الله، وأضله، وأعماه، وأصمه، وأذله، بذلك صرح الأئمة الذين بينوا فساد أحواله، وكذبوا أقواله، ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة الإمام المجتهد المتفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرحلة

(١) الملل والنحل ج ٤ ص ٤٢، للشهرستاني.

الاجتهاد أبي الحسن السبكي وولده التاج والشيخ الإمام العز بن جماعة، وأهل عصرهم وغيرهم من الشافعية والمالكية والحنفية، ولم يقصر اعتراضه على متأخري السلف الصوفية بل اعترض على مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما والحاصل أنه لا يقام لكلامه وزن بل يرمى في كل وعر وحزن، ويعتقد فيه أنه مبتدع، ضال، مضل، غال، عامله الله بعدله، وأجارنا من مثل طريقتة وعقيدته وفعله. آمين!... إلى أن قال: إنه قائل بالجهة وله في اثباتها جزء، ويلزم أهل هذا المذهب الجسمية والمحاذة والاستقرار»^(١).

... نكتفي بهذا القدر عن ابن تيمية، وسوف نتناول بعض أفكاره بالتحليل العلمي والرد عليها عندما نتحدث عن الوهابية، لأنها هي الامتداد التاريخي لعقائد ابن تيمية، الذي هو بدوره امتداد لعقائد الحنابلة. ولقد تفتن الرجل في خلط الحق بالباطل، ولذلك ظن فيه بعض المسلمين الخير، فسموه - شيخ الإسلام - واشتهر أمره وانتشر، وإلا فالباطل المطلق لا أنصار له.

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالاً على غير دين الله. فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضعف ومن هذا ضعف فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم منا الحسنى» نهج البلاغة خطبة ٤٩.

(١) المصدر السابق ص ٤٨.

ثالثاً : مرحلة محمد بن عبد الوهاب :

قام ابن عبد الوهاب مجدداً لعقائد الخنابلة بعد أن أشربَ في قلبه فكر ابن تيمية، فأعلن حركته في نجد وبدأ تحركه في المنطقة التي شهدت أسوأ أنواع الكبت والظلم والقتل والتشريد، وبلغت العقيدة الخنبلية المتحجرة عظمتها ومجدها ودخلت في إطارها التطبيقي على الواقع الخارجي، لأول مرة في تاريخها بعد أن مرت بمرحلتين لم تجد فيهما كبير حظ وعناية، وكان السبب في ذلك أن الأشاعرة احتكروا الساحة العقائدية بعد أحمد بن حنبل مباشرة، أما في المرحلة الثانية: فإن ابن تيمية افتقد الأرضية الكفيلة بإنجاح دعوته لأنه بثها بين أوساط علمية كان فيهم كبار العلماء والفقهاء، فأخذوا ضوضاءها بالاستدلال والبرهنة فثاروا في وجهه ثورة أحمدت دعوته وأبطلت كيده، وكانت السلطة أيضاً ناصرت العلماء في مجابتهم له، فلم يكن لبذرة الفساد نصيب سوى الكمون في ثنايا الكتب، أو النجاح في مرضى القلوب»^(١).

وعكس هذا فقد كانت الأجواء مهياًة لمحمد بن عبد الوهاب في نشر أفكاره وسمومه في الأمة، فكان الجهل والأمية في كل مكان من أقاليم نجد، بالإضافة إلى سلطة آل سعود التي آلت على نفسها نشر الدعوة مجد السيف، وبهذه العوامل حملوا الناس على الإيمان بالوهابية، وإلا حكموا عليهم بالكفر والشرك وأحلوا ما لهم ودمهم... مبررين ذلك بمجموعة عقائد فاسدة تحت عنوان التوحيد الصحيح، فيبدأ ابن عبد الوهاب الحديث عن التوحيد

(١) الملل والنحل للسبحاني.

بقوله: <... وهو نوعان: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، أما توحيد الربوبية فيقرر به الكافر والمسلم، وأما توحيد الألوهية فهو الفارق بين الكفر والإسلام، فينبغي لكل مسلم أن يميز بين هذا وهذا ويعرف أن الكفار لا ينكرون أن الله هو الخالق الرازق المدبر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الآية: ﴿وَلَسَنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَ اللَّهُ﴾ الآية. فإذا ثبت لك أن الكفار يقرون بذلك، عرفت أن قولك لا يخلق ولا يرزق إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا الله، لا يصيرك مسلماً حتى تقول: لا إله إلا الله مع العمل بمعناها^(١).

وبهذا المفهوم الساذج البسيط الذي لا ينم إلا عن جهل بحكمة الله وآياته، يكفر كل المجتمع بعد أن يصل إلى مراده بقوله: <إن مشركي زماننا - أي المسلمين - أغلظ شركاً من الأولين، لأن أولئك يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، وهؤلاء شركهم في الخاليتين لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكَ دَعَا اللَّهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ العنكبوت ٦٥<^(٢).

فكل من يتوسل برسول الله (ص) وأهل بيته (ع) أو يزور مقاماتهم هو مشرك كافر، بل شركه أعظم من شرك عبدة اللات والعزى ومناة وهبل، وتحت هذه العقيدة قتل الأنفس ونهب الأموال، وسبي الذراري من مسلمي نجد والحجاز، وكان شعارهم:

أدخل في الوهاية وإلا فالقتل لك والترمل لنسائك واليتم لأطفالك.

(١) في عقائد الإسلام، من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣٨.

(٢) محمد بن عبد الوهاب رسالة أربع قواعد ص ٤.

ويقول أخوه سليمان بن عبد الوهاب في رده عليه في كتاب (الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية): «حدثت من قبل زمان الإمام أحمد في زمن أئمة الإسلام حتى ملكت بلاد الإسلام كلها ولم يرو عن أحد من أئمة المسلمين أنهم كفّروا بذلك ولا قالوا هؤلاء مرتدون ولا أمرؤا بجهادهم، ولا سموا بلاد المسلمين بلاد شركٍ وحرب كما قلتُم أنتم، بل كفّرتم من لم يكفر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها، وتمضي قرون على الأئمة من ثمانمائة عام ومع هذا لم يرو عن عالم من علماء المسلمين أنه كفّر بل ما يظن هذا عاقل، بل والله لازم قولكم أن جميع الأمة بعد زمان أحمد - رحمه الله تعالى - علماؤها وأمرؤها وعامتها كلهم كفار مرتدون، فإننا لله وإنا إليه راجعون، واغوثاه إلى الله! ثم واغوثاه أن تقولوا كما يقول بعض عامتكم أن الحجة ما قامت إلا بكم...»^(١).

ويقول أيضاً في ص ٤: «فإن اليوم ابتلي الناس بمن ينتسب إلى الكتاب والسنة ويستنبط من علومهما ولا يبالي من خالفه. وإذا طلبت منه أن يعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل، بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه، ومن خالفه فهو عنده كافر، هذا وهو لم تكن فيه خصلة واحدة من فعال أهل الاجتهاد لا والله، ولا عُشْرُ واحدة، ومع هذا فراح كلامه ينطلي على كثير من الجهال، فإننا لله وإنا إليه راجعون، الأمة كلها تصيح بلسان واحد، ومع هذا لا يرد لهم في كلمة بل كلهم كفار وجهال: اللهم اهد هذا الضال ورده إلى الحق».

(١) ص ٣٨.

مناقشة توحيد الربوبية:

ولكي نبين الخطأ الذي تعمده ابن عبد الوهاب، والاشتباه الذي وقع فيه كثيرٌ من أتباعه، والذي على أساسه يكفرون غالبية المسلمين إلى عصرنا هذا، لا بد أن نطرح أفكاره على طاولة البحث والتدقيق.

ونبدأ هنا بتوحيد الربوبية: فتفسير الرب بمعنى الخالق، بعيد عن مراد القرآن. فمعنى الرب في اللغة والقرآن الكريم لا يخرج عن معنى من ييده أمر التدبير والإدارة والتصرف وقد ينطبق هذا المعنى الكلي على مصاديق متعددة مثل التربية والإصلاح والحاكمة والمالكية والصاحبية، ولا يمكن حمل الرب على معنى الخالقية كما ذهب إليه الوهابية التي بنت على أساسه أهرامات من الأفكار المنحرفة. ولكي يثبت هذا الخطأ بجلاء تعال نتدبر هذه الآيات القرآنية لكي نكتشف منها معنى الرب في الكتاب العزيز:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ البقرة ٢١.

وقال تعالى: ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ الأنبياء

.٥٦

فلو كان الرب بمعنى الخالق لم يكن هناك حاجة لذكر (الذي خلقكم) أو (الذي فطرهن) مرة أخرى، وإلا يصبح تكراراً من غير معنى، فإذا وضعنا بدل الرب في الآيتين لفظة الخالق، لم يكن هناك حاجة لقوله (الذي خلقكم) (الذي فطرهن) بخلاف إذا قلنا أن معنى الرب هو المدبر، المتصرف إذ تكون الحاجة إلى الجملة الأخيرة متحققة، فيكون معنى الآية الأولى، أن الذي خلقكم هو مدبركم، وفي الآية الثانية أن خالق السموات والأرض هو المتصرف فيه المالك لتدبيرهما، والشواهد على ذلك كثيرة لا يتسع المجال التفصيل فيها.

وعلى ذلك فقوله: «أما توحيد الربوبية فيقر به الكافر والمسلم» كلام لا وجه له وبخلافه النصوص القرآنية الصريحة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ آيَاتِي﴾ (ص)، ليقول لقومه، أتأمروني أن أتخذ رباً آخر له بالربوبية والتدبير غير الله الذي لا مدبر سواه، كما تتخذون أئمة أصنامكم وأوثانكم وتقرنون لها بالتدبير، وإذا كان الكفار يقرنون بالربوبية لله وحده، كما يزعم ابن عبد الوهاب لكان ليس لهذه الآية معنى، فتكون زائدة ونازلة عبثاً - والعياذ بالله - لان كل الناس - على حد زعمه - مسلمهم وكافرهم يوحدون الله في ربوبيته فلا يأمرون الرسول (ص) بأن يتخذ رباً غير الله، ومثل هذه الآية ما نزل في مؤمن آل فرعون، قال تعالى: ﴿... أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ غافر ٢٨.

وعشرات الآيات تؤكد أن الرب لا يعني الخالق، وإنما يعني المدبر الذي بيده تدبير الأمور، والرب بهذا المعنى كما تؤكد الآيات لم يكن موضع اتفاق بين البشر، ولم يكن ابن عبد الوهاب إلا تلميذاً مقلداً لابن تيمية. فقد نقل منه هذه الفكرة من غير تدبر فيها فكان خطره على المسلمين أعظم، لأن ابن تيمية لم يخرج هذه الفكرة من إطار الاصطلاح والمنهج العلمي، بخلاف ابن عبد الوهاب الذي ساعده الظروف على ممارسة هذه الفكرة على الواقع العملي وتطبيقها على المسلمين، فكانت نتيجتها تكفيرهم ما عدا الوهابية، ولكي يتضح لك ذلك نتناول نظرتة حول توحيد الألوهية.

مناقشة توحيد الألوهية:

يقصد الوهابية بتوحيد الألوهية أنه صرف العبادة لله سبحانه وتعالى، وأن لا يُشرك في عبادته غيره، وهذا هو التوحيد الذي بعث الله الأنبياء والرسول من أجله.

لا إشكال ولا غبار على هذا المفهوم، وإن كان هناك إشكال فهو في نفس الاصطلاح لأن الله في القرآن لا يعني المعبود، فيمكننا أن نسمي هذا التوحيد بتوحيد العبادة ولكن لا كلام لنا في الاصطلاحات إذا اتفقنا في المفاهيم.

قد أجمع المسلمون على وجوب اجتناب عبادة غير الله، وأن يفرد الله تعالى وحده بالعبادة، ولكن الخلاف هو في تحديد - مفهوم العبادة - وهو أهم شيء في هذا الباب، لأنه المكان الذي زلت فيه أقدام الوهابية، فإذا قلنا أن التوحيد الخالص هو صرف العبادة لله تعالى، لا يكون له معنى إذا لم نحدد مفهوم العبودية، ونعرف حدودها وضوابطها، حتى يكون لنا معيار ثابت نعرف به الموحد من المشرك، فمثلاً الذي يتوسل، ويزور مقابر الأولياء ويعظمهم، هل يعد مشركاً أم موحداً؟ وقبل الإجابة لابد لنا من ضابط نكتشف به مصاديق العبادة في الواقع الخارجي.

* مناقشة الوهابية في مناط مفهوم العبادة:

اعتبرت الوهابية أن مطلق الخضوع والتذلل والتكريم عبادة. فكل من يخضع أو يتذلل لشيء يعتبر عابداً له، فمن يخضع ويتذلل لنبي من أنبياء الله أو ولي من أوليائه بأي شكل من أشكال الخضوع يكون عابداً له، وبالتالي مشركاً بالله تعالى، فالذي يسافر ويقطع المسافات من أجل زيارة رسول الله (ص) حتى يُقبل ضريحه الطاهر ويتمسح به تبركاً يُعتبر كافراً مشركاً، وكذلك الذي يسي المشاهد والقبب على الأضرحة لتكريمها وتعظيمها.

يقول ابن عبد الوهاب في إحدى رسائله: >... فمن قصد شيئاً من قبر أو شجر أو نجم أو ملك مقرب أو نبي مرسل لجلب نفع أو كشف ضرر فقد

اتخذ إلهاً من دون الله، فكذب بلا إله إلا الله، يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وإن قال هذا المشرك: لم أقصد إلا التبرك، وإني لأعلم أن الله هو الذي ينفع ويضر. فقل له: إن بني إسرائيل ما أرادوا إلا ما أردت، كما أخبر الله عنهم أنهم لما جاوزوا البحر أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فأجابهم بقوله ﴿إني لكم قوم تجهلون﴾...^(١). ويقول في رسالة أخرى: >... وأيضاً من تبرك بحجر أو شجر أو مسح على قبر أو قبة يتبرك بهم فقد اتخذهم آلهة...^(٢).

ثم انظر إلى هذا الوهابي، محمد سلطان المعصومي، كيف وصف المسلمين الموحدين الذين يزورون قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويتبركون بمقامه الطاهر ويقولون: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، يقول في حقهم: >... والعبد الضعيف في زياراتي الأربع للمدينة الطيبة، قد أمعنتُ النظر فشاهدت في المسجد النبوي وعند قبره الشريف، ما يضاد الإيمان ويهدم الإسلام ويظلم العبادات من الشركيات والوثنيات الصادرة من الغلو وتراكم الجهالات والتقليد الجامد الأعمى أو التعصب الباطل، وغالب من يرتكب هذه المنكرات بعض الغرباء من أهل الآفاق، مما لا خبر له عن حقيقة الدين، فإنهم قد اتخذوا قبر النبي (ص) وثناً غلوياً في المحبة وهم لا يشعرون>^(٣).

ولكي يتضح الخلط والجهل الذي ارتكبه الوهابية لا بد أن تنقض هذه القاعدة التي اعتمدها مقياساً في معرفة العبادة، وهو الخضوع والتذلل والتكريم.

(١) عقائد الإسلام، من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المشاهدت المعصومية عند قبر خير البرية ص ١٥.

لا يمكن شرعاً وعقلاً حمل مطلق الخضوع والتذلل على العبادة، فنحن نرى كثيراً من الأمور التي يمارسها الإنسان في حياته الطبيعية، يتخللها الخضوع والتذلل، مثل خضوع التلميذ لأستاذه والجندي أمام قائده، ولا يمكن أن يتجراً إنسان ويصف عملهم هذا بالعبادة، فقد أمرنا الله سبحانه بإظهار الخضوع والتذلل للوالدين، قال تعالى: ﴿واخضوا لهما جناح الذل من الرحمة﴾^(١) والخضوع هنا كناية عن الخضوع الشديد، فلا يمكن أن نسمي هذا العمل عبادة بل إن شعار المسلم هو التذلل والخضوع للمؤمن والتعزز على الكافر قال تعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين﴾ وإذا كان التذلل عبادة يكون قد أمر الله المؤمنين بأن يعبدوا بعضهم البعض، وهذا محال.

وهناك آيات أكثر وضوحاً في هذا الأمر، وتنفي تماماً ما ادعته الوهاية، منها سجود الملائكة لآدم، والسجود هو أعلى مراتب الخضوع والتذلل. قال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم...﴾ البقرة ٣٤.

فإذا كان السجود لغير الله سبحانه وإظهار قمة الخضوع والتذلل عبادة كما تدعي الوهاية فيتحتّم عليها أن تسمى الملائكة - والعياذ بالله - مشركين كفاراً، وأن تسمى آدم طاغوتاً، فما لهم لا يتدبرون القرآن؟ أم على قلوبهم أقفالها؟.

ومن هذه الآية نعرف أن قمة الخضوع ليس عبادة، ولا يعترض معترض بقوله إن السجود ليس بمعناه الحقيقي، أو إن المقصود من السجود لآدم (ع) هو جعله قبله - كما يجعل المسلمون الكعبة المشرفة قبله - فإن كلا الاحتمالين باطل، لأن السجود الظاهر من هذه الآية هو الهيئة المتعارفة. ولا يجوز صرفه إلى أي معنى آخر، وأما كونه قبله فهذا تأويل من غير مصدر ولا

(١) الإسراء ٢٤.

دليل، كما أن السجود لآدم لو كان معناه أن آدم (ع) كان قبله لما كان لإبليس أي مبرر للاعتراض حيث السجود لا يكون لآدم بذاته، وقد أكد القرآن الكريم خلاف ذلك بقول إبليس: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ فهم إبليس من الأمر الإلهي السجود لنفس آدم (عليه السلام). لذلك اعترض بقوله: (... أنا خير منه) أي أفضل فكيف يسجد الأفضل للمفضول وإذا كان المقصود من السجود هو اتخاذ آدم قبله فلا يلزم من ذلك أن تكون القبلة أفضل من الساجد، فبذلك لا يكون لآدم حظ من الفضل وهذا خلاف ظاهر الآية. والذي يؤكد ذلك قول إبليس: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً... أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الاسراء ٦١-٦٢.

فامتناع إبليس عن السجود كان لأن في هذا السجود لآدم (ع) منزلة وفضلاً عظيماً، وقد اعترض عليّ أحد الوهاية يوماً - وهو أمير جماعة أنصار السنة في مدينة بربر شمال السودان - في هذا المبحث بقوله إن سجود الملائكة كان بأمر الله، وهو يظن بذلك أنه ألقمني حجراً وأبطل حجتي. قلتُ له: إذن أنت ما زلت تصر على أن هذا الفعل - وهو السجود - من مصاديق الشرك بل هو الشرك بعينه، ولكن أمر الله به. قال نعم.

قلت: وهل هذا الأمر الإلهي يخرج سجود الملائكة لآدم عليه السلام من الشركية.

قال: نعم.

قلت: هذا كلام لا وجه له، ولا يقبله جاهل فضلاً عن عالم، فإن الأمر الإلهي لا يغير ماهية الشيء ولا يبدل موضوعه، فمثلاً إن ماهية السب والشتم هي الإهانة، فإذا أمرنا الله تعالى بسب فرعون فهل هذا الأمر الإلهي يغير ماهية السب، فيكون سبنا له مدحاً وتكريماً لفرعون...؟!؟

وأيضاً إذا حرم الله علينا ضيافة شخص معين، فلا يغير هذا التحريم ماهية الضيافة وهي الإكرام والاحترام فتصبح الضيافة إهانة للضيف، فإذا اعتبرت أن السجود شرك وعبادة، فإذا أمر الله به فلا يغير هذا الأمر ماهيته، فيصبح السجود بالأمر الإلهي توحيداً خالصاً، وهذا محال، فيلزم من كلامك أن تتهم الملائكة بالشرك.

بدأت الحيرة على وجهه وظل ساكناً.

قطعت صمته قائلاً: أمامك أمران، إما أن يكون هذا السجود خارجاً من الأساس عن إطار العبادة... وهذا ما نقوله.

وإما أن يكون هذا السجود من أجل مصاديق العبادة وتكون الملائكة الساجدة مشركة ولكنه شركٌ أذن الله به وأجازته، وهذا ما لا يقول به مسلم عاقل، وهو مردود بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلِهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف ٢٨.

فلو كان السجود عبادة وشركاً لما كان الله سبحانه وتعالى يأمر به.

وقد أخبرنا القرآن أيضاً بسجود أخوة يوسف وأبيه، وهذا السجود لم يكن بالأمر الإلهي، ولم يصفه الله سبحانه بالشرك، ولم يتهم أخوة يوسف وأباه بذلك، قال تعالى: ﴿... رَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ يوسف ١٠٠.

وكانت هذه الرؤية في الآية ٤ ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

فقد عبر الله تعالى في الموضوعين بالسجود ليوسف، وبهذا استفاد أن مجرد السجود أو أي عمل يظهر منه الخضوع والتذلل والتعظيم ليس عبادة.

وبهذا لا يمكن أن نسمي ذلك المسلم الموحد الذي يخضع ويتذلل أمام قبر رسول الله وأضرحة الأئمة والأولياء مشركاً عابداً للقبر، لأن الخضوع لا

يعني العبادة ولو أن مثل هذا العمل لعبادة للقبر لكان عمل المسلمين في الحج من الطواف حول البيت الحرام والسعي بين الصفا والمروة وتقبيل الحجر الأسود أيضاً عبادة لأن هذه الأعمال من حيث الشكل والظاهر لا تختلف عن الطواف بقبر رسول الله (ص) أو تقبيله أو التمسح به، ورغم ذلك نجد الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الحج ٢٩. وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾.

فهل ترى أن الطواف بالحجارة والطين عبادة لها؟

لو كان مطلق الخضوع عبادة للزم أن تكون هذه الأفعال عبادة، ولا مخرج هنا بالأمر الإلهي، كما وضحنا أن الأمر الإلهي لا يغير ماهية الفعل، ولكن مشكلة الوهاية أنهم لم يفهموا العبادة ولم يعرفوا روحها وحقيقتها، فيتعاملون فقط بالظواهر والأشكال، فعندما يروا ذلك الزائر يقبل مقام رسول الله (ص) يذهب ذهنهم إلى ذلك المشرك الذي يقبل صنمه، فينتزع الحكم من تلك الحالة الذهنية لينسبها إلى ذلك الموحد الذي يقبل مقام رسول الله (ص) وهذا هو الاشتباه، فلو كان مجرد الشكل الخارجي كافياً للحكم لوجب عليهم أن يكفروا كل من يقبل الحجر الأسود، ولكن الواقع غير ذلك... فتقبيل الحجر الأسود من المسلم توحيد خالص، وتقبيل الصنم من الكافر يُعد شركاً خالصاً.

فما هو الفرق؟!

هناك ضابط آخر نتعرف به على العبادة، وهو:

* تعريف العبادة بالمفهوم القرآني:

العبادة هي الخضوع اللفظي والعملي عن اعتقاد بألوهية المعبود أو ربوبيته أو الاعتقاد باستقلاله في فعله أو بأنه يملك شأناً من شؤون وجوده وحياته على وجه الاستقلال.

فكل عمل مصحوب بهذا الاعتقاد يُعد شركاً بالله، ولذلك نجد أن مشركي الجاهلية كانوا يعتقدون بألوهية معبوداتهم وقد صرح القرآن بذلك، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ مريم ٨١ أي كان هؤلاء يعتقدون بألوهية معبوداتهم.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾ الحجر

.٦٩

فهذه الآيات ترد الوهاية على أعقابهم حيث تُصرح أن الشرك الذي كان يقع فيه الوثنيون هو من باب اعتقادهم بألوهية معبوداتهم، وقد نص الله سبحانه على هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفِينَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾ الحجر ٩٤ - ٩٦ .

فتحدد هذه الآيات الملاك الأساسي في قضية الشرك، وهو الاعتقاد بألوهية المعبود، ولذلك استكبروا واستكبروا على عقيدة التوحيد التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ولذلك كانت دعوة الأنبياء لهم محاربة اعتقادهم بإله غير الله سبحانه وتعالى، حيث يمتنع عقلاً عبادة من لا يعتقد بألوهيته، فيعتقد أولاً ثم يعبد ثانياً.

قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف ٥٩ .

فبين القرآن الكريم بذلك انحرافهم عن الإله الحقيقي.

فإذا المناط في الشرك، هو الخضوع المقترن بالاعتقاد بالألوهية، وقد يكون الشرك ناتجاً من الاعتقاد بربوبية المعبود، أي كونه مالكة ومسيطرأ على أمره من الخلق والرزق والحياة والممات، أو لكونه مالكة للشفاعة والمغفرة، فالذي يخضع لشيء معتقداً بربوبيته يكون عابداً له، ولذلك جاءت الآيات القرآنية تدعوا الكفار والمشركين لعبادة الرب الحق، قال تعالى:

﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ المائدة ٧٢.

قال تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ الأنبياء

.٩٢

وهناك مناط ثالث، وهو الاعتقاد بأن الشيء مستقل في ذاته أو في فعله من غير أن يكون قائماً بالله، فالخضوع المقترن بهذا الاعتقاد يُعدُّ شركاً، فإذا خضعت أمام إنسان باعتبار أنه مستقل في فعله سواء كان هذا الفعل عادياً مثل التكلم والحركة أو كالمعجزات التي كان يقوم بها الأنبياء يكون هذا الخضوع عبادة على حد سواء، بل لو اعتقد الإنسان أن حبة الصداق تشفي بصورة مستقلة عن الله تعالى يكون هذا الاعتقاد شركاً.

وبهذا نعرف أن الملاك في العبادة ليس فقط إظهار الخضوع والتذلل وإنما الملاك الحقيقي هو الخضوع والتذلل بالقول أو الفعل لمن يُعتقد بأنه إله أو رب أو مالك لشيء من شؤونه على وجه الاستقلال.

* الاعتقاد بالاستقلالية وعدمها ملاك في التوحيد والشرك:

وأركّز على هذا المعنى - أي على وجه الاستقلال - لأن فيه نكتة دقيقة تُعتبر الفاصل بين التوحيد والشرك، لم يلتفت إليها الوهاية، وهي لا بد منها لكي نعرف كيفية التعامل مع السنن الطبيعية والغيبية، فذهبت الوهاية إلى أن التوسل بالأسباب الطبيعية لا غبار عليه كالأخذ بالأسباب المادية في الحالة

الطبيعية، أما التوسل بالأسباب الغيبية كأن تطلب من أحد شيئاً لا يحصل عليه بالسنن المادية وإنما بالسنن الغيبية فهو شرك، وهذا خلط واضح حيث جعلوا السنن المادية والغيبية ملاكاً في التوحيد والشرك، فالأخذ بالسنن المادية يكون عين التوحيد والأخذ بالسنن الغيبية يكون عين الشرك.

وإذا أمعنا النظر في هذه السنن بشقيها نجد أن ملاك التوحيد والشرك خارج عن إطار نفس هذه السنن، وإنما يعود الملاك إلى نفس الإنسان ونوعية اعتقاده بهذه السنن، فإذا اعتقد إنسان أن لهذه الوسائل والأسباب استقلالية بذاتها أي منفصلة عن الله، يكون هذا الاعتقاد شركاً.

فمثلاً، يعتقد أن الدواء الفلاني يشفي من المرض بصورة مستقلة وذاتية فيكون عمله شركاً، فمهما كان نوع السبب بسيطاً طبيعياً أم غيبياً فلا دخل له في الأمر وإنما الأساس في الاعتقاد بالاستقلالية وعدمها فإذا اعتقد إنسان أن كل الأسباب غير مستقلة لا في وجودها ولا في تأثيرها بل هي مخلوقة لله تعالى مسيرة لأمره وإرادته، يكون اعتقاده هذا عين التوحيد.

ولا اعتقد أن مسلماً على ظهر هذه الأرض يعتقد في سبب ما أنه مؤثر على نحو الاستقلال، فلا يحق لنا نسب الشرك والكفر لهم، فتوسلهم بالرسول والأولياء أو التبرك بآثارهم لطلب الشفاء أو غيره، لا يُعد شركاً لأنه حالة طبيعية في الأخذ بالأسباب المتعددة.

وقد تحدث القرآن الكريم عن الأسباب بحيث ينسب بعض الأشياء إلى الله سبحانه، وأحياناً ينسبها إلى أسبابها المباشرة، وإليك أمثلة من ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ الذاريات ٥٨ فهي تؤكد أن الرزق بيد الله.

وإذا نظرنا إلى قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾، تنسب الرزق إلى الإنسان.

وفي آية أخرى تجعل الله هو الزارع الحقيقي قال تعالى: ﴿أفأرأيتم ما
تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ الواقعة ٦٣ - ٦٤ .

وفي آية أخرى يجعل الله سبحانه صفة الزراعة للإنسان قال تعالى:
﴿يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾ الفتح ٣٩ .

وفي آية يجعل الله وفاة الأنفس بيده قال تعالى: ﴿اللَّهُ يتوفى الأنفس
حين موتها﴾ الزمر ٤٢ .

وفي آية أخرى يجعل التوفي فعل الملائكة قال تعالى: ﴿حتى إذا جاء
أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ .

وفي آية يعتبر القرآن الشفاعة حقاً مختصاً بالله وحده، قال تعالى: ﴿قل
للَّهِ الشفاعة جميعاً﴾ الزمر ٤٤

ويخبر في آية أخرى عن وجود شفعاء غير الله سبحانه كالملائكة قال
تعالى: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن
الله﴾ النجم ٢٦ .

وفي آية يجعل الله الإطلاع على الغيب أمراً مختصاً به، قال تعالى: ﴿قل
لا يعلم ما في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ النمل ٦٥ .

ونجد في آية أخرى أن الله اختار من عباده رسلاً لإطلاعهم على
الغيب إذ يقول: ﴿وما كان الله ليطالعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله
من يشاء﴾ آل عمران ١٧٩ .
وغير هذه من الآيات .

فالنظر لهذه الآيات من أول وهلة ومن غير تدبر يشعر أن هناك شيئاً
من التناقض، وفي الواقع إنها تقر ما قلناه أي أن الله سبحانه هو المستقل
بفعل كل شيء وأما بقية الأسباب التي تقوم بنفس الأفعال إنما تقوم بها على
نحو التبعية وفي ظل القدرة الإلهية، وقد لخص الله سبحانه هذا الأمر بقوله:
﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ الأنفال ١٧ .

فيصف النبي بأنه رمى - إذ رميت - وفي المقابل يصف نفسه أنه هو الرامي الحقيقي لأن النبي (ص) لم يرم إلا بالقدرة التي منحها له الله، فيكون رامياً بالتبع.

فيمكننا أن نقسم الفعل الإلهي إلى قسمين:

١ - فعل من غير واسطة (كن فيكون).

٢ - فعل بتوسط واسطة، مثل أن ينزل الله المطر بواسطة السحاب،

ويُشفى المريض بواسطة العقاقير الطبية... وهكذا.

فإذا تعلق الإنسان وتوسل بهذه الوسائط معتقداً أنها غير مستقلة يكون موحداً وخلاف ذلك يكون مشركاً.

* هل القدرة وعدمها ملاك في التوحيد والشرك:

وللوهابية خلطٌ واشتباه آخر في قضية التوحيد والشرك وهو مشابه تماماً لما سبق، فيجعلون من ملاكات التوحيد والشرك، قدرة المطلوب منه أو عدم قدرته فإذا كان قادراً لا إشكال وإلا يكون شركاً... وهذا جهل أحمق.

فما دخل هذا الأمر في التوحيد والشرك، ولا يتعدى البحث هنا عن جدوائية الطلب أو عدم ذلك.

فما بال أولئك من قساة الوهابية ينتهرون زوار رسول الله (ص) قائلين: يا مشرك، هل ينفعك رسول الله بشيء.

ناسين أو جاهلين، وهم للجهل أقرب أن المنفعة وعدمها ليس لها دخل في التوحيد والشرك.

و هذا مثل جهل آخر عند الوهابية وهو عدم جواز التوسل والطلب من الأموات.

يقول ابن القيم - تلميذ ابن تيمية -: «ومن أنواع الشرك، طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً»^(١).

وهذا من عجائب القول وغرائبه، لا يصدر إلا ممن ليس له نصيب في الدين علماً وفهماً، فكيف يكون طلب شئ محدد من حي عين التوحيد، وطلب ذلك الشئ نفسه من ميت شركاً؟!، ومن الواضح أن مثل هذا العمل خارج عن إطار التوحيد والشرك، ويمكننا أن نضعه في إطار جدوائية هذا الطلب وعدمها، فيكون الطلب من غير فائدة ولا يكون شركاً.

وكما أشرنا إن الملاك الأساسي في التوحيد والشرك هو الاعتقاد، والاعتقاد هنا مطلق لا يُخصص بحياة أو موت، فكلام ابن القيم ظاهر البطلان، فقوله: «إن الميت قد انقطع عمله» إن صح لا يزيد على كون أن الطلب من الميت لا فائدة فيه لا إنه شرك، وقوله: «ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً» فهو كلام عام يشمل الميت والحي فكل ما هو موجود لا يملك لنفسه شيئاً سواء كان حياً أو ميتاً، وإنما يملك بإذن الله وإرادته حياً وميتاً.

وهناك مجموعة أخرى من اشتباهاتهم، هي أصغر من أن تناقش ويمكنك أيها القارئ الرد عليها كما تبين لك من الأسس السابقة.

فيجوز لكل مسلم أن يستغيث ويتوسل بأولياء الله في أي أمر غيبياً كان أو مادياً مع ملاحظة الشروط السابقة.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجَنِّ أَنَا وَآئِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ، فَلَمَّا رآه مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي...﴾ النمل ٣٨ - ٤٩ - ٤٠.

(١) فتح المجيد، تأليف مفيد ابن عبد الوهاب ص ٦٧ ط ٦.

فإذا طلب سيدنا سليمان (ع) هذا الأمر الغيبي من أتباعه، وإذا تمكن رجل عنده علمٌ من الكتاب أن يقوم بذلك، فجاز لنا أن نطلب من الذي عنده علم الكتاب كله، وهذا بالتأكيد عند رسول الله (ص) وأهل بيته (ع).

* هل التوسل بالأنبياء والصالحين حرام؟

قد عرفنا فيما سبق أن التوسل والاستغاثة خارجة عن إطار التوحيد والشرك، وبقي شيء آخر وهو جواز هذا الأمر أو حرمة.

لم يقل أحد من علماء الإسلام بجرمة التوسل قديماً وحديثاً، وقد جاءت كثير من الروايات تبيح ذلك، وإليك بعض الأحاديث:

- حديث عثمان بن حنيف:

«إن رجلاً ضريراً أتى إلى النبي (ص) فقال: ادع الله أن يعافيني، فقال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير، قال: فادع، فأمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى، اللهم شفّعه في. قال ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضرر»^(١).

وقد ناقش إسناده هذا الحديث الشيخ جعفر السبحاني في كتابه (مع الوهابيين في خططهم وعقائدهم) وقال: «.. لاشك في صحة وسند الحديث هذا، حتى أن إمام الوهابية (ابن تيمية) قد اعترف بصحة سنده قائلاً: إن

(١) سنن ابن ماجه ج١ ص٤٤١، مستدرک الحاكم ج١ ص٣١٣، مسند أحمد ج٤ ص١٣٨، الجامع الصغير ص٥٩، تلخيص المستدرک للنهي.

المقصود من اسم (أبو جعفر) الذي ورد في سند الحديث هو أبو جعفر الخطي وهو موثق.

يقول الرفاعي - الكاتب الوهابي المعاصر - الذي يسعى لتضعيف الأحاديث الخاصة بالتوسل يقول حول هذا الحديث: «لا شك أن هذا الحديث صحيح ومشهور وقد ثبت فيه بلا شك ولا ريب ارتداد بصر الأعمى بدعاء رسول الله»^(١). ويقول الرفاعي في كتابه التوصل لقد أورد هذا الحديث النسائي، البيهقي، الطبراني، الترمذي، والحاكم في مستدركه، ولكن أورد الترمذي والحاكم جملة (اللهم شفّعني فيه) بدلاً من جملة (وشفّعني في). كتب زيني دحلان في (خلاصة الكلام) ذكر هذا الحديث مع مستندات صحيحة كل من البخاري في تاريخه وابن ماجه والحاكم في مستدركهما، كما ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه الجامع^(٢)...^(٣).

وهناك أحاديث وروايات أخرى كثيرة تجاوزنا ذكرها روماً للاختصار، وللزيادة، راجع حديث توسل آدم برسول الله كما جاء في مستدرك الحاكم ج ٢ ص ٦١٥ والدر المنثور ج ١ ص ٥٩، نقلاً عن الطبراني وأبي نعيم الأصفهاني والبيهقي، وحديث توسل النبي بحق الأنبياء من قبله، كما رواه الطبراني في الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم وصححوه، وحديث التوسل بحق السائلين في صحيح ابن ماجه ج ١ ص ٢٦١، باب المساجد، ومسنده أحمد ج ٣ ص ٢١.. وغيرها من الروايات.

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل ص ١٥٨.

(٢) كشف الارتباب ص ٣٠٩، نقلاً عن خلاصة الكلام.

(٣) التوصل إلى حقيقة التوسل ص ٦٦.

وبالإضافة إلى ذلك ما يدل على جواز التوسل إجماع المسلمين وسيرة
المتشعبة فقد كان المسلمون من القديم إلى اليوم يتوسلون بالأنبياء والصالحين
ولم يعترض عليهم عالم أو يحرم ذلك.

نكتفي بهذا القدر - الموجز - عن عقائد الوهابية، فالنقاش معهم يطول
ويحتاج إلى كتاب منفصل، وقد رد عليهم العلماء في عشرات الكتب
والمقالات... ومن الطريف ذكره أن العلامة محسن الأمين رد على الوهابية
بقصيدة طويلة تناول فيها عقائدهم ورد على إشكالاتهم تتكون من ٥٤٦
بيتاً راجعها في آخر كتابه (كشف الارتباب في أتباع محمد بن عبد الوهاب).



تهافت الأشاعرة

ذكر التاريخ أن أبا الحسن الأشعري انتقل من مدرسة الاعتزال وأعلن انتماءه إلى المدرسة الحنبلية، ولكن لم تكن هذه النقلة كافية للتخلي تماماً عن منهج الاعتزال فقد ظهرت انعكاسته واضحة في أسلوبه الجديد، فقد حاول أن يصبغ المعتقدات السلفية بصبغة عقلية، فلم يحالفه التوفيق في ذلك، لأن العقائد السلفية عقائد سماعية تعتمد على الحديث، ومع العلم أن كثيراً من الأحاديث غير صحيحة دُست من قبل أعداء الدين في التراث الإسلامي، فلم تتماش هذه الأحاديث مع القواعد العقلية مما أحدث تناقضاً واضحاً في منهج أبي الحسن الأشعري، فنتجت مجموعة من التهافتات عندما أراد أن يبرهن على عقائد أهل الحديث بمنهج عقلي.

ونستعرض هنا نموذجاً واحداً من تهافتاته، وهو كاف لعرض العقلية الأشعرية وهي: مسألة رؤية الله... وقد أجمع أهل السنة والجماعة على إمكانها.

وقد حاول أبو الحسن الأشعري وتلاميذه أن يخرجوها من إطار الأحاديث إلى إطار البرهان العقلي، ولذلك اخترناهم في هذا الباب حتى نستعرض آراءهم.

قد حفلت الكتب السنية بروايات صريحة في الرؤية البصرية لله جل وعلا، وإليك نماذج من هذه الأحاديث قبل الدخول في غمار البحث.

- عن جابر، قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا. ثم قرأ: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾.

صحيح البخاري ج ١، باب فضل صلاة العصر.

صحيح مسلم ج ٢ باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما.

- وجاء في حديث طويل، أن أبا هريرة أخبرهما: أن أناساً قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة.

قال: هل تمارون في القمر ليلة البدر، ليس دونه سحاب؟

قالوا: لا، يا رسول الله.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما تمارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة، إلا كما تمارون في رؤية أحدكم... إلى أن يقول: حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورته من التي رأوه فيها، فيقال: ماذا تنتظرون؟... تتبع كل أمة ما كانت تعبد.

قالوا: فارقنا الناس في الدنيا، على أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم ونحن ننتظر ربنا الذي كنا نعبد.

فيقول: أنا ربكم.

فيقولون: لا نشرك بالله شيئاً.. مرتين أو ثلاثة.

حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينه علامة فتعرفونه بها؟

فيقولون: الساق.

فيكشف عن الساق.

صحيح البخاري ج ٦، تفسير سورة النساء - ج ٩ كتاب التوحيد.

صحيح مسلم ج ١، باب معرفة طريق الرؤية.

- عن جرير بن عبد الله، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنكم

سترون ربكم عياناً.

صحيح البخاري ج ٩ كتاب التوحيد، قوله تعالى: ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ

إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

... وغيرها من عشرات الأحاديث التي وردت في الصحاح، يقول

ابن حجر حول أحاديث الرؤية: «جمع الدارقطني الأحاديث الواردة في رؤيته

تعالى في الآخرة فزادت على العشرين، وتتبعها ابن القيم في حادي الأرواح

فبلغت الثلاثين وأكثرها جياد، وأسند الدارقطني عن يحيى بن معين قال:

عندي سبعة عشر حديثاً في الرؤية صحاح^(١).

وبهذه الأحاديث التي زعموا صحتها بنوا اعتقادهم برؤية الله تعالى

يوم القيامة حتى تطرّف إمام الحنابلة وكفرّ كل من يخالف هذا الاعتقاد، ولم

يقفوا عند هذا الحد بل جوزوا إمكانية رؤيته في الدنيا.

قال الاسفرائيني: أجمع أهل السنة على أن الله تعالى يكون مرئياً

للمؤمنين في الآخرة، وقالوا بجواز رؤيته في كل حال، ولكل حي من طريق

العقل ووجوب رؤيته للمؤمنين خاصة في الآخرة من طريق الخبر^(٢).

بل قالوا بوقوع رؤيته في المنام، وادعوا - كذباً وزوراً - أن أول من

رأى ربه في المنام رسول الله (ص) وقد تقدم ذكر الخبر.

(١) فتح الباري، في شرح صحيح البخاري ج ١٣ ص ٣٧١.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٥.

وبعد ذلك أصبح علماءهم يدعون رؤية الله في المنام، وأورد الشعراني وابن الجوزي والشبلنجي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: سمعتُ أبي يقول: رأيت رب العزة عز وجل في المنام فقلت: يا رب، ما أفضل ما تقربَ به المتقربون إليك؟

فقال: كلامي يا أحمد.

فقلت: يا رب، بفهم أو بغير فهم؟

قال: بفهم أو بغير فهم^(١).

ويدعي الألوسي في تفسيره روح المعاني رؤية الله ثلاث مرات: «فأنا والله تعالى الحمد قد رأيتُ ربي مناماً ثلاث مرات وكانت المرة الثالثة في السنة السادسة والأربعين والمائتين والألف بعد الهجرة، رأيتُه جل شأنه له من النور ماله، متوجهاً جهة المشرق، فكلمني بكلمات أنسيتها حين استيقظت، ورأيت مرة في منام طويل كأنني في الجنة بين يديه تعالى وبينه ستر حبيك بلؤلؤ مختلفة ألوانه فأمر سبحانه أن يذهب بي إلى مقام عيسى عليه السلام ثم إلى مقام محمد صلى الله عليه وسلم فذهب بي إليهما، فرأيت ما رأيت والله تعالى الفضل والمنة^(٢).

هذا ملخص عقيدتهم في رؤية الله سبحانه،... وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

.. وما قدروا الله حق قدره.

ومن الواضح أن هذا الاعتقاد يستلزم مما لا شك فيه وبأدنى تفكير

الآتي:

(١) طبقات الشعراني ج ١ ص ٤٤، وعن ابن الجوزي في مناقب أحمد ص ٣٤٣، نور الأبصار للشبلنجي ص ٢٢٥.

(٢) تفسير روح المعاني ج ٩ ص ٥٢. دار إحياء التراث العربي بيروت ط ١٩٨٥ م.

- إن الرؤية الحسية التي تؤكدُها الأحاديث تستلزم أن يكون المرئي جسماً له كثافة ولون حتى تتم الرؤية، فمن مستلزمات الرؤية أن يكون المرئي جسماً تنعكس منه الأشعة، وأن يكون في مقابل الرائي، وأن تكون هناك مسافة بين الرائي والمرئي بالإضافة إلى سلامة الحاسة، وبهذه الشروط يكون الله - والعياذ بالله - جسماً له لون ويكون محدوداً بمكان وهذا محال.

- ويستلزم أيضاً أن الله يتغير ويتشكل بصور مختلفة (فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، فيأتيهم في الصورة التي يعرفون).. والطريقة التي يعرفونه بها هي (الساق) فله - سبحانه - ساقٌ تُكشَف وتُغطى!!..

وهذه العقائد التي تستلزم الكفر صراحة هي نتاج طبيعي للأحاديث الإسرائيلية التي سلمَ بها إخواننا أهل السنة لورودها في البخاري ومسلم، فقداستهما مقدمة على قداسة الله وتنزيهه، وإلا لولا هذه الأحاديث لما ذهب عقل سليم لهذا القول.

ولذلك نجد أهل البيت عليهم السلام وقفوا في وجه هذه العقيدة وكل العقائد التي تؤدي إلى التجسيم والتشبيه، وكذبوا تلك الأحاديث التي دسَّها كعبُ الأبحار اليهودي، وهب بن منبه اليماني اللذان روَّجا فكرة التجسيم والرؤية كثيراً. وهذه العقيدة قد حفلت بها كتب أهل الكتاب وهي بعيدة كل البعد عن المعارف القرآنية.

وخلاصة القول: إن هذه الأحاديث مهما كثرت لا قيمة لها في أصول العقائد بعد حكم العقل، وإذا تنازلنا وسلمنا بدخولها في مجال تقسيم الأفكار العقائدية فيقابلها كمٌ هائل متضافر متواتر وارد عن أهل البيت (ع) تنفي التجسيم ولوازمه والرؤية وكل ألوان الإحاطة بالله تعالى.

* نماذج من أحاديث أهل البيت في نفي الرؤية:

دخل المحدث أبو قُرَّة على أبي الحسن الرضا عليه السلام، فسأله عن الحلال والحرام والأحكام حتى بلغ سؤاله التوحيد، فقال أبو قُرَّة: إننا روينا أن الله عز وجل قسم الرؤية والكلام بين اثنين فقسم لموسى عليه السلام الكلام ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم الرؤية: فقال أبو الحسن (ع): فمن المبلِّغ عن الله عز وجل إلى الثقلين الجن والإنس ﴿لا تدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار﴾ ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ ﴿وليس كمثله شيء﴾.. أليس محمداً صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: بلى.

قال (ع): فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيُخبرهم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار﴾ ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ ﴿وليس كمثله شيء﴾، ثم يقول: أنا رأيتُه بعيني، وأحطتُ به علماً وهو على صورة البشر. ... أما تستحون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي عن الله بشيء، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر!!

قال أبو قُرَّة: فإنه يقول ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى﴾.

فقال أبو الحسن (ع): إن بعدَ هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ يقول: ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى، فقال: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾... فأيات الله عز وجل غير الله، وقد قال: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ فإذا رآه الأبصار فقد أحاط به العلم ووقعت المعرفة.

فقال أبو قُرَّة: فتكذب بالروايات.

فقال أبو الحسن (ع): إذا كانت الروايات مخالفةً للقرآن كذبتُ بها.

وما أجمع المسلمون عليه أنه لا يُحاط به علمٌ ولا تُدركه الأبصار
وليس كمثلته شيء^(١).

- حضر أبو عبد الله بن سنان عند الإمام أبي جعفر عليه السلام،
فدخل عليه رجل من الخوارج فقال له: يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟
قال (ع): الله.
قال: رأيتَه.

قال (ع): لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوبُ بحقائق
الإيمان، لا يُعرف بالقياس ولا يُدرك بالحواس، ولا يشبّه بالناس، موصوفٌ
بالآيات معروف بالعلامات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلا هو.
... قال أبو عبد الله بن سنان: فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلمُ
حيث يجعل رسالته^(٢).

- كتب أحمد بن إسحاق إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام يسأله عن
الرؤية وما فيه الناس، فكتب عليه السلام:
«لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواءٌ ينفذه البصرُ، فإذا
انقطع الهواء وعُدم الضياء بين الرائي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك
الاشتباه، لأن الرائي من ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية
وجب الاشتباه وكان في ذلك التشبيه، لأن الأسباب لا بُد من اتصافها
بالمسببات»^(٣).

- كتب محمد بن عبيدة إلى الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام يسأله
عن الرؤية وما ترويه العامة والخاصة، فكتب عليه السلام بخطه:

(١) التوحيد للصدوق ص ١١٢ حديث رقم ٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٩ حديث رقم ١.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٨ حديث رقم ٥.

«اتفق الجميع فلا تمنع بينهم أن المعرفة من جهة الرؤية ضرورة، فإذا جاز أن يرى الله عز وجل بالعين وقعت المعرفة ضرورة، ثم لم تخل تلك المعرفة من أن تكون إيماناً أو ليست بإيمان فإن كانت تلك المعرفة من جهة الرؤية إيماناً فالمعرفة التي في دار الدنيا من جهة الاكتساب ليست بإيمان لأنها ضده فلا يكون في الدنيا أحد مؤمناً لأنهم لم يروا الله عز ذكره، وإن لم تكن تلك المعرفة التي من جهة الرؤية إيماناً لم تخل هذه المعرفة التي هي من جهة الاكتساب أن تزول أو لاتزول في المعاد، فهذا دليل على أن الله عز ذكره، لا يرى بالعين، إذ العين تؤدي إلى ما وصفناه»^(١).

* أدلة الأشاعرة عقلياً على جواز الرؤية ومناقشتها:

- آ. عدم الممانعة العقلية في إمكان الرؤية البصرية، لأن هذا الإمكان لا يقتضي إثبات محذور أو محال عقلي على الله تعالى:
- ١ - فليس في جواز الرؤية إثبات حدوثه، لأن المرئي لا يكون مرئياً لأنه محدث وإلا لكان من اللازم أن يرى كل محدث.
 - ٢ - وليس في الرؤية إثبات حدوث معنى في المرئي، لأن الألوان مرئيات ولا يجوز حدوث معنى فيها لأنها أعراض.
 - ٣ - وليس في إثبات الرؤية لله تعالى تشبيهه بالباري تعالى، ولا تجنيسه ولا قلبه عن حقيقته، لأننا نرى السواد والبياض فلا يتجانسان ولا يشبهان بوقوع الرؤية عليهما.

... ونلاحظ على هذا الادعاء الآتي:

- لنا أن نقول على الأول، صحيح أن الحدوث ليس شرطاً كافياً في الرؤية، بل لابد من انضمام شروط أخرى، كالمسافة المناسبة والكثافة التي

(١) المصدر السابق حديث رقم ٨.

تسمح بانعكاس الضوء، وعدم توفرها في بعض المحدثات يسمح بعدم رؤيتها. ولكن الرؤية بنفسها تستلزم الجهة (للمقابلة)، والجسمية (للكثافة) فهي تستلزم الحدوث، فكل مرثي محدث، لا العكس.

ونقول عن الثاني (وليس في الرؤية إثبات حدوث معنى...): إن المعنى يحدث باتصال الضوء والمقابلة، وإن لم يكن اتصال ضوء ولا مقابلة لم تكن رؤية بصرية.

ونقول عن الثالث: إنها مجرد دعوى كسوابقها فالتشبيه متحقق لا مفر منه فإن حقيقة الرؤية قائمة بالمقابلة، والمقابلة لا تنفك عن كون المرثي في جهة ومكان، وليس أظهر من هكذا تشبيه، حيث الجهة والجسمية، وتعالى ليس كمثله شيء.

ب - يقول الباقلاني: «والحجة على ذلك أنه تعالى موجود: والشيء إنما يصح أن يُرى من حيث كان موجوداً إذ كان لا يُرى لجنسه، لأننا لا نرى الأجناس المختلفة ولا يُرى لحدوثه إذ أنا نرى الشيء في حال لا يُصح أن يحدث فيها، ولا لحدوث معنى فيه إذ قد ترى الأعراض التي لا تُحدث المعاني»^(١).

وبتقرير آخر: «إننا ما دمنا نرى الأعراض فإننا نرى الجواهر بالضرورة»^(٢).

«إن الرؤية مشتركة بين الجواهر والأعراض، ولا بد للرؤية المشتركة من علة واحدة وهي: إما الوجود أو الحدوث، والحدوث لا يصح للعلية لأنه أمرٌ عدمي، فتعين الوجود.. فنتج أن صحة الرؤية مشتركة بين الواجب والممكن»^(٣).

(١) د. عبد الرحمن البدوي، مذاهب الإسلاميين ج١ ص٦١٣.

(٢) د. حسن حنفي (من العقيدة إلى الثورة) ج٢ ص٢٥٣.

(٣) الملل والنحل للسبحاني ج٢ ص٢٠٠.

وضعف الدليل واضح إذ ينتقض بعدم رؤية أشياء مع القطع بوجودها (كرؤية الأفكار والعقائد والروحيات والنفساتيات من القدرة والإرادة).

مما يكشف عن سبب آخر للرؤية وليس هو الوجود.

ولذا اعترض عليه كثير من الأشاعرة أنفسهم كشراح المواقف، والتفتازاني في شرح المطالع، وكذا القوشجي في شرح التجريد^(١).

ومع أن لفظ (الوجود) أصح من (الحدوث) في جعله من شرائط الرؤية إلا أن مقولة كل موجود تجوز رؤيته غير صحيحة بإطلاقها، وحتى تصح لا بد أن تقيّد بسائر شروط الرؤية، وهذه الشروط لا تنسجم إلا مع الموجودات المخلوقة أما بشأن الرب تعالى فلا يمكن المقايسة بين الخلق والخالق ﴿ليس كمثل شيء﴾ ولا يخفى أن إجراء القوانين الطبيعية على الرب تعالى هي عين التشبيه والجهل.

وبهذه الأدلة المتساقطة التي زعموا أنها عقلية أثبتوا الرؤية لله سبحانه وتعالى، والله بريء مما يقولون.

* أدلة الأشاعرة على الرؤية من القرآن ومناقشتها:

آ - قال تعالى: ﴿كلا بل تحبون العاجلة - وتلدرون الآخرة - وجوة يومئذ ناضرة - إلى ربها ناظرة - ووجوة يومئذ باسرة - تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ القيامة

٢٥ - ٢٠

وقد ميّز الأشعري بين معنى كلمة (النظر)، بمعنى الاعتبار ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ العاشية ١٧، وبمعنى الانتظار ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾ يس ٤٩ وبمعنى الرحمة ﴿لا ينظر الله إليهم﴾ آل عمران ١١، وبمعنى الرؤية.

(١) دلائل الصدق، للمظفر ج ٢ ص ١٨٤.

وقد اختار الأشعري من بين هذه المعاني معنى (الرؤية)، لعدم صحة بقية المعاني فأما الأولى (الاعتبار) فدار الآخرة ليست دار اعتبار بل جزاء، وليس بمعنى (الانتظار) لأنها عُلقت على الوجه، كما أن الانتظار فيه مشقة لا يناسب أهل الجنة. أما معنى (الرحمة) فبعيد، لعدم جواز تعطف الخلق على الخالق كما هو واضح.

ثم عضد اختيار الرؤية بقرينة من لسان العرب، وهي أن النظر بمعنى الرؤية يرتبط بـ(إلى) ولا تقول العرب في النظر بمعنى الانتظار باستخدام (إلى) ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾ فلما أراد الانتظار لم يقل (إلى) فلما قال عزَّ وجل ﴿إلى ربها ناظرة﴾ علمنا أنه لم يرد الانتظار، وإنما أراد نظر الرؤية، ولما قرن الله النظر بذكر الوجه أراد نظر العينين اللتين في الوجه. واستدل أيضاً بأن النظر في هذه الآية لا يمكن أن يكون نظر الانتظار لأن الانتظار معه تنقيص وتكدير وذلك لا يكون يوم القيامة، لأن الجنة دار نعيم وليست دار ثواب أو عقاب^(١).

ويلاحظ عليه:

١ - أما قوله كلمة النظر إذا كانت بمعنى الرؤية تعدت بالحرف إلى وإذا كانت بمعنى الانتظار تُعدى بنفسها، يجاب بأن (ناظرة) اسم فاعل، وهو في عمله فرع الفعل، والفرعية تسبب ضعف العامل فيفتقر إلى ما يقويه، كما أن المعمول هنا مقدم، والتقديم سبب آخر لضعف العامل ومن هنا عُدي بـ (إلى).

كما أن تعديته بـ(إلى) مستعملة في كلام العرب، كما في قول جميل بن

معمر:

(١) الملل والنحل، للشهرستاني ج ٢ ص ٢٠٣.

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعمًا

أي: وإذا انتظرتك

وقال حسان بن ثابت:

وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن يأتي بالفلاح

أي: منتظرات.. وهو كثير الاستعمال.

وقد عدى القرآن الكريم اسم الفاعل (ناظرة) بالباء في قوله تعالى:

﴿فناظرة يَمَّ يرجع المسلمون﴾ النمل.

ومعنى هذا الكلام أن «ناظرة» تتعدى بنفسها وبالحرف.

٢ - أما أن الانتظار فيه تنقيص، ولا يناسب أهل الجنة.. نتساءل، من

أين عرف أن الآيات تتحدث عن الجنة؟!

بل هي ظاهر في الموقف - الحساب - بدلالة السياق ﴿تُظُنُّ أن يفعل بها

فاقرة﴾ فالآيات تحكي عن أحوالهم قبل دخولهم إلى مستقرهم ومأواهم،

لأنهم إن دخلوا النار فقد فعل بهم الفاقة يقيناً.

فمعنى الانتظار، وارد جداً، ولا سيما أنه استعمال حقيقي في لسان

العرب فلا يحق للأشعري أن يصادر هذا المعنى.

فإذا قلنا (النظر) بمعنى الانتظار، فذلك ينفي الرؤية الحسية لله

سبحانه، وإذا قلنا أن (النظر) بمعنى الرؤية فيكون المراد منه الاستعمال

المجازي، وقد قرر هذا الاستخدام الشيخ السبحاني، وذلك بتقدير حذف

مضاف (إلى ثواب ربها ناظرة) ويبرر هذا التقدير حكم العقل بعد المقابلة

بين الآيات، فالآية الثالثة تقابل الآية الأولى، والآية الرابعة تقابل الثانية، وعند

المقابلة يُرفع إبهام الثانية بالآية الرابعة، وإليك تنظيم الآيات حسب المقابلة:

آ - ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ يقابلها قوله ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾.

ب - ﴿إلى ربها ناظرة﴾ يقابلها قوله ﴿تظنُّ أن يفعل بها فاقرة﴾.

وبما أن الآية الرابعة ﴿تظنُّ أن يفعل بها فاقرة﴾ واضحة المعنى تكون

قرينة على المراد من الآية الثانية ﴿إلى ربها ناظرة﴾.

فإذا كان المقصود من الآية الرابعة أن الطائفة العاصية تظن وتتوقع أن

ينزل بها عذاب يكسر فقارها ويقصم ظهرها، يكون ذلك قرينة على أن

الطائفة المطيعة تكون مستبشرة برحمته متوقعة لفضله وكرمه، لا النظر لذاته

وهويته سبحانه وإلا لخرج المتقابلان عن التقابل وهو خُلف.

«يجب أن يكون المتقابلان - بحكم التقابل - متحدي المعنى والمفهوم ولا

يكونان مختلفين في شيء سوى النفي والإثبات»^(١).

وبهذه المقابلة تكون الآية واضحة الدلالة غير متشابهة، ولا سيما أن

الآيات الشريفة تتحدث عن الموقف، فما غير الثواب والرحمة يرتجى.

وإلى هذا تشير جملة من الأخبار مثل ما ورد في توحيد الصدوق عن

الإمام الرضا عليه السلام في قوله تعالى ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ يعني

مشرقة تنتظر ثواب ربّها^(٢).

وبهذا عرفنا أن رؤية الله سبحانه ووقوع النظر إلى ذاته خارج عن

إطار هذه الآية بكلا الاحتمالين، فسواء كان المعنى من (ناظرة) الانتظار

تسقط دلالة الآية على الرؤية، وإذا كان بمعنى الرؤية فهي كناية عن النظر

إلى رحمة الله، مثلاً يقال: فلان ينظر إلى يد فلان. وهذا سائد في التعبيرات

العرفية، وعلى هذا قول الشاعر:

إني إليك لما وعدت لناظرٌ
نظر الفقير إلى الغني الموسر

(١) الملل والنحل، للسبحاني ج ٢ ص ٢٠٥.

(٢) التوحيد للصدوق ص ١١٦.

ولهذا ينظر المؤمنون إلى رحمة الله يوم القيامة، أما الكفار يبين حالهم قوله تعالى:

﴿.. ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ آل عمران ١١ .

ومن الواضح أن المراد من (لا ينظر إليهم) هو عدم شمولهم برحمته ولا يكون المقصود هو عدم رؤية الله لهم، لأن رؤيتهم أو عدم رؤيتهم ليس أمراً مطلوباً حتى يهددوا به لأن المقام مقام رحمة.

الدليل الثاني:

ب - قال تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبتُّ إليك وأنا أول المؤمنين﴾ الأعراف ١٤٣ .

لم يستدل أبو الحسن الأشعري بهذه الآية، واستدل بها الأشاعرة، وتقريب الاستدلال بهذه الآية عند الشيخ الباجوري^(١).

١ - إن سيدنا موسى (ع) قد طلبها - أي الرؤية - ولا شك أنه أدرى من المعتزلة بما يجوز في حقه تعالى وبما لا يجوز، ولو كان يعلم استحالتها لما استساغ أن يطلبها.

٢ - أنه سبحانه علّق حصول الرؤية في آخر الآية على أمر جائز في نفسه، وهو استقرار الجبل، بل هو من حيث ذاته أقرب من صيرورته دكاً، وكل أمر يعلق على أمر جائز فهو جائز.

(١) الشيخ إبراهيم الباجوري (شرح جواهر التوحيد) نسقه وأخرج أحاديثه محمد أديب الكيلاني وعبد الكريم شنان، وراجع عبد الكريم الرفاعي دمشق ١٩٧٢ .

٣ - وقالوا - أي المعتزلة :- أنه سأها لأجل قومه، وهو قول باطل لأن تجويز الرؤية باطل بل هو كفر عند أكثر المعتزلة، فلا يجوز لموسى (ع) تأخير الرد عليهم، ففيه تقرير الباطل.

الا ترى أنهم لما قالوا له: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم إله﴾ رد عليهم بساعته ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ الأعراف ١٣٨، والحق أن السائلين القائلين: ﴿لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ البقرة ٥٥، لم يكونوا مؤمنين، ولم يكونوا حاضرين عند سؤاله - عليه الصلاة والسلام - للرؤية.

٤ - وقد نقل ابن نورك عن الأشعري (ره) أنه قال: قال تعالى (لن تراني) ولم يقل (لست بمرئي) على ما مقتضى المقام لو امتنعت الرؤية. هذه زبدة استدلالاتهم بهذه الآية، وإليك مناقشة ما قالوا:

- الوجه الأول، ويجاب عليه بأن سؤال موسى كان بلسان بني إسرائيل وهو ما يرفضه الأشاعرة، ولمعرفة صحته أو عدم صحته ينبغي أولاً معرفة أن الآيات المتعددة حول طلب الرؤية تحكي واقعة واحدة أم اثنتين، فلا بد أن نستعرض كل الآيات التي تناولت الموضوع.

١ - سورة طه: ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ ٨٠.

- ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى - قال هم أولاء على أثرى وعجلتُ إليك رب لترضى - قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾ ٨٠ - ٨٥.

٢ - سورة البقرة:

- ﴿وإذ قلتم يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون - ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون - وظللنا

عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما
ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿٥٥ - ٥٧.

٣ - سورة البقرة:

﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتُم العجل من بعده وأنتم

ظالمون ﴿٥١

٤ - سورة النساء:

﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا

موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا

العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً ﴿

١٥٣.

٥ - سورة الأعراف:

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة،

وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المُفسدين ﴿

١٤٢

﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء فخذها

بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين ﴿ ١٤٥.

﴿واتخذ قوم موسى من بعده من خليمهم عجلاً جسداً له خواراً لم يروا أنه

لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴿ ١٤٨.

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بشمًا خلفتموني من

بعدي أعجلتُم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم

إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع

القوم الظالمين ﴿ ١٥٠.

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلَمَّا أخذتهم الرَّجْفَةُ قَالَ رَبُّ
لَوْ شِئْتُ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَأَيُّ أَتْهَلَكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ
تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْغَافِرِينَ﴾ ١٥٥

وبعد هذا الاستعراض نلاحظ الآتي

١ - إن سؤال بني إسرائيل ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (أرنا الله جهرة) هو
سؤال واحد في سورة طه، ويأتي بعد السؤال الصاعقة والعفو، كما يتلوه
عبادة العجل.

٢ - في سورة طه آية ٨٠ - موعد بني إسرائيل يتلوه المن والسلوى ويليهِ
فتنة السامري وعبادة العجل.

٣ - وفي سورة الأعراف ١٥٥ الميقات وهو الموعد المضروب.
نصل إلى أن السؤال وقع في الميقات بقرينة إضافية هي الصاعقة
والرجفة.

٤ - هل كان سؤال موسى للرؤية في نفس الميقات؟ وهو ميقات
أربعين ليلة (ثلاثون + عشرة)، وفي الآية ٥١ سورة البقرة بعده عِدَّة العجل،
وفي آية الأعراف ١٤٣ - ١٤٨ تلقى موسى الألواح، ووجد قومه يعبدون
العجل، وفي سورة طه ٨٢ - ٨٥ موعد لقوم موسى وعبادة العجل، وفي
سورة النساء ١٥٣ بعد سؤالهم الرؤية تذكر ثم اتخذوا العجل.

والخلاصة أن سؤال قوم موسى في الميقات ومن بعده عبادة العجل،
وسؤال موسى (ع) الرؤية في نفس الميقات ووجد قومه يعبدون العجل.

وعلى هذا فإن سؤال قوم موسى (ع) (أرنا الله جهرة) هو سؤال
موسى (ع): (أرني أنظر إليك) تمَّ في واقعة واحدة وهي الميقات.

ومما يؤكد أنها واقعة واحدة أنه من البعيد تكرار سؤال موسى (ع) وسؤال قومه بعد أن تأخذهم الصاعقة أو يندك الجبل، وعلى أقل تقدير أنه (ع) يذكرهم بها.

ولذا يصح أن موسى سأل الرؤية بلسان بني إسرائيل.

وقد بين الإمام علي بن موسى الرضا (ع) هذا المطلب في جواب المأمون العباسي. قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى عليه السلام فقال له المأمون: يا بن رسول الله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، فسأله عن آيات من القرآن، فكان فيما سأله أن قال له: فما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَمَا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ فِي الْآيَةِ﴾، كيف يجوز أن يسأل كلِّم الله موسى بن عمران عليه السلام ربه الرؤية؟ ألا يعلم أن الله تعالى ذكره لا يجوز عليه الرؤية حتى يسأل هذا السؤال؟ فقال الرضا عليه السلام: إن كلِّم الله موسى بن عمران عليه السلام علم أن الله، تعالى عن أن يُرى بالأبصار ولكنه لما كلمه الله عز وجل وقرّبه نجياً رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله عز وجل كلمه وقربه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعت، وكان القوم سبعمئة ألف رجل، فاختار منهم سبعين ألفاً، ثم اختار منهم سبعة آلاف ثم اختار منهم سبعمئة، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربه، فخرج بهم إلى طور سيناء، فأقامهم في سفح الجبل، وصعد موسى عليه السلام إلى الطور وسأل الله تبارك وتعالى أن يكلمه ويسمعهم كلامه، فكلّمه الله تعالى ذكره وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام، لأن الله عز وجل أحدثه في الشجرة، ثم جعله منبعثاً منها حتى سمعوه من جميع الوجوه، فقالوا: لن نؤمن لك بأن هذا الذي سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرة، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا، بعث الله عز

وجل عليهم صاعقة فأخذتهم بظلمهم فماتوا، فقال موسى: يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا: إنك ذهبت بهم فقتلتهم لأنك لم تكن صادقاً فيما ادعيت من مناجاة الله إياك، فأحياهم الله وبعثهم معه، فقالوا: إنك لو سألت الله أن يريك أن تنظر إليه لأجابتك وكنت تخبرنا كيف هو فنعرفه حقّ معرفته، فقال موسى عليه السلام: يا قوم إن الله لا يُرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنما يُعرف بآياته ويعلم بإعلامه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى عليه السلام يا رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحهم، فأوحى الله جل جلاله إليه: يا موسى اسألني ما سألوك فلن أوأخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى عليه السلام: ﴿رب أرنني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه (وهو يهوي) فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل (بآية من آياته) جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك (يقول: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي) وأنا أول المؤمنين﴾ منهم بأنك لا ترى، فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن. والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة، وقد أخرجه بتمامه في كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام.

وعليه لا يبقى وجه لمثل هذا الاستدلال، فالسؤال بلسان بني إسرائيل وكان الجواب بتدبير إلهي منه تعالى، لأنهم لا يسمعون لموسى (ع) والتعليق على الجبل ودكّه وأسلوب الصدمة العنيف مألوف في تأديب بني إسرائيل لنزعتهم الحسية وقسوة قلوبهم.

فكيف ينسب لموسى (ع) ما تيرا منه في آية ١٥٥ الأعراف حيث دعا الله سائلاً إياه تعالى إحياء قومه، فبدأ تأديباً بقوله: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ فلا يتهمني بنو إسرائيل بقتلهم، ثم قال: ﴿أنهلكنا بما فعل

السفهاء منا ﴿﴾ فإذا هو فعل سفيه ﴿﴾ إن هي إلا فتنتك تُضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ﴿﴾.

ثم يشرع في الدعاء: ﴿﴾ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴿﴾.

أما الوجه الثاني: فإنه تعالى لم يعلق الرؤية على استقرار الجبل - من حيث هو - الذي هو ممكن، ولا على استقرار الجبل حال دكّه بل علقه تعالى على استقرار الجبل بعد تجلي الرب تعالى، وهو غير ممكن وغير واقع، وهي طريقة عقلائية تفيد الامتناع، مما يدل على عدم إمكانية الرؤية، ولا يقال لو أراد الله تعالى الامتناع لعلق على المحال العقلي بنفسه لا بالدلالة العقلائية، كما في قوله <حتى يلج الجمل في سم الخياط>. نقول إن الحكمة الإلهية اقتضت أن تظهر المنع بطريقة العجز البشري، لما هو معروف من طباع بني إسرائيل - المادية، الحسية، التشكيكية - فلا ينفع معهم الحوار العقلي الهادئ، بل لا بد من أسلوب الصدمة الرادعة نفسياً والكاشفة عقلياً عن الاستحالة، ونلاحظ أن دخول الكفار الجنة ليس بمستحيل عقلاً وقد شبهه الله سبحانه بالمستحيل وهو ولوج الجمل في سم الخياط، مقابل الرؤية التي هي مستحيلة عقلاً، وعلقت على أمر بنفسه ليس مستحيلاً وإنما الاستقرار بشرط التجلي - يكون مستحيلاً لعدم الوقوع وللتضاد ..

أما ردع موسى (ع) لبني إسرائيل، فليس محكياً في الآيات القرآنية لأنها ليست بصدد تفصيل القصة، والروايات الواردة عن أهل البيت (ع) تبين أنه (ع) ردّ عليهم، ولكن كافة أساليب موسى في نصحهم وردعه لهم لم يمنعهم عن التفكير بنفس النسق الحسي.

أما بقية الوجوه فما هي إلا احتمالات لا يعول عليها، وباب الاحتمال واسع حتى في أوضح النصوص، فلذلك لا يؤخذ إلا بالاحتمال العقلاني الناقض للحجة، لا مطلق ما يرد في الذهن.. هذا أولاً.

وثانياً: إن بين أيدينا نصاً ينبغي النظر فيه أولاً ثم البحث عما يعارضه أو يقيدّه أو يخصصه في نص آخر أو دلالة عقلية واضحة.

أما التساؤل، لم لم يقل (لست بمرئي) للدلالة على الامتناع بدلاً عن (لن تراني) فسؤال غير وجيه، لأنه إن سلمنا بدلالة (لست بمرئي) أظهر في الامتناع، إلا أنه (لن تراني) تفيد ذلك، والذي ينبغي النظر فيه هو مدلول (لن تراني) هل تفيد الامتناع أم لا؟

ثم ليبحث من شاء عن حكمة اختيار (لن تراني)

والحق أن (لن) تؤكد وتؤيد النفي، لكن تأييد النفي يكون بحسب متعلقه فتكون مؤيدة في متعلقها (محموها) مثل قوله تعالى: ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ مريم.

فالتأييد هنا متعلق على اليوم، أي مؤيد في هذا اليوم، كما أن التأييد يكون عاماً بحسب متعلقه ولا يشمل غيره، مثل (ولن يتمنونه أبداً) فلن تفيد التأييد و(أبداً) مؤكدة لهذا التأييد، رغم هذا هي مختصة بالدنيا ولا تشمل الآخرة، إذ يتمنون الموت فراراً من العذاب، فهذا التأييد مختص بالدنيا بقرينة (بما قدمت أيديهم) هذا إذا كانت لن التأييدية متعلقة بزمن، وتفيد الديمومة إذا لم تعلق بزمن.

أما قول الناس: لن افعل، ثم يفعل، فلا ينبغي الاستشهاد به لأن هذا الأمر لا دخل له بفعل (لن) التي تفيد التأييد وإنما يتعلق بإرادة القائل والظروف المحيطة بالفعل.

و(لن) في الآية الكريمة تفيد الامتناع عن الرؤية ذلك لأنها علقت على استقرار الجبل بعد التجلي، وأيضاً قول موسى (سبحانك) يفيد تنزيه الله سبحانه والتنزيه في هذه الآية عن الرؤية ويعني ذلك أن الرؤية نقص وهو محال بحق الرب تعالى.

أما دعوى التقييد بالدنيا بعد التسليم كون (لن) للتأييد فغير وارد لأن سياق الآية لا يقبل التقييد أو التخصيص وذلك لأن سبب النفي واحد وهو التنزيه، في قوله (سبحانك) والتنزيه لا يقيد بزمن.

هذا إلى أن هناك كثيراً من الآيات تنفي الرؤية عن الله سبحانه بكل وضوح وصراحة، ونكتفي في هذا المقام باستعراض آية واحدة هي أكثر ظهوراً في الأمر.

قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

الانعام ١٠٣.

١ - >الإدراك مفهوم عام لا يتعين في البصر أو السمع أو العقل إلا بإضافته إلى الحاسة التي يراد منها الإدراك، فالإدراك بالبصر يراد منه الرؤية بالعين، والإدراك بالسمع، يراد منه السماع ولأجل ذلك لو قال قائل: أدركته ببصري وما رأيته، يكون تناقضاً^(١).

٢ - >تمدح تعالى بنفي إدراك الأبصار له، فيكون إثباته له نقصاً^(٢).

٣ - إن (لا تدركه) مطلقة في الدنيا والآخرة، و(الأبصار) عامة لأنها جمع محلي بألف ولام، فتشمل جميع الخلق لعدم جواز الاستثناء وهو الظاهر. وقد تهرّب أبو الحسن الأشعري من هذه الآية بقوله يحتمل أن يكون (لا تدركه) في الدنيا وتدركه في الآخرة، لأن رؤية الله أفضل للذات،

(١) الملل والنحل، للسبحاني ج٢ ص٢٢١.

(٢) الفاضل البغدادي السيوري - النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر ص٥٧.

وأفضل اللذات في أفضل الدارين. ويحتمل أن تكون (الأبصار) أبصار الكافرين لأن الله وعد المؤمنين برؤيته.

هذا كلام أقل من أن يحتاج إلى النقاش، لأن مجرد الاحتمال لا يمنع الظهور، والاحتمال يمكن أن يرد على كل شيء، وواضح أن طرح الاحتمالين لإثارة الشك. والذي دفعه لذلك الأحاديث المكذوبة التي آمن بها، وهي تثبت الرؤية.

أما الرازي فلم تسلم هذه الآية من تشكيكاته التي عمت كل شيء فقال في تفسيره الكبير ص ١٢٤: «احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى تجوز رؤيته وأن المؤمنين يرونه يوم القيامة بوجوه عدة منها:

آ. أن الآية في مقام المدح، فلو لم يكن جائر الرؤية لما حصل التمدح بقوله (لا تدركه الأبصار) ألا ترى أن المعدوم لا تصح رؤيته كما الروائح والطعوم والإرادة ولا مدح في شيء منها بذلك، لأن الشيء إذا كان معدوماً في نفسه بحيث تمتنع رؤيته فلا يلزم من عدم رؤيته وعند إدراكه مدح، أما إذا كان في نفسه جائر الرؤية ثم أنه قدر على حجب الأبصار عن رؤيته وعن إدراكه، كانت هذه القدرة الكاملة دلالة على المدح والعظمة، فثبت أن هذه الآية دالة على أنه تعالى جائر الرؤية بحسب ذاته.

ويلاحظ على هذا الكلام أن فيه قياس الرب على الخلق وهو تعالى (ليس كمثل شيء).. هذا أولاً:

ثانياً: لو كان المدح دليلاً على الجواز، فليكن في مثل قوله تعالى: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيراً﴾ الإسراء ١١١.

فهل الشريك والولد وولي الذل جائر على الله تعالى؟!!

فالملازمة ممنوعة كما هو واضح، فإذاً يُمدح أيضاً على الغير جائر.

أما مدح المعدوم يرد بأن المدح ليس بالجزء الأول (لا تدركه الأبصار) فقط بل بمجموع الجزئين أي بضميمة (وهو يُدرك الأبصار) والمدح هنا في المقابلة.

ب - واستشكل الرازي أيضاً بأن الأبصار صيغة جمع لا تفيد الاستغراق بمعنى لا تدركه جميع الأبصار، فيمكن أن تدركه بعض الأبصار، وهذا يفيد سلب العموم - أي أن النفي متوجه إلى المجموع لا لكل جزء من أجزاء المجموع - ولا يفيد عموم السلب - أي النفي المتوجه إلى كل جزء من أجزاء المجموعة.

ويلاحظ عليه: أن لفظة (الأبصار) صيغة جمع محلى بألف ولام، فهي تفيد العموم (الاستغراقي) بلا ريب، والنفي متوجه للنسبة (العموم ومتعلقه) فيفيد عموم السلب - أي كل الأبصار لا تدركه - نعم لو توجه النفي لنفس العموم لكان سلب العموم ولكن هذا أجنبي عن المقام غير ظاهر ونظير هذا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فتفيد عموم السلب - أي أن الله لا يحب كل المعتدين - وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران ٣٢٠، وقوله ﴿لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.. كذلك تفيد عموم السلب كما أن المقابلة بين (لا تدركه الأبصار) وبين (وهو يدرك الأبصار) لدلالة قطعية على عموم السلب في الأولى، كما أن الثانية عامة في الإثبات.

ج - وقد نقل الرازي إشكالاً آخر وهو ما نُقل عن ضرار الكوفي وهو: أن الله تعالى لا يرى بالعين وإنما بحاسة سادسة يخلقها الله تعالى يوم القيامة، وذلك لتخصيص عدم الرؤية بالبصر فقط، فيكون إدراك الله بغير البصر جائز.

... وهذا هروب من طاولة البحث لأن محل النزاع هو الرؤية البصرية التي صرحوا بها (وهي بهذه العيون كالقمر في ليلة البدر).

د - يقول الرازي أيضاً: إن الإدراك لا يساوق الرؤية بل هو اللقوق والإحاطة ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾. وليس مجرد العلم أو الرؤية.

ولا شك أن الإحاطة بالله نقص فيكون النفي مدحاً والرؤية التي نثبتها ليست إحاطة.

والرد عليه، أنا نسلم أن الإدراك بمعنى اللقوق والبلوغ ونمتنع أن يكون بمعنى الإحاطة، ولا ترادف ولا ملازمة بينهما.

فالإدراك مفهوم عام ضمن معنى (اللقوق - والبلوغ) ولا يتحدد إلا بمتعلقه فإذا قيل، أدركته بيصري أي أن البصر لحق بالمرئي ورآه، وكذا العقل والأذن وكل حاسة يحسبها، كما يستخدم الإدراك بمفهومه العام كقوله (إنا لمدركون) بمعنى ملحوقون. أما الزعم أن اللحاق يقتضي الإحاطة، فدعوى لا يُعرف لها وجه كما أن الرؤية هي إحاطة سواء وقعت على الجزء أو الكل، وما يُرى بعضه يُرى كله بتعدد اللحاظ والزوايا.

والخلاصة: أن الآية الشريفة محكمة الدلالة على منع الرؤية، وفي نسق حكم العقل الواضح، وما هذه الإشكالات إلا لإثارة التشكيك وأغلبها يمكن وصفه (بالمهزلة).

وقبل أن نختتم هذا البحث أحبُّ أن أشير إلى جوهر الخلاف في هذه المسائل التي تتعلق بالله سبحانه وتعالى.

فلماذا أخواننا أهل السنة والجماعة بمختلف طوائفهم ينسبون لله سبحانه ما لا يليق بجلالته؟!

ولماذا تسعى الشيعة دائماً لتنزيه الله من كل نقص وشائبة؟!

يمكن أن يجاب على هذا السؤال بعدة إجابات، إلا أننا نقتصر على

جواب واحد شامل لجميع الأجوبة على نحو الإجمال:

بعد أهل السنة عن نهج أهل البيت وتقوقعهم على رواياتهم الخاصة، ويستحيل أن يُعرف الله بغير الطريق الذي حدده، فلا يمكن معرفته بروايات كعب الأخبار، ووهب ابن منبه، وأبو هريرة... وغيرهم.

وإن الذي يؤسفني هو حرمان أهل السنة أنفسهم من هذا الكم الهائل من المعارف الإلهية التي رواها الثقات عن أئمة الظهر ومعادن الحكمة الإلهية، ولو أنهم اطلعوا على قليل منها لما أتوا بهذه الأفكار المخزية.

صدق أبو عبد الله الحسين عليه السلام عندما قال: نحن حزب الله الغالبون وعتره رسول الله صلى الله عليه وآله الأقربون وأهل بيته الطيبون وأحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله صلى الله عليه وآله ثاني كتاب الله تبارك وتعالى، الذي فيه تفصيل كل شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول علينا في تفسيره، لا يطيننا تأويله بل نتبع حقائقه، فأطيعونا، فإن طاعتنا مفروضة، أن كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة، قال الله عز وجل ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله ورسوله﴾.

وقال: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾^(١). وإليك في هذا المقام قليلاً من الروايات حتى تعلم أن إلهاً كما وصفه أهل البيت لا تقع عليه الرؤية:

روى الطبرسي في خطبة عن علي (ع) قال:

«دليله آياته، ووجوده إثباته، ومعرفته توحيد، وتوحيده تمييزه من خلقه، وحكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزلة. إنه ربّ خالق غير مربوب مخلوق، كل ما تصور فهو بخلافه»^(٢).

(١) الاحتجاج ص ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق.

وقوله (ع): «توحيدہ تميزہ من خلقہ» مطلق يفيد أنه سبحانه ممتاز عن خلقه بالحقيقة في جميع شؤونه لا مشاركة بينه وبين خلقه بوجه من الوجوه، وقوله (ع): «حكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزلة» تصريح بهذا الإطلاق لأن المباينة الصفية هي أن كل صفة وحكم يجري على الله تعالى، لا يجري ولا يطلق على ما سواه من الخلق بما له من المعنى الشخصي، وكذلك كل نعت وتقديس يمجد ويقدس تعالى به لا يُطلق على من سواه بما له من معنى^(١).

وجاء في خطبة الإمام الرضا (ع) في مجلس المأمون: أول عبادة الله معرفته، وأصل معرفة الله توحيدہ، ونظام توحيدہ الله نفي الصفات عنه بشهادة العقول أن كل صفة وموصوف مخلوق وشهادة كل مخلوق أن له خالقاً ليس بصفة ولا موصوف، وشهادة كل صفة وموصوف بالاقتران، وشهادة الاقتران بالحدث وشهادة الحدث بالامتناع من الأزل الممتنع من الحدث، فليس الله عَرَفَ من عرف بالتشبيه ذاته، ولا إياه وحَد من اكتننه ولا حقيقته أصاب من مثله، ولا به صدَّق من نهَّاه، ولا صمد صمده من أشار إليه، ولا إياه عنى من شبَّهه، ولا له تذلل من بعَّضه، ولا إياه أراد من توهمه، كل معروف بنفسه مصنوع وكل قائم في سواه معلول، بصنع الله يستدل عليه، وبالعقول يُعتقد معرفته، وبالفطرة تثبت حجته، خَلَقُ الله الخلق حجاباً بينه وبينهم ومباينته إياهم مفارقتة إبتهم، وابتدأه إياهم دليلهم على أن لا ابتداء له لعجز كل مُبتدئٍ عن ابتداء غيره، وأدوه إياهم دليل على أن لا أداة فيه لشهادة الأدوات بفاقة المتأدئين وأسمائوه تعبيرٌ وأفعاله تفهيمٌ، وذاته حقيقة، وكنهه تفریق بينه وبين خلقه، وغيره تحديد لما سواه فقد جهل الله من استوصفه وقد تعداه من استمثلته وقد أخطأه من اكتننه، ومن قال: كيف

(١) توحيد الإمامية، آية الله الشيخ محمد باقر الملكي ص ٤٠٤.

فقد شَبَّهه ومن قال: لِمَ فَقَدَ عِلْمَهُ، ومن قال: متى فقد وَقْتَهُ، ومن قال: فيم فقد ضَمَّنَهُ، ومن قال: إلام فقد نَهَاه، ومن قال: حتام فقد غَيَّاه ومن غَيَّاه فقد غَاياه، ومن غَاياه فقد جزَاه، ومن جزَاه فقد وصفه، ومن وصفه فقد أَلحد فيه، لا يتغير الله بتغير المخلوق، كما لا يتحدد بتحديد المحدود، أحدٌ لا بتأويل عددٍ، ظاهرٌ لا بتأويل المباشرة، متجلٌ لا باستهلال رؤية، باطنٌ لا بموايلةٍ، مُبائنٌ لا بمسافة، قريب لا بمداناة، لطيف لا بتجسم، موجود لا بعد عدم، فاعل لا باضطرار، مُقدَّرٌ لا يجول فكرةٍ مُدبَّرٌ لا بحركة، مُريدٌ لا بهمامةٍ، شاء لا بهمةٍ، مُدركٌ لا بمجسمةٍ سميعٌ لا بآلةٍ، بصيرٌ لا بأداةٍ.

لا تصحبه الأوقات، ولا تضمنه الأماكن، ولا تأخذه السنوات ولا تحده الصفات، ولا تقيده الأدوات سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده والابتداء أزاله، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له وبتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له، وبمضادته بين الأشياء عُرف أن لا ضدَّ له، وبمقارنته بين الأمور عُرف أن لا قرين له، ضادَّ النور بالظلمة، والجلالية بالبهمة، والجسو بالليل، والصدِّد بالحرور، مُؤلَّفٌ بين متعادياتها، مُفرَّقٌ بين متدانياتها، دالَّةٌ بتفريقها على مُفرِّقها، وبتأليفها على مُؤلفها، ذلك قوله عز وجل: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ فرق بها بين قبل وبعدٍ ليعلم أن لا قبل له ولا بعد، شاهدةٌ بفرائزها أن لا غريزة لمغرزها، دالَّةٌ بتفاوتها أن لا تفاوت لمفاوتها مخبرةٌ بتوقيتها أن لا وقت لموقتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبينها غيره له معنى الربوبية إذ لا مربوب وحقيقة الإلهية إذ لا مألوه ومعنى العالم ولا معلوم، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وتأويل السمع ولا مسموع، ليس منذ خَلَقَ استحق معنى الخالق، ولا بإحدائه البرايا استفاد معنى البارئية، كيف ولا تُغيِّبه مذ ولا تدنيه قد ولا تحجبه لعل، ولا توقته متى، ولا يشتمله حين ولا تقارنه مع، إنما تحدَّ الأدوات أنفسها، وتُشير الآلة

إلى نظائرها وفي الأشياء توجد فعالها، منعتها «منذ» القدمة، وحمتها «قد» الأزلية، وجنبتها «لولا» التكملة، افرقت فدللت على مُفرقتها، وتباينت فأعربت عن مبانيتها، بها تجلّى صانعها للعقول وبها احتجب عن الرؤية، وإليها تحاكم الأوهام، وفيها أُثبت غيره، ومنها أُنيط الدليل، وبها عُرف الإقرار، وبالعقول يعتقد التصديق بالله، وبالإقرار يكمل الإيمان به، لا ديانة إلا بعد معرفته، ولا معرفة إلا بالإخلاص، ولا إخلاص مع التشبيه، ولا نفي مع إثبات الصفات للتشبيه فكل ما في الخلق لا يوجد في خالقه، وكل ما يمكن فيه يمتنع في صانعه، لا تجري عليه الحركة ولا السكون، وكيف يجري عليه ما هو أجراه، أو يعود فيه ما هو ابتدأه إذا لتفاوتت ذاته، ولتجزأ كنهه، ولا يمتنع من الأزل معناه، ولما كان للبارئ معنى غير المبروء، ولوحد له وراء إذا حُدَّ له أمام، ولو التمس له التمام إذا لزمه النقصان، كيف يستحق الأزل من لا يمتنع من الحدث، أم كيف يُنشأ الأشياء من لا يمتنع من الإنشاء، إذا لقامت عليه آية المصنوع، ولتحول دليلاً بعدما كان مدلولاً عليه، ليس في محال القول حُجة ولا في المسألة عنه جوابٌ، ولا في معناه الله تعظيمٌ، ولا في إبانته عن الحق ضميمٌ، إلا بامتناع الأزلي أن يُثنى، وما لا بدأ له أن يُبدأ، لا إله إلا الله العلي العظيم، كذب العادلون بالله، وضلوا ضلالاً بعيداً، وخسروا خسراً مبيناً، وصلى الله على محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين.



الفهرس

الصفحة

الموضوع

٧	- إهداء
٩	□ الفصل الأول : مقتطفات من حياتي
١١	● أيام صباي
١٣	- كيف كانت البداية
٢٠	- في الجامعة
٢٥	- في قريتنا
٢٦	- مناظرة مع شيخ الوهابية
٣٠	- ملاحظات للباحث لا بد منها
٣٣	□ الفصل الثاني : وانكشف الزيف
٣٧	- عليكم بسنتي .. الخدعة الزائفة
٣٩	- مصادر الحديث
٣٩	- رواية الترمذي
٤٠	- سند الحديث عند أبي داؤد
٤١	- سند الحديث عند ابن ماجه
٤١	- الواقع التاريخي وحديث (وسنتي)
٤٦	- الحديث الآخر
٤٩	- حوار مع المحدث الدمشقي الأرنؤوطي
٥٦	- لا تحل مشكلة أهل السنة بالحديثين
٥٧	- الخلفاء هم أئمة أهل البيت (ع)
٦٠	- أهل البيت طريق التمسك بالكتاب والسنة
٦٣	□ الفصل الثالث : حديث كتاب الله وعترتي في المصادر السنية
٦٥	- عدد الرواة من الصحابة
٦٦	- عدد الرواة من التابعين
٦٨	- بعض الكتب التي أوردت الحديث

- ٦٨ - في صحيح مسلم
- ٧٠ - عند الحاكم
- ٧١ - عند الرمزي
- ٧٧ - شبهات على حديث الثقلين
- ٧٧ آ - شبهة ابن الجوزي
- ٧٧ - دفع الشبهة
- ٧٨ - رد ابن الجوزي في عطية
- ٨٠ - رد ابن الجوزي في تضعيفه لابن عبد القدوس
- ٨٢ - رده في تضعيف عبد الله بن داهر
- ٨٣ ب - اشكال ابن تيمية
- ٨٧ - دلالة الحديث على إمامة أهل البيت (ع)
- ٩١ □ الفصل الرابع : من هم أهل البيت
- ٩٤ آ - أهل البيت في آية التطهير
- ٩٥ - حديث الكساء تحديد هوية أهل البيت
- ١٠٣ ب - أهل البيت في آية المباهلة
- ١٠٧ □ الفصل الخامس : ولاية علي عليه السلام في القرآن
- ١٠٩ - البحث الفاصل
- ١١٠ - آية الولاية
- ١١١ - وجه الاستدلال من هذه الآية
- ١٢٣ - المصادر التي أثبتت نزولها في أمير المؤمنين علي عليه السلام
- ١٢٤ - نص الخطبة
- ١٣٩ □ الفصل السادس : الشورى والخلافة الإسلامية
- ١٣١ - أولاً : بحث في دلالة آيات الشورى
- ١٤٣ - ثانياً : الشورى في الواقع العملي
- ١٥٥ - ثالثاً : الصحابة وآية الانقلاب
- ١٦٩ □ الفصل السابع : الثلاثي وتحريف الحقائق
- ١٧١ - أولاً : المؤرخون
- ١٧١ - دور التاريخ في استنهاض الأمم
- ١٧٢ - السلطات وتحريف التاريخ
- ١٧٣ - نماذج من تحريفاتهم
- ١٧٣ آ - النموذج الأول

١٧٧

ب - النموذج الثاني

١٧٩

ج - النموذج الثالث

١٨٣

- ثانياً : المحدثون

١٨٣

آ - الحديث في عهد معاوية

١٩٠

ب - رواية الحديث وتدليس الحقائق

١٩٠

(١) النموذج الأول

١٩١

(٢) النموذج الثاني

١٩٣

(٣) النموذج الثالث

١٩٤

(٤) النموذج الرابع

١٩٥

(٥) النموذج الخامس

١٩٩

ثالثاً : الكتاب

٢٠٠

آ - بعض الكتب التي ألفت ضد الشيعة

٢١٠

ب - كتب الشيعة التي ردت وأصلت

٢٠٦

ج - مثقفو السنة وعلماء وهايتشيون

٢٠٩

د - نماذج من تحريفات الكتاب

٢١٠

(١) كتاب (مذهب أصول الشيعة) د. ناصر عبد الله القفاري

٢١٠

آ - من افتراءاته على الشيعة

٢١١

ب - تحريف الحقائق بنقل النصوص المبتورة

٢١٥

(٢) إحسان إلهي ظهر

٢١٦

- ملاحظات على منهجه

٢١٦

آ - الملاحظة الأولى

٢١٨

ب - الملاحظة الثانية

٢١٩

- نماذج من تزويراته

٢١٩

(١) النموذج الأول

٢٢٠

(٢) النموذج الثاني

٢٢٣

(٣) النموذج الثالث

٢٢٤

(٤) النموذج الرابع

٢٢٦

(٣) كتاب تبديد الظلام ، لابن جبهان

٢٢٦

آ - نماذج من أسلوبه في تضعيف الأحاديث

٢٢٧

١ - الحديث الأول

٢٢٩

٢ - الحديث الثاني

٢٣٠

٣ - الحديث الثالث

٢٣١

٤ - الحديث الرابع

- ٢٣٣ ب - نماذج من الفراءاته على الشيعة
- ٢٣٧ □ الفصل الثامن : المذاهب الأربعة تحت المجهر
- ٢٤٠ - حركة الاختلاف بين المذاهب
- ٢٤٩ - وقفة مع أئمة المذاهب الأربعة
- ٢٥١ آ - فقه أبي حنيفة
- ٢٥٤ - طعون على أبي حنيفة.
- ٢٥٦ - ابو حنيفة والإمام الصادق عليه السلام
- ٢٦٢ ب - مالك بن أنس
- ٢٦٣ - نشأته ودراسته
- ٢٦٩ - طعون على مالك.
- ٢٧٢ ج - الشافعي
- ٢٧٢ - نشأته وتلاميذه
- ٢٧٤ - انتشار مذهبه
- ٢٧٦ - طعون على الشافعي
- ٢٨٠ د - أحمد بن حنبل
- ٢٨٠ - نشأته العلمية .. وتلاميذه
- ٢٨٠ - كتب أحمد وآثاره
- ٢٨١ - محنة أحمد بن حنبل
- ٢٨٤ - أبطال لم تُسلط عليهم الأضواء
- ٢٨٥ - أحمد في عهد المتوكل
- ٢٨٨ - الفقه عند أحمد
- ٢٩٣ - خاتمة
- ٢٩٥ - لمحة عن الفقه الشيعي
- ٢٩٧ - مناظرة يوحنا مع علماء المذاهب الأربعة
- ٣٤٧ □ الفصل التاسع : عقائد أهل السنة
- ٣٤٨ - لمحة تاريخية
- ٣٤٩ - عقائد السلفية
- ٣٤٩ أولاً : مرحلة أحمد بن حنبل .. منهجه في العقائد
- ٣٤٩ - روايات في ضرورة العقل
- ٣٦٤ - نماذج من أحاديث التجسيم
- ٣٧٤ - نماذج من أحاديث أهل البيت (ع)
- ٣٧٩ ثانياً : مرحلة ابن تيمية

- ثالثاً : مرحلة محمد بن عبد الوهاب
- ٣٨٧ - تكفير المسلمين
- ٣٨٨ - مناقشة توحيد الربوبية
- ٣٩٠ - مناقشة توحيد الألوهية
- ٣٩١ - مناقشة الوهابية في مناط مفهوم العبادة
- ٣٩٢ - تعريف العبادة بالمفهوم القرآني
- ٣٩٨ - الاعتقاد بالاستقلالية وعدمها ملاك في التوحيد والشرك
- ٣٩٩ - هل القدرة وعدمها ملاك في التوحيد والشرك
- ٤٠٢ - هل التوسل حرام
- ٤٠٤ - تهافت الأشاعرة
- ٤٠٧ - أحاديث رؤية الله عند أهل السنة
- ٤٠٨ - أحاديث أهل البيت في نفي الرؤية
- ٤١٢ - أدلة الأشاعرة على جواز الرؤية من العقل ومناقشتها
- ٤١٤ - أدلة الأشاعرة على جواز الرؤية من القرآن ومناقشتها
- ٤١٦

